رحلة ابن الطيب

من فاس إلى مكة المكرمة

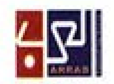


تأليف

محمد الطيب عرف بابن محمد
بن موسى الفاسي المعروف بالشرقي
ت 1171هـ

تحقيق

عارف أحمد عبد الغني





رحلة ابن الطيب
من فاس إلى مكة مكرمة

رحلة ابن الطيب
من فاس إلى مكة المكرمة

محمد الطيب الفاسي

تحقيق

عارف أحمد عبد الغني

ISBN 978-9933-480-27-1

دار العراب
للدراسات والنشر والترجمة
دمشق – سوريا – حلبوني الجادة الرئيسية
تلفاكس: 00963112247432
جوال: 00963933406321
00963940455593
E-MAIL: daralaraab@yahoo.com



دار نور حوران
للدراسات والنشر والترجمة
دمشق - سوريا – ص. ب 5658
هاتف: 00963157715430
فاكس: 00963157198425
جوال: 00963933329555
00963941329555
E-MAIL: NOURPUBLISHING@GMAIL.COM

رحلة ابن الطيب
من فاس إلى مكة المكرمة

محمد الطيب عرف بابن محمد بن موسى الفاسي
المعروف بالشرقي (ت1171هـ)



تحقيق
عارف أحمد عبد الغني




دار العراب للدراسات والنشر والترجمة دار نور حوران

قال رسول الله (ﷺ)[1]: «العرب سِطَامُ الناس» والسِّطامُ: بالكسر: المسعار، وحَدُّ السيف، قال كعب بن جُعيل الثعلبي:

وأبيضَ مصقولَ السِّطَامِ مُهنداً ... وذا حَلَقٍ من نسج داود مُسْرَدا

أي أن العرب كالحد من السيف في شوكتهم وحِدَّتهم.

---

(١) الحديث والخبر في الفائق ٢/ ١٧٨، النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٦٦، الجمهرة ٣/ ٢٨، تهذيب اللغة ١٢/ ٣٥٠، اللسان (سطم)، قصد السبيل ٢/ ١٣٤.

الإهداء

إلى روح الشيخ تقي الدين محمد بن دقيق العيد الذي طلب منه في سنة ٦٩٩ هـ أن يصدر فتوى بجواز أخذ الدينار من كل واحد من الرعية لأجل دفع العدو، فامتنع متحججاً بأن كلاً من الأمراء له مال جزيل وفيهم من يجهز بناته بالجواهر واللآلئ، ويعمل الإناء الذي يستنجي منه في الخلاء من فضة، ويرصع مداس زوجته أصناف الجواهر....

واحتج عليه بأن العز بن عبد السلام أفتى بذلك في أيام المظفر قطز فقال: لم يكتب ابن عبد السلام لقطز حتى أحضر سائر الأمراء ما في ملكهم من ذهب وفضة وحلي نسائهم وأولادهم، ورآه، وحلَّف كلاً منهم أنه لا يملك سوى هذا[1] ...

(١) السلوك ١/ ٣/ ٨٩٨.



المقدمة

أثناء تتبعي لتاريخ أمراء مكة المكرمة الذي صدر منذ أكثر من عشرين سنة كانت من إحدى مصادر الكتاب، كتب الرحلات، حيث ترد أحياناً أسماء بعض أمراء مكة في تلك الرحلات، وينطبق ذلك أيضاً على كتاب تاريخ أمراء المدينة المنورة، وفي عام ١٩٧٩م، عقدت ندوة دولية في الرياض حول الحجاز في الوثائق، والمخطوطات، حيث كانت المخطوطات المتعلقة برحلات الحجاز، ولاسيما المخطوطات التي تحدثت عن رحلات المغاربة إلى الحج، حيث أشبع يومها الموضوع بحصاً، وتدقيقاً، وكان من بين هذه الرحلات، رحلة محمد بن محمد الطيب الفاسي، وكان من توفيق الله أن حظيت بنسخة مصورة عن مخطوطة تلك الرحلة، تلك هي البداية.

مؤلف الكتاب:[١] فخر الدين محمد الطيب، وبه عرف ابن محمد بن موسى الفاسي، المدني المعروف بالشرقي، والشرقي نسبة إلى شراقة، وينطق بها أهل المغرب بالكاف، وهي على مرحلة من فاس.

ولد بفاس سنة ١١١٠هـ ونشأ بها، وكان واسع الإطلاع، قوي المعارضة، وفي الرواية أميناً، وله من الشيوخ ما يقارب مائة وثمانين شيخاً.

---

(١) (خ) فهرس مخطوطات الظاهرية.

(ط) المرادي: سلك الدرر ٤/ ٩١-٩٤، الكتاني: فهرس الفهارس: ٢/ ٣٩٦-٣٩٩ـ البغدادي: هدية العارفين ٢/ ٣٣١، فهرست الخديوية ٤/ ٨٦، ٨٧، فهرس الأزهرية ١/ ٣٣٢، الزركلي: الأعلام ٧/ ٤٧، البغدادي: إيضاح المكنون ١/ ٧٦، ٩٤، ٢٢٧، ٣٢١، ٢/ ٢١٦، ٢٥٨، ٣٥٣، ٣٧٣، ٥٨٣، فهرس التيمورية ٤/ ١٨٤، ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب ٢٨٦.
Arabic manuscripts in the Princeton ١١٢, brockelmann: s,١١/٢٢

(م) محمد العربي، ألعزوري: مجلة المجمع العربي ٣٠/ ٨٧-٩٠.

وله شيوخ بالمشرق، وأقام بمكة سنين وختم بالمسجد الحرام الصحاح الستة وغيرها من الأصول الحديثية، وانتفعت به الطلبة هناك، ورحل إلى الروم من الطريق الشامي، ورجع منها من الطريق المصري.

وأخذ عنه في الشام ومصر خلق كثيرون، توفي سنة ١١٧١هـ بالمدينة المنورة.

من مؤلفاته: حاشية على القاموس، وأخذ عنه الزبيدي صاحب تاج العروس...

وترجم له صاحب سلك الدرر:

محمد بن الطيب بن محمد بن محمد بن موسى الشرقي الفاسي المالكي الشهير بابن الطيب نزيل المدينة المنورة الشيخ الامام المحدث المسند اللغوي العالم العلامة المفنن أبو عبد الله شمس الدين ولد بفاس سنة عشر ومائة وألف ونشأ بها وأخذ عن جملة من العلماء منهم والده ومحمد بن محمد المسناوي ومحمد بن عبد القادر الفاسي ومحمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي ومحمد بن عبد السلام البناني ومحمد بن عبد الله الشاذلي وأبو عبد الله محمد بن محمد ميارة وأبو الاقبال أحمد بن محمد الدرعي وأبو عبد الله محمد بن محمد الأندلسي وأحمد بن علي الوجاري ومحمد أبو الطاهر بن إبراهيم الكوراني واستجاز له والده من أبي الأسرار حسن بن علي العجيمي وعمره نحو سنتين والسيد عمر البار العلوي وغيرهم ممن ينوف على مائة وثمانين شيخاً وبرع وفضل وصار امام أهل اللغة والعربية في وقته محققاً فاضلاً متضلعاً في كثير من العلوم ودرس بالحرم الشريف النبوي وانتفعت به الطلبة ورحل للروم من الطريق الشامي ورجع منها على الطريق المصري وأخذ عنه في الشام ومصر خلق كثيرون وحصل بينه وبينهم مباحث في فنون من العلم وله تآليف حسنة منها حاشية على القاموس وشرح نظم فصيح ثعلب في مجلدين وشرح على كفاية المتحفظ وحاشية على الاقتراح وشرح كافية ابن مالك وشرح شواهد الكشاف وحاشية على المطول ورحلة وجمع مسلسلاته في كتاب وهي تنوف على ثلثمائة وغير ذلك من المصنفات مما ينوف على خمسين مصنفاً وله شعر لطيف ينبئ عن قدر في الفضائل منيف فنه قوله هذه القصيدة في مدح السفر:

ســـــافر إلى نيــــل المعــــزة إن في الســـــــفر الظفــــــر

وانفـــــر لنيــــل المجـــــد في مــــن للمعـــــالي قـــــد نفــــر

واعلـــــم بـــــأن المكـــــث في ال أوطـــــان يـــــدعو للضـــــجر

ويـــــورّث الأخـــــلاط وال أجســـــام أنـــــواع الضرر

أو مـــــا رأيـــــت المـــــالطو ل المكـــــث يعلـــــوه الـــــوضر

والبـــــدر لـــــو لـــــزم الاقـــــا مـــــة في محـــــل مـــــا بـــــدر

والـــــدرّ لـــــو أبقـــــوه في قعـــــر البحـــــار لمـــــا افتخـــــر

والتـــــبر تـــــرب في المعـــــا دن وهـــــو أفخـــــر مـــــدّخر

والعـــــود معـــــدود لـــــدى ال غابـــــات مـــــن جـــــنس الشـــــجر

والبـــــاتر المغمـــــود لـــــو لم يخرجـــــوه لمـــــا بـــــتر

هـــــذا وكـــــم مثـــــل سرى في النـــــاس مـــــن هـــــذي العـــــبر

أبـــــدى البـــــدائع منـــــه مـــــن نظـــــم القـــــريض ومـــــن نثـــــر

عـــــن وجههـــــا في غالـــــب ال أســـــفار أســـــفر مـــــن ســـــفر

فـــــادأب عـــــلى الترحـــــال في ال أحـــــوال أجمعهـــــا تسر

واعلـــــم بـــــأن البعـــــد عـــــن وطـــــن بـــــه تـــــمّ الـــــوطر

وأغـــــرب بشرق وأشرقـــــن في الغـــــرب إن تـــــك ذا نظـــــر

واجعـــــل جميـــــع النـــــاس أز رك والثـــــرى طـــــرّاً فـــــذر

لا تـــــؤثرن بـــــدواً ولا حضراً وكـــــن مـــــع مـــــا حضر

فالبـــــدو عـــــز واللطـــــا فـــــة والظرافـــــة في الحضر

فـــــإذا بـــــدوت فكـــــل عـــــز بـــــاذخ فيـــــك اســـــتقر

وإذا حضرت فكـــل ظــــر ف ظرفــه لـــك مســتقر

لا تبـــك الفـــالاً ولا داراً ولا رســـماً دثـــر

فالنـــاس الفـــك كلهـــم والأرض أجمعهـــا مقـــر

فمتـــى وجـــدت العـــز وال عـــيش الهنـــيّ أقـــم تـــبر

ومتـــى رأيـــت الضـــدّ والـــص دّ الخفـــيّ فـــدع وذر

واجعـــل بضـــاعتك التقـــى مـــع مـــن أسرّ ومـــن جهـــر

فـــإذا اتقيـــت الله فـــز ت بكـــل كنـــز مـــدّخر

وقال في عين الماضي حين وصل إليها من طريقه وهي عين ماء غزيرة محتفة بالنبات والأشجار وعندها قرية ماهولة قد وصف أهلها بمحاسن الأخلاق واتصف نساؤها بمحاسن الخلق وحسن العيون على الخصوص وهذه العين المذكورة واقعة في أرض الجريد ما بين مدينة فاس ومدينة طرابلس الغرب.

عـين مـاضي بهـا عيـون مـواضي فـاعلات فعـل السـيوف المـواضي

والتفـات الغـزال لمـا غـزا لي صـائلاً صـولة الأسـود المـواضي

وقـدود تزهـو إذا قـدّت القـب ب ازدهـاء الأغصـان بـين الريـاض

قال الشيخ المذكور بعد إيراد هذه الأبيات التي وصف فيها نساء عين الماضي غير أنا أخبرنا انهن لا يستعملن الماء في الاغتسال لأنه يضر بأبدانهن مهما قطر عليها وسال وقد ورد علينا سائل بين موجب ذلك وأوضح عذره قائلاً إن ذلك الماء يسقط حمل الحوامل ويذهب من الأبكار بالعذرة انتهى.

وله وقد أنشدهما في الحجر والحطيم:

هـديت إلى الصراط المسـتقيم فجئـت لحجـة البيـت العظـيم

وعنـد الحجـر قـال الحجـر أبشر فقـد حطمـت ذنوبـك بـالحطيم

وله غير ذلك من الأشعار الرائقة والمكاتبات الفائقة وكان له الباع الطويل في اللغة والحديث وكان فرداً من أفراد العالم فضلاً وذكاءً ونبلاً وله حافظة قوية وفضله أشهر من أن يذكر وكانت وفاته بالمدينة المنورة سنة سبعين ومائة وألف بتقديم السين ودفن عند قبر السيدة حليمة رضي الله عنها ورحمه الله وإيانا.

وصف المخطوطة: تقع المخطوطة في ٢٦٥ صفحة، وعدد أسطر كل صفحة ٢٧ سطراً، وفي كل سطر حوالي ٩ كلمات، ومسطرة المخطوطة٢١×٢٩ سم، وهي من مقتنيات جامعة الملك سعود الإسلامية في الرياض، وخطها واضح، ليس فيها أي خرم، أو طمس، وخطها نسخي معتاد.

عملنا في المخطوط: بعد صف الكتاب وضبط النص، تم تخريج الآيات القرآنية، وتخريج بعض الأشعار من دواوين أصحابها، حيث تم فهرسة الكتاب فهرسة تليق به دون التعريف ببعض المواضع وعلى الأخص فيما يتعلق بالمغرب، وتونس، والجزائر وليبيا ومصر، والحجاز .

كما أنوه أنني لم أقم بضبط الأشعار الواردة في النص حيث سيكون انشاء الله في طبعة لاحقة لأن ذلك يحتاج إلى جهد ووقت وقد تكون أشعاره نواة لإصدار ديوان كامل لشعره.

راجين أن يكون هذا العمل في ميزان حسناتنا يوم لا ينفع مال، ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

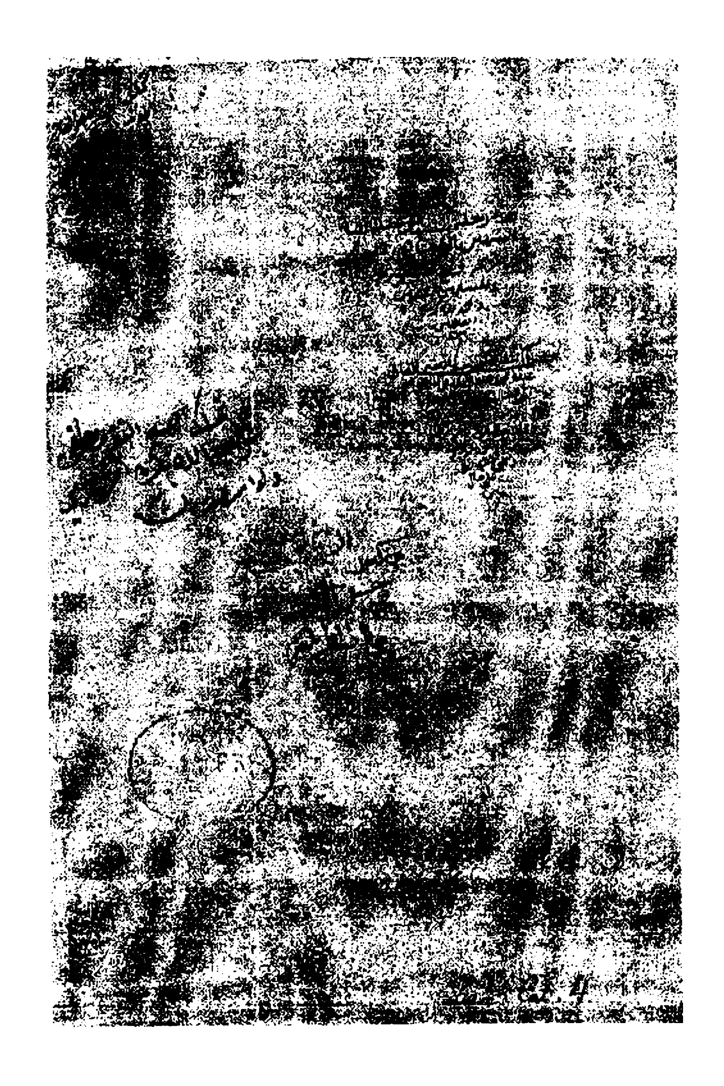
وآخر دعوانا أن الحمد لله رَبّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد بن عبد الله رسوله الأمين، اللهم آمين.

دمشق الشام

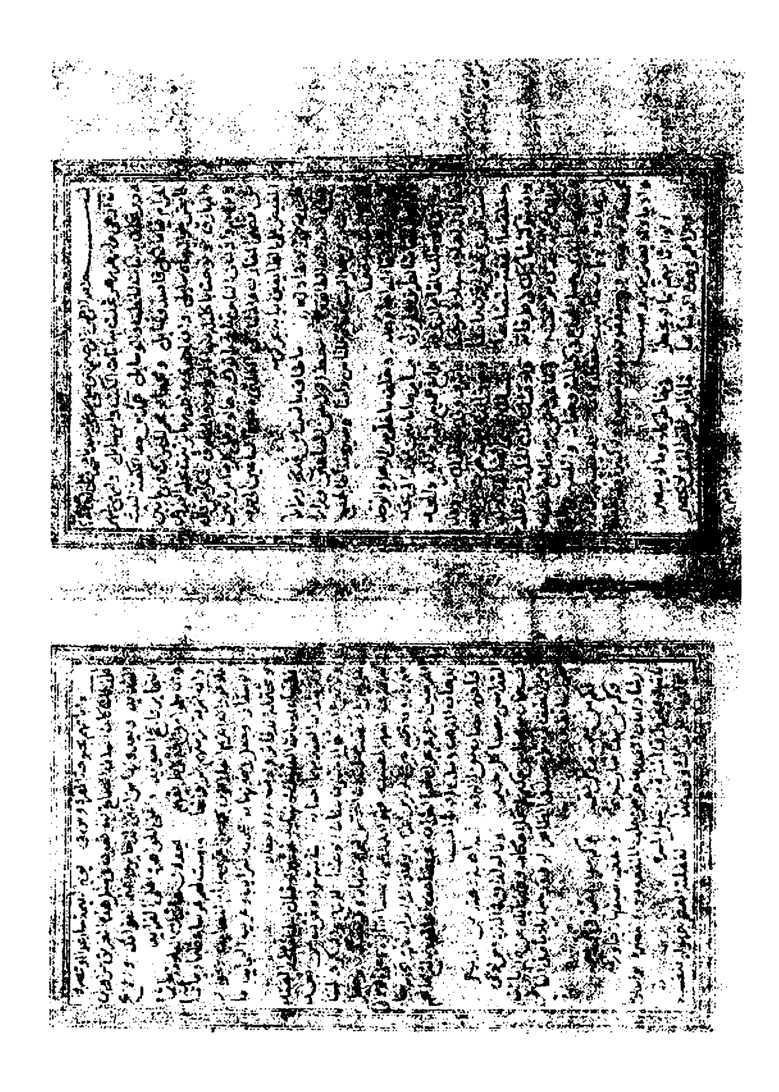
١٢/شوال/ ١٤٣٤هـ

١٨/ اب / ٢٠١٣م

عارف عبد الغني



صورة الغلاف من المخطوطة



صورة الصفحة الأولى من المخطوطة



صورة الصفحة الأخيرة من المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

إنَّ أزهى، وأزهر زهر تجلت به آيات الكتب، والرسائل، وأبهى، وأبهر درر تحلت به لبات الخطب، والوسائل حمد من جعل الكعبة البيت الحرام قياما لكل قاصد وسائل ومجمعاً لأبحر الخيرات فهي ما بين خائض حواليها وسائل وإن أجدى واجديها تزينت بحلية الطروس، والمهارق، وتوجت بإكليله منها الرؤوس، والمفارق شكر من قال لإبراهيم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: ٢٧] يأتين من أقصى المغارب، والمشارق الملبي دعوة الساعين إلى حرمه المفيض على الطائفين ببابه بحر كرمه:

فالحمد لله حمداً لا نفاد له	ما طاف بالبيت مَنْ، وقد حج، أو زارا
وما محا اللهُ ذَنبَ الطائفين بها	حَطَّ الإلهُ عن الساعين أوزارا

والحمد لله الذي جعل البيت مثابة للناس، وأمناً وصيره مناطاً لجميع الخيرات وضماناً:

فمن جاء مشتاقاً إليه أخا وجد	وَخَلَفَ ما خلى من الأهل، والوجدْ
وَقَاسى مشقات الطريق، ولم يزل	يسايرها ما بين غور إلى نجدْ
وَوافى إلى ذلك المقام الذي غدا	جماع جميع الخير، والفخر، والمجدْ
يقال له أهلاً وسهلاً ومرحبا	بأشرف وَفد مرحباً بك من وفدْ
أمنت الذي تخشى وفزت بما تشا	وفوق الذي أملته حزت من رِفدْ
واخلف ما أنفقته مُتضاعفاً	وفلسكَ أمسى ألف ألف بلا كَدْ

وَإِنْ شـوكةٌ شَـاكتكَ في طرقاتـه فـلا تشـك نِلْـتَ الخُلْـدَ في جنـة الخُلْـدْ
فَتلـكَ جَـزاء للـذي بُـرَّ حَجـهُ وسـاعده مـن ربـه طـالع السـعدْ

والحمـد لله الـذي جعـل الحجاج في كفالتـه وضـمانه، وألبسـهم في حـالتي الـذهاب، والإياب جلابيب حفظه، وأنه فلا يصيبهم ظمأ، ولا مخمصة، ولا نصب، ولا ينفقون نفقة صغيرة، ولا كبيرة، ولا يقطعون وادياً، ولا يعتريهم وصب:

إلا أثـابهم بـما لا يخطـر في خـاطر كـلا، ولا يـبصرْ
وجـزاهم في هـذه الـدنيا بـما شـاءوا مـن الخير الـذي لا يحصرْ/ ١/
وأبـاحهم بحبوحـة الفـردوسَ في يـوم القيامـة سـارعوا، أو قصروا

فلذلك كان السلف الصالح يتوقعون في مثل هذه الطريق نزول الشدائد ويعدونها من أغنى الذخائر، وأغنم الفوائد، وأربح التجائر، وأنجح العوائد، وأعلى الجواهر، وأغلى الفرائد:

وإن سـلموا مـن آفـة في طـريقهم يعـدون هاتيـك السـلامة مـأثما
وإنْ أزمـةٌ أزمـتهم طربـوا لهـا وأمسـتْ لهـم عُرسَـا عظـيماً ومأتمـا

فلا غرو أن أغرم العارفون بمحمد من أغرى سهام المصائب ببخور الأسفار وجعل في ضمنها من عجيب الغرائب وغريب العجائب ما لا تحتمله الدفاتر، ولا تسعه الأسفار:

فَفيهـا عَلامـاتُ المقبـول لأنهـا تُشـير لإقبـال الملـك عـلى العبـدِ
وَترشـد أنَّ العبـد مهـما أصـابه بنائبـة مـولاه قربـه مـن بُعـد

ولأبدع أن ثنى المعتنون عنان الاعتناء للمدح، والشكر، والثناء على من اقتفت حكمته أن اختص الحجاز منها بأوفر نصيب وجعل سهمه هو السهم المصيب فهو يغدو على الأجسام تارة وعلى الأحوال طوراً، وقد يجمع بين الأمرين أخرى، وما ذاك إلا

ليعظم سبحانه لعباده المؤمنين الأجر ويجزل لهم الثواب ويضاعف أعمالهم ويبلغ لهم بذهاب الذهب وسلب الأثواب:

فيا فوزَ المُصابِ مِن الإلهِ بداهيةٍ دَهتهُ عَنْ الملاهي

لقد أمسى مُصيبا كُلَّ خَيرٍ وبالولدان في الفردوس لاهي

فسبحان مولانا من حكيم لم تخل إحكامه وقضاياه عن حكم بالغه، ومن لطيف لم يبتل عبداً في الظاهر إلا، وقد جعل بلاياه في الباطن نعمة سابغة.

فَكَمْ مِنْ نعمةٍ في طي نقمة وَكَمْ من نقمةٍ في طَي نعمةْ

وَكَمْ مِنْ شِدةٍ صَارت رخاء وأعقبَ ضِيقها فرجاً ورحمةْ

إرشاداً بأنَّ العبد عاجز عن جلب المنفعة ودرء المضرة وإعلاماً بأنه لا يميز طرق المشرة من سبل المسرة.

وأنى له علم بذاك، وقد عنا لغفلته العظمة جهولاً بنفسهِ

وَمِنْ أين يَدْرِي غِيه من رشاده غدا، وهو سَاهٍ عَنْ تصاريف أمسهِ

نحمده جل اسمه على أن سهل علينا الطريق في هذه السنة وجمع كفافي الحجاز بي الرخاء المفرط، والأهوية الحسنة:

وَأما ما سواه من الجريد وبرقة ربه الخصيب المديدِ

فَلا تسألْ عَنْ الخيرات فيها ولكن قُلْ ألا هل من مَزيدِ

تَجردْ من لُبوس البؤس كل وأبرق بارق الزمن السعيدِ

ونشكره تعالى على أنه ابتلانا ببلايا عرفنا أنها نعمة إذ لا يصاب إلا المؤمن كما صرح به أكابر الأئمة وصحت به أحاديث سيد الأمة ففي الحديث الصحيح أنه (ﷺ) قال: «ليس بمؤمن مستكمل الإيمان من لم يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة قالوا كيف يا رسول الله قال: لأن البلاء لا يتبعه إلا الرخاء كذلك الرخاء لا يتبعه إلا البلاء، والمصيبة».

خرجه الطبراني وغيره عن ابن عباس (رضي الله عنه) ويحسن في هذا المقام أنشاد قول أبي تمام:

قد ينعم اللهُ بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي اللهُ بَعْضَ الناسِ بالنعمِ

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الجبار القادر القهار الفاعل على حسب المشيئة، والاختيار لا يسأل عما يفعل، والعبد مسؤول عن الحركة، والسكون، والنطق، والسكوت، والإيراد، والإصدار

وكيف يكون مجبوراً عليه ... وقد خلق الخلائقَ، والفعالا

فَكُلٌّ ملكه من غير حجر ... تعالى الله عن حجر تعالى

ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وخليله ومصطفاه ومختاره وسفيره ودليله أشرف رسول حمل المشقات فكان يصبر عليه، وأفضل نبي كلف أبعد الشقات فلم يكن يصبوا لواليها ترغيباً منه (ﷺ) في جزيل الأجور، وتعليما لهذه الأمة الشريفة بماذا تنال عوالي الأمور ليقتفوا في ذلك أثره ويتحلوا بأمثال هذه المآثر:

فليقتفِ الآثارَ مَنْ رَامَ العلا ... وليستمع آثار أحمد طه

وليغتنمْ طاعاتهِ تبعا فَمَنْ ... يُطعِ الرسولَ فقد أطاع الله

صلى الله وسلم عليه وعلى آله، وأصحابه الذين تخلقوا بأخلاقه وقاربوا / ٣/ بآدابه صلاة، وتسليما، ولا ينحصر لها عدد، ولا ينقطع لها أمد:

فَمَنْ صلى على المختار عشراً ... عليه الله صلى ألف مرة

وحرمه على النيران ربي ... وكان لعينه في الخلد قرة

أما بعد حمداً لله الذي شرف بيته الحرام، وأكرمنا بالرحلة إليه أي إكرام وجعلها من القربات العظام، والطاعات الجسام، والصلاة، والسلام على مولانا محمد المصطفى الذي نسب من حج، ولم يزره إلى القطيعة، والجفاء:

وأيةُ قُربةٍ أعلا، وأغلا ... من الترحال للبيت الحرامِ

وَأيةُ زوره تمحو الخطايا ... كزورة أحمد خير الأنامِ

فإنه لما كان الحج من القواعد التي تبنى عليه الإسلام، والقربات التي ورد في فضلها، والترغيب فيها أحاديث جمة عنه عليه الصلاة، والسلام كما نلم الإشارة إلى ذلك بعض الإلمام أردنا أن نفوز ببعض ما أعد الله لزوار حرمه من فيض فضله وكرمه:

ونظفــــر في أم القــــرى بمنــــى القــــرا ويمسي القرا خفـا مـن الثقـل، والـوزر

وعنـد ضريـح المصـطفى نجـد الوفـا بـماء الصـفا يشـفي مـن الإثـم، والـوزر

فأمن الله سبحانه علينا بكمال هذه الواردة حتى فزنا في تلك الأماكن المشرفة بما أرمنا به من العبادة، وتقلب القلب، والقالب فيما رامه من ذلك، وأراده:

وبالكعبـة الغـراءِ عَـنْ كُـلِّ كَاعـبٍ تسـلى فـلا يصـبو الأغيـد لاعـب

وفي روضـةِ المختـار أصـبح هـائماً يَـروحُ وَيغـدو بَـيْنَ تِلْـكَ الملاعـبِ

وكنا جمعنا في طريقنا نبذة تحتوي على ما سلكناه من المراحل ونعد ما نزلنا من المنازل، وتشتمل على ذكر من لاقيناه، أو تكلمنا معه في نازلة من النوازل.

وفي ضمن ذلك أبيات كان يقتضيها الحال وقصائد شرفناها بذلك ملك المحال وفوائد مهمة يعتنى بها ذو الهمة فاستولت على ذلك كله يد الضياع وسرقها سارق مع ما كان لدينا من كتب ومتاع فلم يسعنا إلا الصبر الجميع لرغبتنا فيما أعد للصابرين على المصيبة من الثواب الجزيل وعلمنا بأن ذلك قضاء من رب الأرباب وحكم من الحكم العدل المنزه عن الحجاب، والباب فلم نبال، والحمدُ لله بشي مما ذهب/ ٤/ ولم نلتفت بقرة لفضة، ولا ذهبْ:

وَكَيـفَ أبـالي، أو أحـدث بـالي بفـانٍ مـن الأعـراض أخلـق بـالِ

وَهَـبْ أنَّ في الحـال يَصـلحُ بـالي أمـا هـو في يـوم المعـاد وَبَـالِ

عـلى أنَّ مولانـا الكـريم بفضـله هـو المصـلح الأحـوال دون تبـالِ

فَكُـنْ وَاثقـا بـالله جَـلَّ، ولا تَمـلْ إلى المـالِ تحظـى عَـنْ رَشـيق نبـالِ

لكن حصل لنا أسف شديد على تلك الرحلة التي ليس لها في صنعها قديد مع اشتمالها على تلك القصائد الفائقة التي أنشدتها في الكعبة المنورة، والروضة المشرفة الرائقة فيا ليته لو رد منها قصيدة وسامحته في المال أجمع، والكتب.

وحيث ألقينا عصا التسيار واستقرت بنا من الحجاز في مصر الديار طلب منا بعض من يجب علينا إسعافه وموافقته وكيف تصح مخالفته، وقد ثبتت خلته ومرافقته أن نسجم القريحة الجامدة ونسترجع الفكرة الخامدة لعلها أن نتلافى بعد ما تلاشى من تلك الرحلة البديعة ونقصد من كل مقصد عجيبة وبديعة فاعتذرت فأبى أن يقبل الاعتذار، ثم أجبته بعد الاستخارة على ما بي من الأعذار مستعيناً بقوة من له القوة، والحول مستمداً من فضل مالك الفضل، والطول ورأيت إن أقدم مقدمات جامعه لنجعلها تذكرة لكل حاج ويعيها منه أذن سامعه.

المقدمة الأولى

فيما ورد من الآيات الصريحة، والآثار الصحيحة في فضل الحج، والعمرة

وما أعد الله للحجاج، والعمار مما لا يناله غيرهما.

وإن أفنى في أنواع الطاعات عمره قد ذكر الله تعالى في كتابه الحكيم بيته الشريف المعظم وقلد لبيته أبلغ المدح، وأسبغ الحمد كل علق نفيس وعقد منظم، وأمر عباده أن يحجوه بقصد العبادة وجعله مثابة، وأمنا لقاصده ونصب لكل مرتفع إلى أنجاده ومنخفض إلى أغواره جزما أسنى مقاصده فقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقال جل من قائل: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ /٥/ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ﴾ [الحج: ٢٧- ٢٨].

وقال عز اسمه: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال جلت قدرته: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١].

وقال عز وجل: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾ [قريش: ٣].

وقال: ﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].

وقـــال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقــرة: ١٤٤].

وقال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة: ١٩٨].

وقال: ﴿۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨].

وقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ﴾ [الحج: ٢٦].

وقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) أنه سئل أي الأعمال أفضل قال: «**إيمان بالله ورسوله قيل، ثم ماذا قال الجهاد في سبيل الله قيل، ثم ماذا قال حج مبرور**».

وفي مسند أحمد وسنن ابن ماجة عن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي (ﷺ) قال: «**الحج جهاد كل ضعيف**».

وخرج البيهقي، والنسائي وغيرهما من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) مرفوعاً «**جهاد الكبير، والصغير، والضعيف، والمرأة الحج، والعمرة**».

وخرج البخاري، والنسائي وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: قالت يا رسول الله ترى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد قـال: «**لكن أفضل الجهاد، وفي رواية أحسن الجهاد، وأجمله حج مبرور**».

قالت عائشة فلم أدع الحج بعد أن سمعت هذا من رسول الله (ﷺ).

وخرج الطبراني، والبيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي (ﷺ) قال: « **حجة لمن لم يحج خير من عشر غزوات وغزوة لمن حج خير من عشر حجج**

وغزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر، ومن اجتاز البحر فكأنما جاز الأودية كلها، والماء فيه كالمتشحط في دمه».

وخرج البزار برواة ثقات/ ٦/ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي (ﷺ) قال: «حجة أفضل من أربعين غزوة وغزة خير من أربعين حجة وحجة الإسلام خير له من أربعين غروة».

وخرج النسائي وابن خزمية وابن حبان في صحيحة عن أبي هريرة وإسحاق عن جابر قالا قال رسول الله (ﷺ): «وفد الله ثلاثة الغازي، والحاج، والمعتمر».

وخرج ابن ماجة عن أبي هريرة وابن حبان في صحيحه عن ابن عمر قالا قال رسول الله (ﷺ): «الحاج إلى بيت الله، والعمار وفد الله عز وجل أن دعوه أجابهم، وأن استغفروه غفر لهم، وفي رواية دعا فأجابهم وسألوه فأعطاهم».

وخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ) قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

ورواه الاصبهاني: «وزاد، وما سبح الحاج من تسبيحة، ولا هلل من تهليلة، ولا كبر من تكبيرة إلا بشر بها تبشيرة».

وخرج أحمد بن منيع، واللفظ له وابن أبي شيبة، وأبو يعلى عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله (ﷺ): «من قضى نسكه وسلم المسلمون من يده ولسانه غفر له من ذنبه ما تقدم، وما تأخر».

وخرج البيهقي وابن حبان في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «ما ترفع إبل الحاج رجلاً، ولا تضع يداً إلا كتب الله له بها حسنة، أو محا عنه سيئة، أو رفع له درجة».

وخرج الحارث بن أبي أسامة، والطبراني في الأوسط، والأزرقي في تاريخ مكة عن جابر (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ): «إن هذا البيت دعامة الإسلام فمن خرج يؤم

هذا البيت من حاج، أو معتمر، أو زائر كان مضموناً على الله عز وجل أن قبضه أن يدخله الجنة وإن رده رده بغنيمة، وأجر».

وخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله (ﷺ): «من أمَّ في هذا الوجه بحج، أو عمرة فمات لم يعرض، ولم يحاسب، وقيل له ادخل الجنة».

وخرج أبو يعلى، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ): «من خرج حاجاً فمات كتب الله له أجر الحاج إلى يوم القيامة، ومن خرج معتمراً فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خرج/ ٧/ غازياً في سبيل الله فمات كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة، وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وفي الجامع، والكنز المنتخب «من خرج حاجاً، أو معتمراً، أو غازياً، ثم مات في طريقة كتب الله له أجر الغازي، والمعتمر، والحاج إلى يوم القيامة».

وخرج الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي وابن خزيمة وابن حبان عن عبد الله، وقال الترمذي حسن صحيح غريب من حديث ابن مسعود.

و(رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «تابعوا بين الحج، والعمرة فإنها ينفيان الفقر، والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد، والذهب، والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة».

وزاد الترمذي «وما من مؤمن يظل لربه به محرما إلا غابت الشمس بذنوبه».

وخرج الإمام أحمد، والحارث بن أبي أسامة، وأبو بكر بن أبي شيبة عن عامر بن ربيعة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «تابعوا بين الحج، والعمرة فإن متابعة بينهما تزيد في العمر، والرزق وينفيان الفقر، والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد».

وخرج البيهقي عن الشافعي أنه بلغه أن رسول الله (ﷺ) قال: «حجوا تستغنوا وسافروا تصحوا، وتناكحوا تكثروا فإني أُباهي بكم الأمم حتى السقط».

وخرج الطبراني في الأوسط، والبزار برجال الصحيح عن جابر (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ): «ما أمعر حاج قط».

قيل لجابر ما الإمعار قال ما افتقر، وفي الجامع الصغير للأسيوطي، والكنز ومنتخب الكنز «حجّ تزاد عمر نسقا يدفعن منية السوء وعيلة الفقر».

وعن ابن عباس عن أبي أسامة الحاج في ضمان الله مقبلاً ومدبراً.

وفي الجامع، والكنز، والمنتخب أيضاً عن أنس (ﷺ): الحاج، والعمّار وفد الله يعطيهم ما سألوا ويستجيب لهم ما دعوا ويخلف عليهم ما أنفقوا الدرهم ألف ألف.

وخرج البزار عن أبي موسى (ﷺ) أن النبي (ﷺ) قال: «الحاج يشفع في أربعمائة من أهل بيته ويخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وخرج الإمام أحمد، وأبو داود، وأبو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): «من أراد الحج فليتعجل».

وفي رواية لأحمد «تعجلوا الحج يعني الفريضة فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له».

وخرج الدارقطني عن أبي/ ٨/ هريرة (ﷺ) قال رسول الله (ﷺ): «حجوا قبل أن لا تحجوا».

قيل، وما شأن الحج يا رسول الله قال: «تقعد أعرابها على أذناب أوديتها فلا يصل إلى الحج أحد».

وخرج أبو يعلى بإسناد رجاله على شرط مسلم ألا أنه منقطع وابن خزيمة، والحاكم، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «إن للحاج الراكب بكل خطة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم».

قيل يا رسول الله، وما حسنات الحرم؟ قال: «الحسنة بمائة ألف».

وخرج الجلال، والسيوطي في الجامع وصاحب الكنز، والمنتخب أنه (ﷺ) قال: «إن الملائكة لتصافح ركاب الحجاج، وتعتنق المشاة».

وفيها أنه (ﷺ) قال: «النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف».

وقال (ﷺ): «ألا أدلك على جهاد لا شوكة فيه حج البيت».

وقال عليه الصلاة، والسلام: «خير ما يموت عليه العبد أن يكون قافلاً من حج، أو مفطراً من رمضان».

وقال (ﷺ): «كثرة الحج، والعمرة تمنع العيلة».

وقال (ﷺ): «من أضحى يوما محرماً ملبياً حتى غربت الشمس غربت بذنوبه».

وقال (ﷺ): «ما أَهَلَّ مُهلٍ قَطّ، ولا كبر مكبر قط إلا بشر بالجنة».

وقال (ﷺ): «ما من مسلم يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر، أو شجر، أو مدر حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا».

وقال (ﷺ): «من مات محرما حشر ملبياً».

وقال (ﷺ): «الحاج، والعمار وفد الله أن سألوا أعطوه وإن دعوا أجابهم وإن أنفقوا خلف لهم، والذي نفس أبي القاسم بيده ما كبر مكبر على نشز، ولا أَهَلَّ مُهلٍ على شرف من الأشراف إلا أهل ما بين يديه وكبر حتى ينقطع به مقطع التراب».

وقال (ﷺ): «حجوا فإن الحج يغسل الذنوب كما يغسل الماء الدرن».

وقال (ﷺ): «من حج وعليه دين قضى الله عنه».

وقال (ﷺ): «من حج هذا البيت، ولم يرفث، ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

واختار القرطبي وابن بريرة وغيرها أن ذلك يتضمن الكبار، والصغائر.

وقال (ﷺ): «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

/ ٩/ قال المازري أي لا يقصر لصاحبه من الجزاء على تكفير بعض ذنوبه، ولا بد أن يبلغ به إدخال الجنة.

وقال (ﷺ): «من أراد دنيا وآخرة فليؤم هذا البيت ما أتاه يسأل الله دنيا إلا أعطاه منها، ولا آخرة إلا أوخر له منها».

وفي صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص (ﷺ) أنه قال له: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وإن الهجرة تهدم ما كان قبلها وإن الحج يهدم ما كان قبله**».

وحكى عياض في الشفاء عن أبي سعد وابن الخولاني أن قوما أتوه فأعلموه أن كتامة قتلوا رجلاً، وأضرموا عليه النار فلم تعمل فيه وبقي أبيض البدن فقال لعله حج ثلاث حجات فقالوا نعم فقال نعم حديثه الناس حج حجة أدى فرضه، ومن حج ثانية أمن ربه، ومن حج ثلاث حجج حرم الله شعره وبشره على النار.

تنبيه:

قال صاحب المطالع وغيره الحج المبرور هو الخالص الذي لا يخالطه مأثم، وأصله من البر، وهو اسم جامع للخير، ومنه بررت فلانا أي وصلته وكل عمل صالح بر ويقال براءه حجة، وأبره، وقيل المتقبل وعليه درج مالك بن المرحل في نظم الفصيح فقال وبر ذاك الحج أي تقبلا.

قالوا، ومن علامات القبول أن يرجع خيراً مما كان ولو يعاود المعاصي، وقيل الذي لا رياء فيه، ولا سمعة، ولا رفث، ولا فسوق.

وقيل الذي لا معصية بعده، وقال الحسن البصري الحج المبرور أن يرجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة.

وقال أبو الشعثاء نظرت في أعمال البر فإن الصلاة تجهد البدن الصوم كذلك، والصدقة تجهد المال، والحج يجدهما فرأيته الله أفضل ووافقه على ذلك جماعة من العلماء.

المقدمة الثانية

في فضل زيارة النبي المصطفى

وما أعد الله من القرب، والاصطفاء لعباده الذين اختارهم لزيارة رسوله المصطفى

روى الدارقطني في السنن وغيرها، والبيهقي وغيرهما من طريق موسى بن هلال عن عبيد الله العمري مصغراً كما صوبه الحافظ يحيى بن علي القرشي كما نقله السيد السمهودي عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله (ﷺ): «**من زار قبري وجبت له شفاعتي**».

قال السيد السمهودي ومعنى وجبت أنها ثابتة لابد منها بالوعد الصدق.

وقوله له أي يخص بشفاعته ليست لغيره، أو يفرد بشفاعته لو تحصل لغيره تشريفاً له، أو أن دخوله في الشفاعة لابد منه فهو بشرى بموته مسلماً فال يضمر فيه شرط الوفاة/ ١٠/ على الإسلام بخلافه على الأولى وقوله شفاعتي أي انه يشفع فيه هو بنفسه، والشافعة تعظم بعظم الشافع.

وروى البزار من طريق عبد الرحمن بن إبراهيم الغفاري حدثنا عبد الرحمن بن زيد ابن عمر عن النبي (ﷺ) قال: «**من زار قبري حلت له شفاعتي**».

قال السيد السمهودي وهذا هو الأول، وهذا عزاه عبد الحق للداقطني أيضاً ألوان في الأول وجبت له، وفي هذا حلت، والقصد تقوية الأولى به.

وروى الطبراني في الكبير، والأوسط، والدارقطني في أماليه، وأبو بكر في المقري في معجمه من طريق مسلمة بن سالم الجهني حدثني عبيد الله بن عمر عن نافع عن سالم عن ابن عمر مرفوعاً : «**من جاءني زائراً لا يهمه حاجة إلا زيارتي كان حقاً علي أن أكون له شفياً يوم القيامة**».

وفي معجم ابن المقري بالسند المذكور عن نافع وسالم عن ابن عمر مرفوعاً: «**من جاءني زائراً كان له حقاً على الله عز وجل أن أكون له شفيعاً يوم القيامة**».

وأورد الحافظ ابن السكن هذا الحديث في باب ثواب من زار قبر النبي (ﷺ)، وهو محذوف الأسانيد ومقتضى ما شرطه في خطبته أن يكون مما أجمع على صحته قاله السيد السمهودي.

وروى الطبراني، والدارقطني وغيرهما عن ليث عن مجاهد ابن عمر قال: قال رسول الله (ﷺ): «**من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن مات في أحد الحرمين بعث من الأمنين يوم القيامة**».

وروى أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «**ما من أحد يسلم علي إلا رد علي روحي حتى أرد عليه السلام**».

وفي مسند الفردوس عن ابن عباس مرفوعاً: «**من حج إلى مكة، ثم قصدني في مسجدي كتبت له حجتان مبرورتان**».

وعن العتبي واسمه محمد بن عبيد الله بن عمرو أدرك ابن عيينة وروى عنه قال دخلت المدينة فأتيت قبر النبي (ﷺ) فزرته وجلست بحذائه فجاء أعرابي فقال السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٦٤] الآية.

وَقَدْ جِئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي، ثم بكى، وأنشأ يقول:

يا خَيرَ مَنْ دُفِنَ في القاع أعظمه ... فَطَابَ من طيبهن القاعُ، والأُكم

نَفسي الفداءُ لقبر أَنتَ سَاكنه ... فيه العفافُ وفيه الجودُ، والكرمُ/ ١١/

قال، ثم انصرف فغلبتني عيناي فرأيت النبي (ﷺ) في النوم فقال: «**يا عتبي الحق الأعرابي فبشره بأن الله تعالى قد غفر له بشفاعتي**».

قال فاستيقظت فخرجت أطلبه فلم أجده.

وحكى السيد السمهودي رحمه الله في تاريخ، وفي الوفاء وآماله في خلاصة الوفا قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن موسى بن النعمان في كتابه مصباح الظلام أن الحافظ أبا

سعيد السمعاني ذكر فيما روينا عنه عن علي بن أبي طالب (ﷺ) قال قدم علينا أعرابي عندما دفنا رسول الله (ﷺ) بثلاثة أيام فرمى نفسه على قبر النبي (ﷺ) وحثا من ترابه على رأسه وقال: يا رسول الله قلت فسمعنا قولك ووعيت عن الله سبحانه، وقد وعينا عنك، وكان مما أنزل عليك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: ٦٤]، وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي فنودي من القبر: أنه قد غفر لك.

وروى الطبراني في الكبير عن عثمان بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان (ﷺ) في حاجة له فكان لا يلتفت إليه، ولا ينظر في حاجته فلقي ابن حنيف فشكا إليه ذلك فقال له ابن حنيف أيت الميضاء فتوضأ، ثم إئت المسجد فصل ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبينا محمد (ﷺ) نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك فتقضي حاجتك؟ فانطلق الرجل فصنع ما قال، ثم أتى باب عثمان فجاءه البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان فأجلسه معه على الطنفسة فقال حاجتك فذكر حاجته وقضاها له.

ثم قال ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة، وقال ما كانت لك من حاجة فاذكرها، ثم أن الرجل خرج من عنده فلقي ابن حنيف قال له جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي، ولا يلتفت غلي حتى كلمته في فقال ابن حنيف ... ما كلمته ولكني شهدت رسول الله (ﷺ)، وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي (ﷺ)، أو تصبر فقال يا رسول الله ليس لي قائد، وقد شق علي فقال له النبي (ﷺ) «إئت الميضاء فتوضأ، ثم صل ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات» فقال أبو حنيف فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط.

رواه البيهقي من طريقين بنحوه ورواه النسائي، والترمذي في الدعوات من جامعه.

عن عثمان بن / ١٢/ حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبي (ﷺ) فقال ادع الله لي أن يعافيني فقال إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك قال فادعه فأمره أن

يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: (اللهم إني أسالك، وأتوجه إليك بنبيك محمد (ﷺ) نبي الرحمة يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي لتقضى لي اللهم شفعه فيَّ).

فقام، وقد أبصر.

وفي رواية ففعل الرجل فبرأ قلت هذا الأثر المروي عن ابن حنيف أورده السيد السمهودي في الوفا وخلاصة الوفا في أبواب فضل الزيارة، وتوسل الزائر به (ﷺ)، وتابعه على ذلك جماعات وصوبوه مستدلين به بخصوص الزيارة.

والظاهر أن هذا الأثر فيه دلالة قوية لإجابة الداعي المتشفع بالنبي (ﷺ) في تلك الكلمات التي علمها (ﷺ) للضرير بعد الطهارة وصلاة ركعتين إنما كان، وليس فيه تقييد بكونه زائراً إذ لم يكن وقته هناك قبر، ولا غيره بل كان النبي (ﷺ) قائماً بين أظهرهم وعلم ذلك الضرير كيف يسأل الله تعالى فمن فعل ذلك اقتداء وامتثالاً وانقياداً ... عليه السلام بنية خالصة فإن الله يقبل دعاؤه ويستجيب له سؤاله أينما كان كما هو شأن الأدعية النبوية على الكيفيات المطلوبة المأمور بها عنه عليه السلام.

فإنه كان يأمر الصحابة بالأدعية، والصلوات وغيرها من أنواع الطاعات في ذلك المسجد، ولا يكون ذلك خاصاً بحديث يقتصر عليه في تلك الأمكنة فقط بل يعملون به ويأمرون به غيرهم على جهة العموم في أي مكان كان إلا أن يقال أن ابن حنيف فهم عن النبي (ﷺ) أن ذلك مما يختص به المسجد النبوي، أو نحو ذلك فيكون مما يعد في فضل المسجد النبوي ومزيته على غيره، ولا مدخل للزيارة إذ ذاكر إلا بحسب اللزوم فقط لكن الأنسب بساحة التشفع به (ﷺ) هو العموم في أي مكان، وفي أي زمان، والله أعلم.

فليتأمل!.

وقال الإمام أبو بكر بن المقري كنت أنا، والطبراني، وأبو الشيخ في حرم رسول الله (ﷺ) وكنا على حالة فأثر فينا الجوع وواصلنا ذلك اليوم فلما كان وقت العشاء حضرت

قبر النبي (ﷺ) فقلت: يا رسول الله للجوع وانصرفت قال أبو بكر فنمت أنا، وأبو الشيخ، والطبراني جالس ينظر في شيء فحضر بالباب/ ١٣/ علوي فدق ففتحنا له فإذا معه غلامان مع كل واحد مهما زنبيل فيه شيء كثير فجلسنا، وأكلنا وظننا أن الباقي يأخذه الغلام فولى، وترك عندنا الباقي فلما فرغنا من الطعام قال العلوي يا قوم أشكوتم إلى رسول الله (ﷺ)؟ فإني رأيت رسول الله (ﷺ) في المنام فأمرني أن أحمل بشيء إليكم.

والآثار الواردة في فضيلة هذه اقرب الجسيمة، والأخبار الشاهدة بفوز من يشاهد هاتيك الأماكن الشريفة الوسيمة يعجز عن استيفائها الإحصاء بكل دون كلها الاستقصاء ولو تتبعناها مبسوطة واستقريناها من عقال الاختصار منشوطة لم تكتب بمنصف مستقل.

وأوردنا هذا النزر القليل لتتمتع به القليل ويشفي من داء الكسل كل عليل وننشط المكثر، وتهيج المقل وإلا فجميع ما ذكرناه نقطة من سحائبها الكفيلة بأثمار الأغصان الآمال في الدنيا، والآخرة.

المقدمة الثالثة

في السفر وفوائده، وما قيل في موصلات صلاته وعوائده

أخبر العلماء، ولا سيما أئمة الحديث في القديم، والحديث على أن الارتحال غنيمة على كل حال، والحركة بركة، والسفر ظفر بشهادة و فلولا نفر، وقد جمع العلاء في فوائد الأسفار أسفاراً، وأسفروا عن وجوه عوائدها أسفاراً فلنقتف بعض ذلك الأثر ولنقتصر على ما هو مؤيد تلك الفوائد بحكمة، أو أثر فنقول وعلى الله المعول أن للسفر فوائد بداهاه الصدر الأول منها:

أن الإنسان إذا كان في جلده بين قوم لئام ليس بينه وبينهم التئام لا يقرون قدره، ولا يطلعون في أفقهم شمسه، ولا بدره بل يخرمون نفعه ويخفضون نصبه ودفعه ويبهون على الحذف قواعده وينجرون بالخلف مواعده فإنه بالانصراف، والرحيل عن ذلك البلد المحيل يتمكن من عوامل التمكين مكانه، وتأسيس على أسس التحصن أركانه، وتذل لأجلة عزته، وتعز الأذلة بزته، وتعجز معاطف سيادته بمطارف التعظيم، والتبجيل ويطوف بكعبة مجادته حجاج إفادتاه وعمار وفادته بإجادة التكريم جيلا بعد جيل فلا تنصرف في الأسماء إلا أفعاله أينما كان، ولا ينادي بالرفع إلا علمه الفرد في كل/ ١٤/ مكان، ولا تنتج إلا مقدمات علومه وفهومه، ولا تتجه إلا فضائل منطوقة ومفهومة فيعرض نعت الظهور بل الخمول ويتأكد عطف الوجوه إلى قبلة بيت المأمول.

ويدل لما أشرنا عليه أن النبي (ﷺ) لما هاجر من مكة إلى المدينة أعز الله أمرته، وأبرز مرته ورم وفيه فقد روى أئمة الحديث، والسير أن رسول الله (ﷺ) خرج من مكة شرفها الله تعالى، وهي أحب البقاع إليه وهاجر إلى طيبة فكان من أمره ما ظهر للعيان وبهر الأعيان وقصر دون البيان، ثم عاد إليها على الصلاة، والسلام وفتحها الله عليه، وهو في عشرة آلاف من الإسلام بعدما خرج منها هو، وأبو بكر (رضي الله عنه) منفردين بسلام، وقال رسول الله (ﷺ): «العباد عباد الله، والبلاد بلاد الله فأينما وجدت الخير فأقم واتق الله».

وقال (ﷺ): «لو يحل المؤمن أن يذل نفسه قالوا يا رسول الله وكيف يذل نفسه قال يتعرض من البلاء لما لا يطيق» وقيل:

وإنَّ صريح الحزم، والرأي لو ترى ... إذا بلغته الشمسُ لم يتحولا

وقال الطغرائي:

رضي الذليلُ بخفضِ العَيشِ مَسكنة ... والعِزُّ عِنْدَ رَسيم الونيق الذللِ

وقال بعض الأعراب:

سأعلمُ نص العيس حتى يكفني ... عن المال يوماً أو عن

فالموتُ خيرٌ من حياة يرى بها ... على المرء بالإقلال وسم هوانِ

وقال المتلمس:

إن الهوان حمار الذل يألفه ... والحر ينكره، والفيل، والأسد

ولا يقيم بدال الذل يألفها ... إلا الأذلان عير الحي، والوتد

هذا على الخلس مربوط برمته ... وذا يشج فلا يرثي له أحد

وقال أبو الطيب:

وأطلب العز في لظى وذر الذل ... ولو كان في جلال الخلود

وقال أيضاً:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما بجرح بميت إيلام

ذل من يغبط الذليل بعيش ... رب عيش أخسف من الحمام

وقال:

عش عزيز، أو منت، وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنود/ ١٥/

وقال التهامي:

وإذا الفتى ألف الهوان فبني ... ما الفرق بين الكلب، والإنسان

مــوت الــذليل كعيشــه ويــد الفتــى   شــــلاء، أو مقطوعـــة ســـيان

ولآخر:

حَاولــتُ أَنْ ألقــى الزمــانَ بطبعــهِ   لــولا الوفـــاءُ وَشِـــيمةٌ لا تثقـــلُ

في الأرضِ مُتســـعٌ لـــنفسٍ حُـــرةٍ   أن بنيـــت مَنزلـــةً وَعَاهـــا مَنـــزلُ

ومنها: أن الأبدان تعتدل بالسفر، وتظفر فيه بالصحة غاية الظفر فلا تخشى تخليط أخلاطها، ولا فساد مزاجها، ولا تفتقر مشعشعة كيمومها، وقد صفت في نفوسها لمداواة صرفها بمزاجها عدل الأجسام اختلاف الأهوية وفاز كل خلط بها عشقه من ذلك وهويه فهي تنقلب في نعمة بلا بؤس، وتتسربل من ملاحف الإسمرا بأسنى لبوس، ولا شتها له على هذا الخط الوافر من لا صحة حض عليه النبي (ﷺ) فقال: «**سافروا تصحوا**» كما رواه عنه مرفوعاً جماعة من شيوخ الإسلام.

ومنها: أن يحصل له من المعارف، والعلوم في غربته ما يعجز عن تحصيل عشرة بين شيرته في تربته ولذلك كان السلف رضي الله عنهم يشترطون في العلم الرحلة إلى حصن التحصيل الحصين ويتمسكون في ذلك بقوله (ﷺ): «**اطلبوا العلم ولو في الصين**».

ومنها: أنه إذا قضى له في سفره بالوفاة وقضى نحبه في غربته وفات فإنه يحكم له بالشهادة.

فقد روى ابن ماجة، والداقطني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: «**موت الغريب شهادة**» وذكره الدارقطني من حديث ابن عمر صححه.

ومنها: أنه يقاس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة فيكون ذلك وقاية له من النار وجنه فقد روى النسائي وابن ماجة في سننهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مات رجل بالمدينة فصلى عليه رسول الله (ﷺ)، ثم قال: «**يا ليته مات بغير مولده**» قالوا، ولم ذلك يا رسول الله (ﷺ)؟ قال: «**إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة**».

ومنها: أنه يكتب له ما يفوته بسبب السفر من صالح الأعمال ويفوز من أجورها وإن لم يعملها بغاية الآمال ففي صحيح البخاري عن أبي موسى (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ)/ ١٦/ «وإذا مرض العبد وسافر كتب، ومن الأجر ما كان يعمل صحيحا مقيما».

ومنها: «أن دعوته مستجابة وكربته دائما منجابة».

فقد روى أئمة الصحيح عن أبي هريرة يرفعه: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن دعوة المظلوم ودعوة الوالد ودعوة المسافر».

وقد جمعت جملة من فوائد الجولان في الأرض، والذهاب هذه الأبيات منسوبة عند جماعة من الفقهاء للقاضي عبد الوهاب:

تَغربْ عَنِ الأوطانِ في طَلَبِ العُلا　　وسَافرْ فَفي الأسفار خَمسُ فَوائدِ

تُفرجُ هَمٌّ واكتسابُ مَعيشةٍ　　وَعِلمٌ، وأدبٌ وصحبةُ مَاجدِ

فإن قِيلَ في الأسفار هَمٌّ وَغربةٌ　　وقطع الفيافي وارتكاب الشدائدِ

فموتُ الفتى خَيرٌ له مِنْ حَياته　　بدارِ هوانٍ بَينَ واشٍ وَحَاسدِ

ونسبها صاحب الدرر الفرائد المنظمة للشافعي (ﷺ)، وأيد كل فائدة بما رآها مماثلة من الأحاديث، والحكم، أو قريبة منه ونحن نشير لذلك غير مقتصرين على ما هنالك فنقول.

أما الفائدة الأولى: وهي انفراج الهموم وانشكاف الغموم فلا يخفى أن الله تعالى أجرى العادة في العباد ما بين حاضر وباد بأن الملازم لنوع واحد من الأطعمة، أو الأشربة، أو الأمكنة لا يزال يسأم من اللزوم ويضجر منه ما أمكنه، ولا سيما أن همه هم، أو غمه غم أهم فإنه يشتد لشدته الملل التي جبلت عليه النفوس في سائر الملل.

فإذا انفصل من تلك الحالة، وتشاغل بغيرها انصرف الهم عنه وانبعثت روحانيته لما يروم من نفعها وخيرها.

قال يحيى بن عدي إن الطبيعة تمل الشيء الواحد إذا أدام عليها ولذلك اتخذت ألوان الأطعمة، والتزويج بأربع نسوة وريم التنزه، والتحول من مكان إلى مكان، والاستكثار من الإخوان، والجمع من الجد، والهزل.

وأما الفائدة الثانية: وهي اكتساب المعيشة التي لم تزل النفوس لأعنة الاعتناء إليها ثانية فلا يخفى أن السفر من الحج أسبابها، وأصح ما يتمسك به م أسبابها فقد ورد عن النبي (ﷺ) أنه قال: «**سافروا تصحوا، أو تغنموا**».

وفي حديث آخر: «**سافروا تصحبوا واغزوا تستغنوا**».

وفي التوراة ابن آدم خلقتك من الحركة فتحرك، وأنا معك، وفي التوراة مكتوب أيضاً: أُحدث سفراً أحدث لك رزقاً.

وروي إن الله تعالى لما خلق الأرزاق أمر الرياح فشتتها في الأقطار فمن الناس /١٧/ من جعل رزقه في مكان واحد ومنهم من جعل رزقه في عشرة مواضع ومنهم من جعل له مائة ومنهم من جعل له في ألف، وأكثر فكل واحد يطلب رزقه حيث كان حتى يستوفيه طوعا، أو كرها.

ومن الكلام النافع صعود الأكام وهبوط الغيطان خير من القعود بين الحيطان قال الشاعر:

دَعِ الهوينا وانتصبْ واكتسبْ — وأكدحْ فَنفسُ المرء كَداحةْ

وَكُنْ عَنْ الراحة في معزل — فالطبعُ موجوع مع الراحةْ

وقال رجل لمعروف الكرخي يا أبا محفوظ أتحرك لطلب الرزق أم أجلس قال لا بل تحرك فإنه أصلح لك فقال أتقول هذا قال ما أنا قلته ولكن الله عز وجل أمر به قال لمريم: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝﴾ [مريم: ٢٥] ولو شاء أن ينزله إليها من غر هز أنزله، وقال النابغة:

إذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه — شكى الفقر، أو قوم الصديق فأكثرا

فسر في بلاد الله، والتمس الغنى تعش ذا إيسارا، وتموت متعذرا

وقال ابن عبد ربه هل يجوز في عقل، أو يتميز في، وهم، أو يصح في قياس أن يحصل زرع بغير بذر، أو يجنى ثمر بغير غرس، أو يورى زند بغير قدح أيو ينمو مال بغير طلب، وقالت العرب من أجدب أنتجع وقالوا الحركات بركات، وقيل لأعرابي أين منزلك قال بحيث ينزل الغيث، وقال البحتري:

وإذا الزمـــان كســـاك حلـــة معـــدم فـــألبس لـــه حلـــل النـــوى، وتغـــرب

وأما الفائدة الثالثة: وهي تحصيل العلوم فإنها من المقرر المعلوم، وقد كان السلف رضي الله عنهم يرحلون في طلب الفائدة الواحدة ويقصدون أبعد الآفاق للأخذ عمن يرونه فريد الزمان وواحده ورحل جابر بن عبد الله مسافة بعيدة في طلب حديث واحد.

وفي قوله (ﷺ): «أطلبوا العلم ولو بالصين» حجة لكل منصف وجاحد.

وأما الفائدة الرابعة: وهي اكتساب الأدب فإنه في السفر ينل الطالبة من كل حدب لأن الإنسان يتأدب بآداب من يلقاه من الأفاضل ويكتسب من آداب العلماء، والباب العقلاء الذين لا يأوون قطره كل شنشنة فضيلة وكل خلق فاضل ويتحلى بفرائد فوائدهم ويعود عليهم من صلاتهم وعوائدهم فتجمل لذلك أخلاقه ويكمل حظه من التأدب، والتهذيب وطلاقه.

وأما الفائدة الخامسة:/ ١٨/ وهي صحبة الماجد فهي مما يكاد ويجده في القطر الواحد واجد فإذا ضرب الإنسان في أغوار الأرض ونجودها كان السفر سبباً في إنتاج هذه الفائدة ووجودها فيكتسب بذلك من المجد غيته وينصب لرفع الذكر وخفض الشكر رأيته هذا.

وكم في السفر من فوائد غير ما ذكر منافع وعجائب لا يكاد يجحدها منكر إذ لا يطلع على نافع الأرض إلا من جال الطول وجاب العرض.

وأعظم فوائدة، وأكرم عوائده ا يتحققه الإنسان من سعة قدرة الله لحاملة له على شكر مولاه.

فقد قالت الحكماء أن الله تعالى لم يجمع منافع الدنيا في أرض بل فرقها، وأحوج بعضها إلى بعض.

وقيل المسافر يجمع العجائب ويكسب التجارب ويجلب المكاسب.

وقيل الأسفار مما تزيد علما بقدرة الله تعالى وحكمته، وتدعو إلى شكر نعمته.

وقال الثعالبي من فضائل السفر أن صاحبه يرى من عجائب الأقطار وبدائع الأمصار ومحاسن الآثار ما يزيده علما بقدرة الله تعلى ويدعو شكر إلى نعمة.

وقال المأمون لو شيء الذين السفر لأنك تجد في كل يوم محلة لم تحلها، وتعاشر قوما لم تعاشرهم.

وقال عنترة السفر يشد الأبدان وينشط الكسلان ويشهي الطعام.

ففي هذه الحكم دون ما مر م الفوائد ما يعود من موصلاتها على شاملها صلات وعوائد، وأعرضنا عن تتبع ذلك وبسطه لأنه لطوله يستدعي التأليف بل قد لا تفي التآليف باستيفاء حظه وقسطه ولنختم هذه المقدمة بنبذة من الأشعار الواردة عمن له بالسفر أشعار المنتبه عن فوائده المبنية لعوائده فمن ذلك قول أبي الغنائم محمد بن المعلم:

سر طالبا غاياتها أما ترى ... فوق الثريا، أو ترى تحت الثرى

لو تخلدن في المقام فإنما ... سير الهلال قضى له أن يقمرا

لا تبك دار فالفتى من إن دعا ... دمعا عصاه وإن دعاه، وما جرى

أين الكناس من العرائن، وأين ... غزلان الفلا في المجد من أسد الشرى

لو يفتح الوطن العلا ما سار عن ... غمدان سيد حمير مستنصرا

ولا استتم بمكة لمحمد ما رام ... لم ينصب بيثرب منبرا

والليث لو وجد الفريسة رابضا ... أو ناهضا في خسة ما أصحرا

لا عــار في بيــع النفــوس عــلى الــورى عنــدي إذا كــان العــلا المشــيرا/ ١٩/

حتى حظر في الوهـاد وحـظ أصـحاب الــدناءة في الشـــواهق، والـــذرا

مـا لا جـبن يحمينـي الحـمام، ولا أرى الإقــدام يجلــب إلى ســوى مــا قــدرا

لابــد منهــا وثبــة تســعى الظبــا فيهــا ويكســو الجــو فيهــا عثــيرا

شــكو إلى الإمــام مــا ألقــى لهــا وجهــا عــلى تلوينهغــا مســتبشرا

مــا عــذر مــن لم يبــق وجهــا أبيضــا مــنهن إن لم يلــق موتــا أحمــرا

وقال أبو تمام:

وطلــو مقــام المــرء في الحــق مخلــق بــديبا .... فــاغترب فتجــدد

فــإني رأيــت الشــمس زيــدت محبــة مــن النــاس إن لــيس علــيهم مرمــد

وقال ابن قلاقس:

ســافرا إذا حاولــت قــدرا ســار الهــلال فصــار بــدرا

والمــاء يكســب مــا جــرى طيبــا ويخبــث مــا اســتقرا

وبنقلــة الــدرر النفيســة بــدلت بــالبحر نحــرا

وقال أيضاً:

إن مقــام المــرء في بيتــه مثــل مقــام الميــت في لحــده

فواصــل الرحلــة نحــو الفتــى فالســيف لا يقطــع في غمــده

والنــار لا يحــرق مشــبوبها إلا إذا مــا طــار عــن زنــده

وقال أيضاً:

والصغير الحقـير يسـمو بـه السـير فيعنــو لــه الكبــير الجليــل

فــرزن البيــدق التنقــل حتــى انحــط عنــه في قيمــة الدســت قيــل

ومثله قول أبي المفضل التميمي:

دَعنـي أسـيرُ في الأرضُ ملتمسـا فَضـلةَ مَـالٍ إنْ لم يفرزانـا
فَبيـدقُ الـرخ، وهـو أيسرُ مـا في الدسـت إن سـار صـار فرزانـا

وقال آخر:

لـيسَ ارتحالـك ترتـاد الفنـا سـفرا بـل المقـامُ عـلى خَـنَسٍ هـو السـفرُ

وقال أبو الفرج:

لم تجبـك العـلا إلى الغايـات مـا غنـاء الأسـود في الغابـات
لا يـرد الـردى لـزوم بيـوت لا، ولا يقتضـيه جـوب فـلات
مولـد الـدر حـاة فـإذا سـافر حـلى التيجـان، واللبـات

وقيل ليس بينك وبين بلد نسب فخير البلاد، وما حملك وعقده ابن الساعاتي فقال:

أهلـك، والليـل مطيـا جملـك شـمس فخيرا الـبلاد مـا حملك/ ٢٠/
لا خـير في بقعـة تـروق، ومـن الأرض إذا لم تنـل بهـا أملـك

وقال أبو الطيب:

وكـل امـرئ يـولي الجميـل محبـب وكـل مكـان ينبـت العـز طيـب

وقال أيضاً:

ومـا بلـد الإنسـان غـير الموافـق ولا أهلـه إلا دنـون غـير الأصـادق

وقال أبو محمد الحريري:

لا تبـك ألفـا نـأي، ولا دارا ودر مـع الـدهر كـيفما دارا
واتخـذ النـاس كلهـم سـكنا ومثـل الأرض كلهـا دارا
واصـبر عـلى خلـق مـن تعـاشره وداره فـا للسـبيب أم وارا
واعلـم بـأن المنـون جائلـة وقـد أدارت عـلى الـورى دارا
وأقسـمت لا تـزال قانصـة مـا كـرب عصر الحيـا، ومـا ولـدا

فكيـــف ترجـــى النجـــاة مـــن شرك لم يـــــنج منـــــه كسرى، ولا دارا

وقال ابن شرف:

وصـــير الأرض دار، أو الـــورى رجـــلاً حتـــى تـــرى مقـــبلا في النـــاس مقبـــولا

وهو ما خوذ من قول بهاء الدين:

شرق وغـــرب تجـــد مـــن غـــاد وبـــدلا فـــالأرض مـــن تربـــه، والنـــاس مـــن رجـــل

وقال أبو الطيب:

إذا صـــــديق نكـــــرت جانبـــــه لم تعنـــــي في فراقـــــه الحيـــــل

في معـــــة الخـــــافقين مضـــــطرب وفي بـــــلاد مـــــن اختهـــــا بـــــدل

وقال أبو العرب الصقلي:

إذا كـــان أصـــلي مـــن تـــراب فكلهـــا بـــــلادي وكـــــل العـــــالمين أقـــــارب

وقال آخر:

تنقـــل فلـــذات الهـــوى في التنقـــل ورد كـــل صـــفو لا تقـــف حـــول منهـــا

وإن ســـار مـــن تهـــوى فسر عـــن خبائـــه ولا تســـكبن دمعـــا عـــلى مترحـــل

ولا تتبـــع قـــول امـــرئ القـــبس أنـــه ضـــليل، ومـــن ذا يهتـــدي بمضـــلل

ففـــي الأرض أحبـــاب وفيـــه منـــازل فـــلا تبـــك مـــن ذكـــري حبيـــب ومنـــزل

وقال ابن الساعاتي:

وكـــن غائبـــاً عـــن كـــل أرض بأختهـــا وإن حـــل مغناهـــا كواعـــب عـــين

فلـــو لا فـــراق الـــدر أصـــداف بحـــره لا نكـــره تـــاج وصـــد جبـــين/ ٢١/

وقال ابن قلاقس:

إن كنـــت تبغـــي وطنـــا م نـــالعلا فـــاغترب فالســـمر في غابتهـــا معـــدودة في القضـــب

والشـــــمس لا ترقـــــب في المشرق لـــــــو لم تغـــــــرب

وقال آخر:

والتبر كالترب ملقى في مواطنه ... والعود في أرضه نوع من الحطب

فإن تغرب هذا عز مطلبه ... وإن تغرب هذا سار في الذهب

وهو مأخوذ من قول آخر:

أضيع في مشعري وكم بلد ... يعد عود الكباء من حطبه

وقال حماد بن هبة الله:

قالوا نراك كثير السير مجتهداً ... في الأرض تنزلها أطوراً، أو يرتحل

قلت لو لم يكن في السير فائدة ... ما كان السبع في الأبراج تنتقل

وقال أبو تمام:

لا يمنعك خفض العيش تطلبه ... تروع نفس الجاهل، والأوطان

تلقى بكل بلاد إن حللت بها ... أهلا بأهل، وأوطانا بأوطان

وقال الطغرائي:

إن العلا حدثتني، وهي صادقة ... فيما يحدث إن العز في النقل

لو كان في شرف المأوى بلوغ منى ... لم تبرح الشمس يوما دارة الجمل

وقلت في ذلك سالكاً بعض ما سلكوه من مسالك:

سَافِرْ إلى نيل المعزة إنَّ في السفر الظفرْ ... وانفرْ لنيل المجد فيمن للمعالي قد نفرْ

واعلمْ بأن المُكْثَ في الأوطان يدعو ... ويورثُ الأخلاطَ، والأجسامَ أنواعَ

أو ما رأيت الماء لطول المكث يعروه ... والبدرُ لو لزم الإقامة في محل ما بَدرْ

والدرُّ لو أبقوه في قعر البحار .. افتخر ... والتبرُ تُرْبٌ في المعادن وهواكم مُدخرْ

والعودُ مَعدود لدي الغابت من جنس ... والباترُ المغمود لو لم يخرجوه لما نحرْ

هذا وَكَمْ مثل سرى في الناس من هذي ... أبدى البدائع من نظم القريض، ومن

عن وجهها في غالب الأسفار أسفر من ... فادأبْ على الترحال في الأحوال أجمعها

واعلمْ أنَّ العبد عن وَطَن به تم الوطرْ ... وأغربْ بشرق، وأشرقن في أغرب إن

واجعلْ جَميعَ الناس أزرك، والثرى طُراً ... لا تختزنَّ بدوا، ولا حظر وكن ع ما حشرْ

فالبدوَ عِزٌّ، واللطافة، والظرافة في ... فإذا بَدَتْ فَكُلُّ عِزٌّ بَاذخٍ فيك

وإذا حضرتَ فكُلُّ ظَرْفِ ظرفه لك ... لا تَبكِ الفالا، ولا داراً، ولا رَسماً دَبَرْ

فالناسُ ألفك كهلم، والأرضُ أجمعها ... فمتى وجدتُ العز، والعيش الهنيء، أو

وإذا رأيتَ الصدَّ، والصَّدُ الخفي قد وزر ... واجعل بضاعتك التقى مع من أسرى

ومن خبر ... فإذا اتقيت الله فزت بكل كنز مدخر

تنبيهات: **الأول** ما مر من الفوائد المشار إليها لا يخفى أنها في مطلق السفر، والارتحال فما بالك بالسفر لبيت الله ورسوله الكفيل بالفوز الأخروي، والدنيوي على كل حال.

الثاني قول القاضي عياض:

تَقعد عن الأسفارِ إن كنت طالبا ... نجاةً ففي الأسفار سبعُ عوائقْ

تشوقُ إخوان وفقد أحبة ... وأعظمها يا صَاحِ سُكنى الفنادقْ

وَكثرةُ إيحاشٍ وقلة مؤنسٍ ... وتبديدُ أَموال وخيفة سارقْ

فإن قيل في الأسفار كَسْبُ معيشةٍ ... وعلمٌ وآدابٌ وَصُحبه وافقْ

فَقُلْ كَان ذا دهراً فقاوم عصره ... وأعقبه، وهو شديد المضائقْ

فَهذا مقالي، والسلامُ كما بدا ... وَجرب ففي التجريبِ عِلْمُ الحقائقْ

مردود بما أشرنا إليه فلا ينبغي أن يعول عليه.

الثالث: قسم العلماء السفر إلى هرب وطلب وكل منهما تعرض له الأحكام الخمسة فأما الهرب فينقسم إلى واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح.

فأما الواجب فالخروج من أرض غلب فيها الحرام، وقد تقرر أن طلب الحلال فريضة على كل مسلم.

وأما المستحب فالخروج من أرض غلبت فيها البدع، ولم يقدر على إنكارها قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الانعام: ٦٨].

وأما الحرام فالخروج من أرض تعين عليه فيها وظيفته كمن يتعين عليه القضاء، أو الفتوى في بلد.

وأما المكروه فالخروج من أرض وقع بها الطاعون فراراً أمنه لما ورد في الحديث الصحيح كما في البخاري وغيره من النهي عن ذلك.

وأما المباح فخروج المريض من الأرض المرخمة إلى النزهة لأن النبي (ﷺ) أذن للرعاة حين استرخموا المدينة أن يخرجوا منها كما في البخاري وغيره.

وأما الطلب فينقسم أيضاً إلى واجب ومندوب وحرام ومكروه ومباح فالواجب، والمستحب السفر / ٢٣/ لطلب العلم، والزيارة، والعشيرة، والرباط، والحرام سفر المعاصي، والمكروه السفر للإستكثار من المال من غير حاجة، والمباح سفر التنزه، والتجارة وكسب الزائد على القوت الذي لا ينتهي به إلى حد الطغيان في الغنى.

وأما سفر السياحة لا لغرض، ولا إلى مكان مقصود فمنهي عنه، وفي الحديث: «لا رهبانية في الإسلام، ولا تبتل».

فيما ينبغي المسافر ارتكابه إلى أجمعت على النص ركابه

ينبغي لمن أراد السفر ورامه، ولا سيما في شعاب الشعب وراعه أن يستشير جازما في رأيه عاقلاً في تدبيره باذلا نصحه لمن استنصحه من قريبه وبعيده وقبليه ودبيره موثوقا بدينه وعله وصلاحه مجزوما برفع ختنه وخفض جناحه ونصب فلاحه.

ولما اشتملت عليه المشورة من الخيرات المشهورة، والبركات المنثورة أمر الله سبحانه رسوله أن يشاور أصحابه مع أن جميع العقول بالنسبة لعقله عليه السلام نقطة من سحابة قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال في معرض المدح، والثناء ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقال رسول الله (ﷺ): «**ما تشور قوم إلا هداهم الله لأرشد أمورهم**».

وقال (ﷺ): «**المستشار مؤتمن**».

وقال الحسن: إن الله لم يأمر نبيه عليه السلام بمشاورة أصحابه حاجة منه إلى رأيهم ولكن أراد أن يعرفهم ما في المشورة من البركة.

وقال رسول الله (ﷺ): «**من نزل به أمر فشارو من هو دون تواضعاً عزم لأعلى الرشد**».

وقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): شاور في أمرك من يخاف الله عز وجل، وكان يستشير في الأمر حتى إن كان ربما يستشير المراة فأبصر في رأيها فضلا.

وقال سليمان بن داود عليه السلام لابنه: يا بني لا تقطع أمرا حتى تشاور من شد فاتك ذا فعلت ذلك لم تندم.

وقالت الحكماء إذا كنت مستشير فتوخ ذا الرأي، والنصيحة فإنه لا يكتفي برأي من لا ينصح، ولا بنصيحة من لا رأى له وقال:

شَاوِرْ سِواكَ إِذا نابتكَ نائبةٌ يوما وإنْ كُنْتُ مِنْ أهلِ المشوراتِ

فـالعينُ تُـبصرُ منهـا مـا دنـا ونـأى ولا تـــرى نفســـها إلا بمــــراةِ

وقال:

إذا عَــنَّ أَمْــرٌ فاســتشِرْ فيــه صــاحبا وإنْ كُنــتَ ذَا رَأيٍ تُشيرُ عـلى الصـحبِ

فــإنْ رَأيــتَ العــين تجهــلُ نفســها وتـبصرُ مـا قـد حـل في موضـع الشـهبِ

وأنشد أبو عمر بن عبد البر في بهجة المجالس لبعض الأعراب:/ ٢٤/

خَليـلي لـيسَ المرامـي في صَـدرِ واحـدِ أشــيرا عــلى اليــوم مــا تريــان

وأنشد ابن عبد القدوس:

وإن بـــاب عليـــك النـــوى فشـــاور لبيبـــا، ولا تعصـــهِ

وإنْ نَاصــحٌ منــك يومــا دنــا لا تنـــأ عنــــه، ولا تقصـــهِ

فإذا أشير عليه السفر وظهر له وجه مصلحته وسفر ما در مقبلا على الاستخارة ليتهيأ له ما اختار له مولاه تعالى وخاره وصفتها كما في البخارى وغيره أن يصلي ركعتين من غير الفريضة.

واستحب العلماء أن يقرأ في الأولى بعد الفاتحة قل يا أيها الكافرون، وفي الثانية بعد الفاتحة قل هو الله أحد.

وألفيت بخط شيخنا الوالد رحمه الله واستحسن بعض العلماء أيضا أن يقرأ الركعة الأولى بعد الكافرون وربك يخلق ما يشاء ويختار إلى يشركون.

وفي الثانية بعد الأخلاص، وما كان لمؤمن، ولا مؤمنة إلى من أمرهم، ثم يسلم ويثني على الله تعالى بما هو أهله، ثم يصلي على النبي (ﷺ)، ثم يقول:

اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر، ولا أقدر، وتعلم، ولا أعلم، وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه وإن

كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ورضني به.

فإذا وصل إلى هناك أعاده مرة أخرى على وجه آخر بأن يقول بعد قوله:، وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني وعاجل أمري إلى آخره، ثم يعيده مرة ثالثة ويقول فيها: اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في عاجل أمري وآجله إلى آخره فإذا فعل ذلك فإنه يوافق لفظ النبي (ﷺ) جرما ويخرج من الشك الوارد في الرواية كما أفاده جماعة من أئمة التحقيق، والتدقيق، والدراية.

وبه كان يقرر شخينا الإمام العلامة المحقق الهمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن المستاري البكري الذهبي رحمه الله، وألفتية بخطه مراراً، ومنه نقلت وكذلك ألفيته بخط، والدنا رحمه الله.

وزاد إن في بعض الروايات: اللهم إن كنت تعلم هذا الأمر خيراً بإسقاط أن ونصب خيراً على أنه مفعول ثان لتعلم.

ورواية صاحب الدرر الفرائد المنظمة: اللهم إن كنت/ ٢٥/ تعلم في هذا الأمر، وتسميه خير إلي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري، وفي الأمور كلها فاقدره لي ويسره لي وبارك لي فيه.

وإن كنت تعلم أن في هذا الأمر شر لي في دني ودنياي وعاقبة أمري، وفي الأمور كلها فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ورضني بقضائك، ولا حول، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اللهم خر لي واختر لي مع عافيتك ورحمتك اللهم ما قضيت لي من قضاء فاجعل عاقبة لي خير.

قلت فيها زيادات حسنة، وهي مع غرابتها في الدواوين الحديثة لا بأس بها إذ مثل هذا المقام ينبغي فيه الإطناب، والإكثار، والإلحاح في السؤال، والطلب كما لا يخفى، والله أعلم.

فإذا فعل ذلك وانشرح صدره السلوك تلك المسالك وقوى عزمه واشتد على السفر جزونه فليجتهد في أمور منها:

أن يسعى ما أمكنه في حصيل قال خلوني يصرفه في تلك القربة العظيمة لأن الحلال سبب لقبول وغجابة الدعاء وغير ذلك من الخيرات ولذلك كان طلبه فريضة كما مر إيماء إليه بخلاف الحرام فإنه سبب المقت وعدم القبول حتى قال ابن حنبل: أن من حج بمال حرام فإن حجه باطل.

قال الإمام النووي رحمه الله في مناسكه إن حج بمال مغصوب، أو فيه شبهة صح حجة في ظاهر الحكم ولكن ليس حجاً مبروراً ويبعد قبوله هذا مذهب الشافعي ومالك، وأبي حنيفة وجماهرة العلماء من السلف، والخلف.

وقال أحمد بن حنبل لا يجزمه بمال حرام قلت يريده ما خرجه الطبراني وغيره عن أبي هريرة (ﷺ) مرفوعا (إذا خرج الرجل حاجا بنفقة طيبة ووضع رجله في الغرز فنادى لبيك اللهم لبيك ناداه مناد من السماء لبيك وسعديك زادك حلال ونفقتك حلال وراحلتك حلال وحجك مبرور وغيرما زور وإذا خرج الرجل بالنفقة الخبيثة فوضع رجله في الغرز فنادى لبيك اللهم لبيك نادة مناد من السماء لبيك، ولا سعديك زادك حرام ونفقتك حرام وحجك غير مبرور)، وقال الشاعر:

يحجون بالمال الذي يجمعون	حَراماً إلى البيت العتيق المحرمِ
ويزعم كُلٌّ منهم إنَّ وِزْرَهُ يُحطُّ	ولكن سَعيهم في جَهنمِ

وقال الآخر:

إذا حَججت بمال أصله سُحت	فما حَججتَ لكن حَجَّت العِيرُ
لا يقبلُ الله لو كل طَيبة	مَا كُلَّ مَنْ حَجَّ بَيتَ الله مَبرورُ/ ٢٦/

ومنها: ما يخلص التوبة لله تعالى ظاهراً وباطناً من كل ذنب وقع فيه ولو مرة قولا كان، أو فعلا.

ومنها أن يوصي بما إحتاج إلى الإيصاء من أولاد، وأموال وغير ذلك ويشهد على وصيته ويستحل كل من كان بينه وبينه معاملة في شيء، أو مصاحبة ويبادر إلى أداء ما في ذمته من حقوق العباد واسترضا أربابها بها ويسرع لرد المظالم المغصوبات وغيرها ويعجل روادها ترتب عليه من حقوق الله تعالى من الزكاة، والصوم وغير ذلك ويعزم بقضائها وبراءة ذمته منها.

وهذا وإن كان مطلوبا بأكل وقت لكن عند إدارة النسك يتأكد الطلب به.

ومنها: أن يتعلم مناسك الحج، والعمرة ليكون على بصيرة فيما يفعله إذا استصحب كتابا مشتملا على المحتاج إليه في المناسك كان أفضل، وأولى وكثير من الناس بل غالبهم في زماننا هذا يقلدون بعض عوام مكة الذين لا خبرة لهم بمناسك الحج بل ينقادون لصغار الوالدان ويتوهمون أنهم يعرفونهم المناسك فيغترون بهم مع تخليط المذاهب وعدم المعرفة وذلك من الخطأ الشنيع الذي يجب التحرز منه، والتنزه عنه.

ومنها: أن يعد النفقة لمن تلزمه نفقته من الزوجات، والأولاد، والخدم، والولدان وغيرهم ويسترضي جميعهم بما أمكن، ولا سيما، والديه فإن حقهما أوكد لديه ويطلب منهم الدعاء الصالح.

ومنها: اختيار الرفيق الماجد لمنزل من منزلة العقد الساجد ليرافقه في مرافقته ويرافقه في موافقته ويساعفه على ما يقصده من الأمور الدينية، والدنيوية ويذكره إذا نسي ويعينه إذا ذكر ويحلم إذا غضب ويقبل إذا أدبر جامعا من خصال الكمال، والتمام ما قال أبو تمام:

من لبي بإنسان إذا أغضبته	وجهلت كان الحلم رد جوابه
وإذا صبوت إلى المدام شربت من	أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغي للحديث برطفة	وبقلبه ولعله أدرى به

ومنها: أن يستكثر الزاد، ومن غير إسراف ويؤثر المحتاجين منه، ولا يخرج إلى

المفاخرة بالرفاهية، وقد التنعم، والاستطالة على من هو دونه، ولا يجحف بنفسه إجحافا يتسبب به إلا ما لا يليق بدبل يرتكب الوسط فإن خير الأمور أوسطها دون إفراط، ولا تفريط كما وردت السنة بذلك/ ٢٧/ .

ومنها: أن يطلع الجَمّال على ما أراد حمله من الزاد قليلاً، أو كثيراً، ولا يخفي منه شيئاً.

ومنها: أن يحسن أخلاقه ما استطاع ولين جانبه ويخفض جناحه لجميع الخلق، ولا سيما الضعفاء المساكين فإن في لين الجانب لهم جبرا لخواطرهم ويتأكد حسن الخلق هم الجمالة فإنهم أصعب، وأشد شراسة، وهو خلق فيلين لهم ويعرض عن كلامهم ما أمكنه، ولا يقابلهم بشي وإلا جلب الضرر لنفسه وخصوصا جمالة الحجاز فإنهم لا يعبر عن شراستهم بحقيقة، ولا مجاز فليحذر الإنسان منهم ما أمكنه ويجمل أخلاقه معهم في سائر الأمكنة قيل أنه لا يداوم على ذلك بل يغلظ عليهم أحياناً، أو يبهتم بالضرب وغلظة الكلام دفعا لامتداد أذيتهم، وتمردهم إذا تحققوا اللين من أحد طلعوا عليه وقاسوه المشاق.

وقد حكى ابن حمدون في تذكرته عن الأعمش أنه حج فأحرم فلاحاه الجمال في شيء فرقع عكازه فشجه بها فقيل له لم ذاك، وأنت محرم.

فقال من تمام الإحرام شج الجمال وحمل ابن حزم قوله على الفسقة منهم.

وقال ابن مفلح في كتابه الفروع، وليس من تمام الحج ضرب الجمال خلافا للأعمش.

ومنها: أن يتواضع لله تعالى في هيئته وملبسه، ولا يخرج الطور في ذلك بل يجمل نفسه وهيئته وملبسه تجميلا لا تخيل بأمثاله دون إفراط، ولا تفريط.

وأما المركب فليتأنق فيه جهده وليجتنب في اختياره زهده لأن في رذالة الدابة تعب النفوس، والأبدان، ولا سيما مع طول السفر، والتنقل في البلدان ولكن يتوسط في كسوتها وحوائجها، ولا يخرج بها عن طور أمثاله.

ومنها: أن يتجنب الغيبة، والنميمة، واللعن لمخلوق أيا كان حيوانا، أو غيره ويترك الشتم، والمخاصمة ومزاحمة الناس في الطرق وموارد المياه وغير ذلك من كل ما فيه

أذاية له، أو لغيره، ولا يصحب كلبا، ولا دابة في عنقها جرس لأن ذلك ينفي الملائكة عنه فإن فعله غيره أزاله إن قدر وإن لي قدر قال اللهم إني أبرأ إليك مما فعل هؤلاء فلا تحرمني ثمرة صحبة ملائكتك وبركتهم.

ومنها: أنه إذا عزم على الخروج فليخرج يوم الخميس كما استحبه بعض العلماء، ولا بأس بالخروج في غيره وليصل ركعتين في أهله لحديث المنظم ابن المقدام الصحابي (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ) قال: «**ما خلف/ ٢٨/ أحد عند أهله فضل من ركعتين يركعهما عندهم حين يريد سفرا**».

رواه الطبراني وغيره قال الإمام النووي قال بعض أصحابنا يستحب أن يقرأ في الأولى منها بعد الفاتحة قل يا أيها الكافرون، وفي الثانية قل هو الله أحد.

وقال بعضهم يقرأ في الأولى بعد الفاتحة قل أعوذ برب الفلق، وفي الثانية قل أعوذ برب الناس.

وإذا سلم قرأ آية الكرسي قبل خروجه من منزله لم يصبيه شيء يكرهه حتى يرجع.

ويستحب أن يقرأ لإيلاف قريش فقد قال الإمام أبو الحسن الزويني الفقيه الشافعي صاحب الكرامات الظاهرة أنها أمان من كل سوء.

قال أبو الطاهر أردت سفرا وكنت خائفا منه فدخلت إلى القزويني أسأله الدعاء فقال ابتداء من نفسه قبل أن أسأله من أراد سفرا ففزع من عدو، أو وحش فليقرأ لإيلاف قريش فإنه أمان من كل سوء فقرأتها فلم يعرض لي عارض حتى الآن.

ومنها: أنه إذا فرغ من الصلاة وقرأ ما ذكر أن يدعو بإخلاص ورقة وخشوع، ومن أحسن ما يقول: اللهم بك أستعين وعليك أتوكل اللهم ذلل لي صعوبة أمر وسهل علي مشقة سفري وارزقني من الخير أكثر بها أطلب واصرف عني كل شر رب اشرح لي صدري ونور قلب يويسر لي أمري اللهم إني استحفظك واستودعك نفسي وديني، وأهلي، وأقاربي وكل ما أنعمت علي وعليهم به من آخرة ودنيا واحفظنا أجمعني يا كريم ويتفتح ذلك ويختم بحمد الله تعالى، والصلاة، والسلام على نبيه محمد (ﷺ) لم يرد سفرا

إلا قال حين ينهض من جلوسه «**اللهم إليك توجهت وبك اعتصمت اللهم اكفني ما أهمني وما لا أهتم له اللهم زودني التقوى واغفر لي ذنبي ووجهني للخير فيما توجهت**».

ومنها: أنه إذا فرغ من الدعاء ليودع أهله، وأقاربه، وأصحابه وجيرانه ويسألهم الدعاء ويدعو هو لهم.

ففي مسند الإمام أحمد وغرن عن ابن عمر (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) أنه قال: «**إن الله إذا استودع شيئاً حفظه**».

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «**من أراد أن يسافر فليقل لمن تخلفا استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه**».

قال الإمام النووي رحمه الله، والسنة أن يقول له من يودعه ما روينا في سنن أبي داود عن فزعة قال/ ٢٩/ قال لي ابن عمر رضي الله عنهما: أودعك كما ودعني رسول الله (ﷺ) «**استودع الله دينك، وأمانتك وخواتيم عملك**».

قال الإمام الخطابي الأمانة هنا أهله، ومن تخلفه، وما له قال وذكر الدين هنا لأن السفر فظنه المشقة وبما كان سببا لإهمال بعض الدين.

وروى الترمذي عن أنس (رضي الله عنه) قال جاء رجل إلى النبي (ﷺ) فقال يا رسول الله أني أريد أن أسافر فزودني فقال: «**زودك الله البر، والتقوى**» قال زدني قال: «**وغفر ذنبك**» قال زدني قال: «**ويسر لك الخير حيث كنت**».

وفي بعض المناسك: «ووجهك له وكفاك المهم وجعلك في حفظه وكنفه».

وقال الصلاح الصفدي:

ولما أن حججت جُعلتُ أهلي ... وديعةَ رَبِّ زَمزم، والحطيمِ

فيا أمني خليهم في رواحي ... ويا فَرحي بهم عند القدومِ

وقال أيضاً:

سرى بقصدي حين سِرْتُ لِطيبةَ ... وَمَا كُلُّ قَصْدٍ في الورى رَاح ضَائعاً

وودعتُ أولادي، وأودعتُ ضعفهم ... وعجزهم من لا يُضيعُ الودائعا

وَفَارقتُ أوطاني، وأوطارَ لذتي ... وَصيرتها إذ مَرَّتْ عنها بَلاقعا

أما قَدْ وكلتُ الأمر فيهم إلى الذي ... غَدًا لطفه في سَائر الناس ذائعا

فما قَلقي مِنْ أجلهم راح مُجديا ... ولا شَغَلَ قلبي بَعْدَ ذلك نافعا

ومنها: أنه إذا أودع أهله فليخرج قدما رجله اليمنى، ثم يقول: بسم الله وبالله آمنت بالله واعتصمت بالله، وتوكلت على الله، ولا حول، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم اللهم إني أسالك خير هذا الخروج وخير ما فيه، وأعوذ بك من شره وشر ما فيه خرجت بحول الله وقوته وبرئت إليه من الحول، والقوة اللهم اكفني ما أهمني، وما أنت أعلم به مني اللهم زودني التقوى واغفر لي ذنبي ووجهني للخير حيثما كنت اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في الأهل، والمال، والولد اللهم اطوِ لنا البعيد وهون علينا السفر.

فإذا قدم رجله للركوب قال: بسم الله فإذا استوى راكبا قال الحمد لله الذي سخر لنا هذا إلى قوله لمنقلبون، ثم يقول الحمد لله ثلاث مرات الله أكبر ثلاث مرات، ثم يقول سبحانك لا إله إلا أنت إني كنت من الظالمين فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب/ ٣٠/ إلا أنت.

فإذا نزل منزلا فليتحر عدم النزول في الطريق ويشتغل بالتسبيح حال حط الرحال فإذا استقر على الأرض قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق فإنه لا يضره شيء حتى يرتحل فإن نزل نهاراً فلا بأس أن ينام نومة تعينه على دفع الوسن، وتقويه على السير ليلا.

وإن نزل ليلا قال يا أرض ربي وربك الله أعوذ بك من شرك وشر ما فيك وشر ما يدب عليك أعوذ بالله من أسد، وأسود وجيه وعقرب، ومن ساكن البلد ومن، والد، وما ولد.

فإذا أصبح قال أصبحنا، وأصبح الملك لله الحمد لله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له له الملك، وله الحمد يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير رب أسألك خير ما في هذا اليوم وخير ما بعده، وأعوذ بك من شره وشر ما بعده.

فإذا أمسى قال أمسينا، وأمسى الملك لله إلى آخر أعوذ بالله من شر هذه الليلة إلى آخره.

فإذا ارتحل قال: الحمد لله الذي عافانا من منقلبنا ومثوانا اللهم كما حملتنا من منزلنا خلقا غيره في عافية لا إله إلا الله الحليم العظيم لا إله إلا الله رب العرش العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وآداب السفر كثيرة، وأذكاره غزيرة وليكن هذا القدر في هذا المختصر كفاية.

خاتمة: وفيها أمور أولها:

قال بعض حذاق الأطباء يجب على من أراد السفر بعيداً، أو طويلا أن ينق يبدنه من الفضول بالقصد، والمنهل خشية تولدها في بدنه وإلا غلبت على مزاجه، وأفسدته فمتى سافر وبدنه غير نقي لم يكد يسلم من الخراجات، والبثور، والحميات المتطاولة، وأنواع الأورام، والنوازل، ثم يدرج نفسه إلى المياه التي تنتقل عليه بأن يحمل من ماء ولده ويمزجه بالماء الذي يرد عليه ويحمل من ماء ذلك المنزل الثاني ويخلطه بماء المنزل الثالث يفعل ذلك إلى أن يبلغ الموضع الذي يقصده فإن تعذر هذا التدبير وكرهه فليجتهد أن لا يشرب ما يشربه إلا بمزاج شراب أن كان مرطوبا، أو بسكنجبين ساذج إن كان محروراً وإن تعذر فبخل، وقد ينفع المرطوب البصل المكبوش في الخل، والمقطع فيه، والمغسول به من ساعته يأكله.

وينفع من ذلك أيضاً أن يتزود من طين بلده الخر الجيد من موضع الماء الذي ألف شربه فيلقي منه قطعة في أي ماء يرد عليه ويتركه حتى يسكن ويصفو، ثم يشربه فإن كان الماء الذي يرد عليه كدراً سفاه وإن كان مالحاً مزجه بسكنجبين ساذج/ ٣١/ أو شيء من خل، أو يلقي فيه خروبا، أو حب الآس، أو زعروراً، أو طيناً حراً،

والسكنجبين أفضل من ذلك كله وإن كان راكداً، وكانت فيه عفونة فليخرج برب الفواكه المزة الحامضة كرب الحصرم، والرمان، والتفاح، والسفرج.

ويهجر الأغذية الحارة ما دام الشرب منه فإن هذا النوع من الماء أسرع شيء في تولد الحصاة وإن كان فيه مرارة فينبغي أن يزج بجلاب، أو ماس السكر ويؤكل عليه الأشياء الحلوة ومما يدفع ضرره أن يتجرع قبل شربه ماء الحصرم وكذلك الحمض نفسه نافع من ذلك.

ومن سافر في حر شديد فلا يمتلئ من الطعام، والشراب، ولا ينبغي خلاؤه منها لا يؤدي إليه من الفراغ ولكن يعتدل فيهما ويستعمل الأغذية الباردة المسكنة للعطش كماء الحصرم، والخل، والزيت وشراب التمر هندي، والسكنجبين وحليب البقلة الحمقاء ويشرب شربة خفيفة من السكر، والسويق.

وليحذر أكل الأشياء المالحة، والحلوة، والحريفة، وأنواع السمك، والزيتون فإنها معطشة وينفعه البصل المنقوع بالخل، والرفق في السير، وتقليل الأكل.

ومن سافر في برد شديد، أو ثلج فقد يعرض له الجمود، أو الجوع، أو الاسترخاء، أو نحوها فينبغي أن يمتلئ من الطعام ويمسك عن الحركة بقدر المسخن.

وينبغي لكل مسافر أن يستصحب معه أنواع التنقيات من اللباس، والباطن، والمعاجين، والمربات على اختلافها بحسب الأزمنة، والأمكنة، والأدهان الحارة، والباردة، وأنواع التكاحيل، والمراهيم وغير ذلك مما تمس الحاجة إليه لينتفع به وينفع غيره.

الأمر الثاني: ينبغي لمطلق الحاج أن يستصحب معه ما يحتاج إليه من متعلقات تتعلق به، أو بدابته فيكسو نفسه أولاً كسوة أمثاله، ولا يسرف إلا سيما في الكتان فإنه أمامه بأقل فمن واد ا يعتني به دائرة جيدة تحول بينه وبين المطر، والبرد بعد الكسوة المألوفة.

وينظر في دابته فيستصحب ما تحتاج إليه من الصفيحة، والمسمار ويطرق ويتأكد القنب، والوترة ومخيطان، أو ثلاثة وعشر، أو ثمان من الإبر ونحو اللقاط، والمطرقة

وشبه ذلك فإذا كان ممن ينتمي للعلم يستحصب زيادة على ذلك ما يحتاج إليه من كتب الفروع كمناسك خليل ومختصره وإن صاحبه شرحا من شروحه/ ٣٢/ فلا بأس بذلك ونحو الشفاء وكتبا يشتمل على القصائد المديحية ودلائل الخيرات، والأحزاب.

ويستصحب آلات الكتابة من المحبرة، والأقلام الكثيرة ويحفظها في جعاب، والمداد، والغبرة، والمقص، والموس ونحو ذلك.

وقد ذكر الإمام زين الدين عبد القادر الحنبلي في كتابه (الدرر الفرائد المنظمة) أن عدد ما اصطلحت عليه كتاب القبط من أسماء آلات الكتابة نيف على أربعين وسردها منشورة ونظمها العلامة نور الدين على العسلي رحمه الله تعالى فقال:

حمداً لمن علمنا بالقلم	وعلم الإنسان ما لم يعلم
وخصه بالنطق، والكتابة	كسيما ينال بهما آدابه
وإن من أشرف أوضاع البشر	رسم الكتاب فهو وضع يعتبر
فمن هنا قفنن الكتاب	فيما به ينتظم الكتاب
فأودعوا دويهم قديماً	لما ذكرنا أربعين ميما
لكن فيها الغث، والسمينا	وما نرى إسقاطه يعنينا
كمشغل ومرود ومكحلة	والحق إن مثل ذا الواصل له
فالعزم إن نبدله، والنيه	بما له علاقة قويه
حتى يرى أظرف مما اشتهر	وهذه عدتها كما ترى
محبرة مركب ملاق	وهو الذي في عرفهم مشاق
مرملة مزودة مجفف	لرملهم، وهو بهذا يوصف
ومبرد محدد ومزبر	لقلم ومجرد ومحفر
مفرشة ممسحة ومكثرة	ومفرز ومقسم ومسطرة

ملزمــــة ومكســــب ملــــف	مصـــفاة حـــبر لـــلأذى تكـــف
ومنقـــد ومكشـــط ومدبـــه	وهـــي برســـم مـــا تـــروم بريـــه
كـــذا مـــن مســـتحد ومقـــط	وقلـــم الطـــرح يســـمون محـــط
وملـــزق ومخـــيط مشـــك	مقطـــع كـــت لـــيس فيهـــا شـــك
ومركـــز لمـــا عليـــه يوضـــع	رؤوس الأقـــلام لـــئلا تصـــدع
كـــذلك المصـــواة، والمقـــص	تميـــت محـــراك عليـــه نصـــوا
محفظـــة ومجمـــع ومنشـــار	لقطـــع أوصـــال ا.... يختـــار
كـــذاك ملقـــاط لمـــا شـــأن القلـــم	مصـــقلة تكمـــل الـــنظم

وتم/ ٣٣/

الأمر الثالث: يجب على أمير الحاج زيادة على ما مر ذكره في مطلق الناس عشرة أشياء ذكرها الماوردي رحمه الله ونقلها النووي في مناسكه مختصرة فقال، وأما تسيير الحاج فهو ولاية سياسة ورعاية، وتدبير، والشرط المعتبرة في المولى أن يكون مطاعا ذا رأي وشجاعة وهداية، والذي عليه في هذه الولاية عشرة أشياء أحدها جمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لا يفترقوا فيخاف عليهم العدو، والتغرير.

الثاني: ترتيبهم في المسير، والنزول وإعطاء كل طائفة منهم محلا معروفا حتى إذا نزل عرف محله حتى لا يتنازعوا فيه، ولا يضلوا عنه.

الثالث: أن يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنهم ضعيفهم، ولا يضل مستطيعهم روى عن النبي (ﷺ) أنه قال: «**المضعف أمير الرتعة**» يريد أن من ضعفت دوابه كان على القوم أن يسيروا بسيره.

الرابعة: أن يسلك بهم أوضح الطرق، وأحسنها ويتجنب أوعرها، وأجدبها.

الخامس: أن يرتادهم المياه إذا انقطعت، والمراعي إذا قلت.

السادس: أن يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا حتى لا يتخطفهم داعر، ولا يطمع فيهم متلصص.

السابع: أن يمنع عنهم من يصدهم عن المسير ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج بقتال أن قدر، أو بذل مال إن أجابه الحجيج إليه، ولا يسعه أن يجبر أحداً على بذل الخفارة إن امتنع منها لأن بناه المال على التمكين من الحجج لا يجب.

الثامن: أن يصلح بين المتشاجرين ويتوسط بين المتنازعين، ولا يتعرض للحكم بينهم فإن دخلوا بلداً فيه حاكم جاز له، أو لحاكم البلد يحكما بينهما فأيهما حكم نفذ حكمه ولو كان زائفهم ويؤدب خائنهم، ولا يجاوز التعزيز إلى الحد إلا أن يوزن له فيه فيستوخيه إذا كان من أهل الاجتهاد فيه فإن دخل بلدا فيه من يتولى إقامة الحدود على أهله نظر فإن كان ما أتاه المحدود قبل دخول البلد فوالى الحجيج أولى بإقامة الحد عليه.

العاشرة: إن راعى اتساع الوقت حتى يأمن الفوات، ولا يلحقهم ضيقة إلى الحث في المسير فإذا وصل إلى الميقات أمهلهم للإحرام، وأقام بسببه فإن كان الوقت متسعا عدل بهم إلى مكة ليخرجوا مع أهلها إلى الموقف وإن كان الوقت ضيقاً عدل بهم عن مكة إلى عرفة خوفا من فواتها فيفوت الحج بها فإذا أوصل الحجيج إلى مكة فمن لم يكن على العود منهم زالت عنه ولاية الوالي/ ٣٤/ على الحجيج فلم تبق عليه يده.

ومن كان منهم على العود فهو تحت ولايته.

قلت ومما يتأكد وجوبه على أمير الحاج أن يقف بالركب في أوقات الصلوات الخمس لأجل الصلاة في الوقت ويأمر المنادي أن يقول الصلاة يا حجاج وإن يكون له إمام خاص به كما كان السلف فإن من حج من غير إقامة الصلاة لا سيما إن كان حجة تطوعا كان بمنزلة من سعى في ربح درهم وضيع رأس ماله، وهو ألوف كثيرة.

وقد كان السلف يواظبون في الحج على نوافل الصلاة، وكان النبي (ﷺ) يواظب على قيام الليل على راحلته في أسفاره كلها ويوتر عليها.

وحج مسروق فما نام إلا ساجداً، وكان محمد بن واسع يصلي في طريق مكة ليله أجمع في محمله يومي إيماء ويأمر حاديه أن يرفع صوته خلفه حتى يشتغل عنه بسماع صوت الحادي فلا ينفطن له فيجب على الأمير أن يأمر بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها ويفعل ذلك ويظهر إذا لا يحل له، ولا يغيره أن يؤخر الصلاة لغير عذر شرعي كما هو مقرر في الفروع ونبهنا على هذا الزهادة الناس فيه في وقتنا هذا وغفلتهم عن الصلوات وإعراضهم عنها، وتأخيرها عن أوقاتها وجميع الليلة، والنهارية وقعة، والعكس، وتشاغلون بالنوم، والأهواء، والأغراض النفاسنية عنه ويثقل عليهم ابتداء الصلاة فلا يأتونها إلا، وهم كسالى، وما علموا أن الله تعالى متى علم من عبده حرصه على إقامة الصلاة على وجهها أعانة، وما قدم أحد حق الله تعالى على هوى نفسه وراحتها إلا أوتي سعادة الدنيا، والآخرة.

ومما يجب عليه أيضاً اجتناب ما يرتكبه أمراء وقتنا من قطع مرحلتين في مرحلة قصداً للسرعة في السير وذلك ضرر كبير ومشقة شديدة على النفوس، والأبدان، والجمال.

ومما يجب عليه الرفق بالناس في الحر الشديد فيريهم في وقت القيلولة المفرطة ويقصد بهم الظلال، والمياه، والاستراحة، وفي وقت الرياح المفرطة الشدة ويكون بالمرصاد لرعيته فإذا حصل لهم أدنى مشقة بادر إلى راحلتهم بإزالتها، ولا سيما في الحجاز ويجب عليه في الرحلة التي بها مضيق أو، وهم منعهم من المزاحمة، والاصطلام، والتشاجر ووكل من يمنعهم من ذلك.

ومن الرفق بالحجاج أيها لهم بالدار بعد الإعلام بالرحيل مقدار ما يعلم أن أهل الركب في حال الاعتدال/ ٣٥/ للسير، وألا يصير الذي لم يحمل جماله في غاية السرعة، والدهشة خصوصاً ليلا فقد يترك بعض أمتعته بالدار ذهولا ونسياناً.

وينبغي لأن يجلس بهم في كل دار ومنزلة ليحضر إليه من يشكو ظالماً من جمال، أو غيره فيزيل شكواه ويصلح بين المتخاصمين وإن كان الحكومة شرعية جهزه لقاضي الركب إن لم يكونوا في بلد.

ولا ينبغي له أن يحتجب عن الحجيج ويدع أمرهم فوضى بينهم لأنه راع وكل راع مسؤول عن رعيته.

ولا يمسك ترجمانا يحول بينه وبين الناس إلا إذا دعت لذلك ضرورة من عجمته، أو عجمة بعض الحجيج أما إذا عرف الألسنة وقصد بالترجمان إهانة وفد الله تعالى، والتكبير عليهم فقد ارتكب إثما عظيما مع أنه قد لا يبلغه الترّجمان ما قاله كل من الأمير، والحاج لغش، أو إرادة رشوة، أو قصوراً، أو نحو ذلك.

ويجب عليه النظر في الفقراء، والضعفاء، والمرضى وخصوصا المشاة ويكشف على الساقة في الغالب لأنها مظنة ذلك وعلى غيرها، وفي الدور، وتحت الأشجار فإن ألفى ميتاً فقيراً أمر بدفنه وغسله، والصلاة عليه لأنهم رعيته، وهو مسؤول عنهم كما مر فإذا كان الحر فينبغي له أن يحمل معه من القرب المملوءة بالماء لسقي العطاش ويتفقد الجيعان ويركب الغيان، ولا سيما في الحجاز فمثل ... هو المطلوب من أراء الحاج يوماً يعدونه من تجهيز الأعمال الكثيرة للمتاجر، وتنميق المأكل، والمشارب، والملابس، والمراكب لإظهار المفاخر لا يعملون لله، ولا لليوم الآخر قدير يرتكبون الفواحش، والنقائض يخالطون كل خسيس ناقص وينهمكون في أنواع المحرمات على اختلافها ويرضون من من ثدي الفسق، والزنا يض اختلافها فما أجدى من يرتكب هذه الرذائل بقول القائل:

حَججتَ البيت ليتك لا تحج ... ومنكَ الركبُ في الآفاق ضجوا

وَرُحتَ بِحمل أوزارٍ ثقالٍ ... فقعدت وفوق ذاك الحمل خرج

ولابن سناء الملك:

حج في العمر مرة، وتعنى واحرما ... وأتانا من الحجاز كما راح محرما

فهو ذو الحجة التي تستحل المحرما

ولآخر:

رأى البيـــت يـــدعي بـــالحرام فحجـــه ولـــو كـــان يـــدعي بـــالحلا ناجحـــا

ولبعضهم:

حـــجِ، وقـــد كـــان ذا غـــرام بـــالركن، والبيـــت، والمقـــام/ ٣٦/

وَعـــادَ مـــن حَجـــهِ سَريعـــاً يطعـــنُ في المشـــعر الحـــرام

وهذا بالنسبة لوقتنا غير مستبعد، ولا مستنكر لإفشاء الباطل وإذاعة المنكر فنحن في زمان عاد الإسلام فيه غريبا، والقابض فيه على دينه كالقابض على الجمر وماذا يقال.

وقد حكى صاحب المحاضرات أن عبيد ابن شريه دخل على معاوية بن أبي سفيان في ذلك الصدر من الزمان، وقد أتت على عبيد مائتان وعشرين سنة فقال له ما شاء ... من الزمان، وما أدركت فقال يا أمير المؤمنين أدركت الناس، وهم يقولون ذهب الناس فلا مربع، ولا مقرع، وقيل ما بقي من الناس إلا حمار رائح وكلب نابح، أو أخ فاضح.

وكانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تنشد:

ذَهبَ الذين يُعاش في أكنافهم

البيت

قال ابن عباس رضي الله عنهما لئن شكت أم المؤمنين من زمانها فلقد شكا قوم عاد من زمانهم إذا وجد في خزائنهم سهم عليه مكتوب:

بـــلادٌ بهـــا كنـــا ونحـــنُ نحبهـــا إذا النـــاسُ نـــاسٌ، والزمـــانُ زمـــانُ

وقال أبو صالح في قوله تعالى ويذهبا بطريقتكم المثلى أي ببراءة الناس، وقال المتنبي:

وثـــرت أشـــك فـــيمن اصـــطفيته لعلمـــي أنـــه بعـــض الأنـــام

وهذا ملئت به الدفاتر فلا نطيل به.

ذكر ابتداء العزم على السفر والنهي للرحيل عن الوطن في أشرف وطر

اعلم أرشدنا الله وإياك، وأشرق بنور الطاعات محياك ومحاك أن الله تعالى إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك وإن جلت قدرته إذا أراد بك السعادة يسر لك من

أسبابها وفتح عليك من أبوابها ما هو معدود من خرق العادة إذا قدرته سبحانه لا تتقيد بعادة، ولا قانون بل تجري على خلاف ما تتوهم الأوهام، وتتخيله الظنون طالما كنا نتمنى الرسول لبيته الحرام ونسأله تعالى أن يبلغنا من الروضة المطهر النبوية غاية المرام وفشتى الحلول في تلك الأماكن الشريفة، والاستظلال بظلالها الوريفة فأصرح بذلك في نثاري ننظامي طالبا من الله تعالى أن يقوي بمشاهدة تلك المشاهد ما أوهته الذنوب من عظامي.

وكان هيجان شديد شوقي الذي لا ينحل وروجان قدير توقى/ ٣٧/ الذي لا ينحى نحوه، ولا ينحل زمن شرحي لنظم فصيح ثعلب الملك ابن المرحل فكنت كلما أمر بي ذكر الحرام، والإحرام أضرم نار الأشواق بين الجوانح غاية على الإضرام فتبرز القريحة الخامدة النثار ما يعده البلية من العثار، وتبدي الفكرة الجامدة من الأشعار ما لم يكن لهابه أشعار تشوقا لتلك المساكن، وتشوقا لمن بها ساكن.

فمن ذلك قولي بعد شرحي قوله، وقد حللت أنا من إحرامي أكملته في البلد الحرام، وقد هيج اللوعة، وأثار الغرام ذكر الحرمين الشريفين، والحج، والإحرام، وتحركت سواكن القرائح بعوامل الأشواق فنفثت بها رأته نفاقا ف يهاتيك الأسواق، وتشوقا لتلك المرابع، وتشوقا بهاتيك المجامك مرتجلة ارتجالا يدفع عنها الاعتراض ويستر مكنون جواهرها في جلى الأعراض وإن كان الأعراض هي التي تظهر في الجوهر، والأزهار هي التي تبدو على الغصن:

الزاهرة، والنفثة المشار إليها قولي دون روية بحول الله لا بحولي

ألا ليت شعري هل أرى البيت معلما	وهل أردن يوما على الرق زمزما
ومن لي بحج البيت في خير معشر	حدجابهم الحادي وغنى وزمزما
ومن لي بأن أمسى على حجراته	وأصبح ممن للمعالي به أنتما
ومن لي بالخل الذي قد ألفته	فيدعي جهارا أنتما القصد أنتما

نطوف بذلك البيت طوراً، وتارة ... فنلم بهاتيك البقاع فنلثما

وَأونةً نأتي إلى الحجر الذي ... سما قدره على حتى تطاول للسما

نعضر فيه الخد، والوجه كله ... ولست أرى ممن يخص به الغما

وطورا نصلي، ثم نسعى إلى الصفا ... ليصفى الفؤاد المستهام المتيما

ونسرعُ كي نلقي المنى ولدى منى ... نخيم فيمن كان للميمن خيما

ونجني ثمار العَرْفِ من عرفاته ... ونغرف منه الخير غرفا معما

وتبأ من كل العقاب إذا دنت ... عقاب جمار تحرق الذنب أينما

وتصبحُ فيمن بر لله حجه ... وأصبح في تلك الرياض منعما

ويا ليت شعري هل أرى طيبة التي ... بها طابت الأكوان نجدا، وأيما

وهل تبصرُ القبر الشريف مما جرى ... فأصبح فيه منشداً مترنما

أخاطبهُ جهراً، وأسأل ما أشا ... وأرجو حصول السؤال متمما/ ٣٨/

وَيُسعدني في القول البليغ فأنثني ... إذا ما نظمت القول فيه تنظما

وارجعُ مملوء الحقائب عامرا ... بما شِئْتُ مِنْ علمٍ وَحِلم، وما وما

وتخدمني الدنيا، وأصبح في غد ... لدى رتبةَ شماء في منزل سما

تحف بي الألاك من كل جانب ... لدي جنة الفردوس ابتداء ومخيما

فتربحُ هَاتيك التجارةُ كلها ... ويغنمُ مولدها ابتداء مخيما

وأهدي إلى خير الأنام محمد ... سلاما بعرف الطيبات مختما

حق الله منا الرجاء وبلغ الآمال بالفوز في هاتيك الأرجاء بكرمه وطوله وعزته وفضله، ومن ذلك كلام، وأي كلام:

فهنالكَ يحلو المدحُ دون تردد ... ويطيب تِكراري الثناء، وترددي

وأخاطبُ القبرَ الشريفَ مُشافها وأقول للفكر القريح ألا أردد

وأقولُ يا خيرَ الأنامِ جميعه يا صفوة الله العظيم الأوحدِ

يا خَيْرَ مَنْ وطئ الثرى، وأجل من بذل الثراء شداً ومنشد

هذا عبيد جاء كم متطفل يسعى بدمع محاجر لم يجمد

مُتسربلٌ بجرائر وجرائم هَدَّتْ قُواه وكل طود أطود

فاشفعْ له فلقد أتى متشفعا مولاي بالسبطين سبطي أحمد

وَسَل الإلهَ العفو عن آثامه حتى يرى منها طهوراً في الغد

والختمُ بالحسنى فذلك عنده مولاي في المطلوب أكمل مقصد

والسترُ في الدنيا، وفي الآخرة فلي آل بتسميتي سماه محمد

والوِرْدُ مِنْ حَوضي تكفل ورده إن ليس نظما، وأرد للمورد

وَعليكَ مَا سَجَعَ الحمامُ تحيةً واشتاقَ مُشتاق لعبر محمد

ونبهت على بعض ما اشتملت عليه هذه الأبيات من الأنواع البديعيات بقولي لت قولي دون تردد المراد به التلعثم وعدم الانسجام من تردد في الشيء إذا لم ينطلق في فعله، والمراد بترددي تكراري من ردد الشيء بمعنى كرره، وأعاده المرة بعد المرة.

أو من قولك تردد بالمكان إذا أكثر من الذهاب، والرجوع فيه فهو جناس تام لا أبطأ كما يتوهمه من لا معرفة عنده وإن كان الأبطأ خاصا بالقوافي فإن البلغاء/ ٣٩/ يجتنبونه في التصريع.

ولا يخفى ما في قولي لناشد، أو منشد من التورية مع ما في الأبيات من أنواع الجناس، وأجناس البديع وذلك كله من بركة الممدوح (ﷺ) ومجد كريم وعظيم.

ومن ذلك قولي، وقد جرى له ذكر الحج المبرور سائلاً من الله تعالى تعجيل الذهاب لحرمه، والمرور لا حرمنا الله تعالى من حجة مبرورة وعمرة بالخيرات معمورة وزيارة للروضة النبوية التي لم تزل بالأنوار مغمورة:

فهالك يدنو الهنات، والسرور وفتم المنى ومنادي السرور

وأفوزُ بكلِ خَير إذا ما قيل لي ذاك حجة مبرورةْ

وإِذَا زُرتُ قَبر خير الورى طوا عليه الصلاة، ثم السرور

ومن ذلك قولي، وقد جرى له التعريف وعرفه بعد ما نبهت على أن يومه يوم شريف كل قد علم شرفه وعرفه جعلنا الله تعالى ممن يعرف هذه السنة بعرفات ويغرق من زمزم بل يكرع إذ لا تكفيه الغرفات وينال من فضل مواهبه في فراديسه علا القصور، والغرفات ويشاهد بعد تلك المشاهد الأنوار النبوية وينشد إنشاداته هنالك دون روية:

وتسعفهُ غُرُّ القوافي لأنه مشوق إلى ملك المرابع شيقِ

ويوحي له من كل قول لبابه ومن كل نظم في المدائح ريقِ

ويصبح رحب الصدر منه موسعا لا،ه من فرط الصبابة ضيقِ

فهنالك يحق السرور، وتذهب بحار الأفراح بمراكب السرور إلى غير ذلك مما تقل فيه مولانا، وله الحمد على ما أولانا سؤالنا ودعائنا، وأفعم بخيراته لباطنه، والظاهرة في تلك الأماكن المقدسة الظاهرة كما سألناه سبحانه دعائنا كقولي في القصيدة الغراء التي قافيتها الراء:

أمْ هَل أَطيب بطيبة زمنا وهل أعود من عطرها عطرا

وهل أرى مُنشدا بِسَاحتها مدحَ الرسول المبعوث مَضَا

وستأتي بتمامها في الزيارة إذا وصلنا روضة المصطفى ودياره وربما فترت فكرتي لتطاول أشجاني وكثرت حسرتي لتداول الوجد الذي برح بي، وأشجاني فأعدل على الإنشاء، وأستثني من الآداب بعض ما يحق له الاستقراء، والاستنشاء فأمتثل بقول

من/ ٤٠/ تقلب قلبه على نيران الأشواق لما صفا فأصبح يشتاق إلى جيران الحجون، والصفا:

يـا جـيرتي بعـد الحجـون إلى الصـفا ... شـوقي إلـيكم مجمـل ومفصـلُ

أهـوى ديـاركم ولي بربوعهـا ... وجـد يثبطنـي وعهـد أولُ

ويزيـدني فيهـا العـذول صـبابة ... فيظـل يغرينـي إذا مـا يعـذلُ

ويقـول لي لـو مـذ تبـدلت الهـوى ... فـأقلو قـد عـز الغـداة تـدلُ

بـالله قُـلْ لي كيـف تحسـن سـلوتي ... عنهـا وحسـن تصـبر هـل يجمـلُ

هـل في الـبلادِ مَحلـةٌ مَعروفـةٌ ... مثـل المعـرف، أو محـل يحلـلُ

أم في الزمـان كَليلـةِ النفـرِ التـي ... فيهـا مـن الله العـوارف تُجـزلُ

وربما أتوا جد بها غشيتي من الوجد وعلاني فأتمثل بقول القطب القسطلاني:

ألا هَـلْ لِظـلٍ بـالآراكِ مُعـادُ ... وهـل ذلـك العـيش الهنـي يُعـادُ

وهـل زائـر الـزوارء زائـر أبطـح ... وخيـف منـي دار تحـل سـعادُ

وَهَـلْ لطـوى، والمـازمين ومشـعر ... تـدان فقـد أضـنى الفـؤاد بعـادُ

وَهَـلْ مُـدنفٌ بـاكٍ تكـدرَ عيشـه ... وأقلقـه وافي الغـرام يعـادُ

وَهَـلْ ذلـك السر الـذي كـان بيننـا ... ومـا فطـن الـواشي لـذاك يعـادُ

وكلما تحدث بالرحيل إلى تلك الأماكن راحل، أو تتابعت إلى طريقها المراحل أعود لآداب القطب فأردد قوله الذي هو أزهى كلمة، وأبهى قوله:

أراحـكَ وَشْـكُ البـينِ أمْ أنْـتَ غافـلُ ... أم القلـب في أثـر الظعـائن راحـلُ

لقد لَجَّ هـذا الوجـد هـذا حتى كأنـه ... يحـاول ثـاراً عنـد مـن هـو قائـلُ

تحيرت حتـى لـو سـئلت عـن الهـوى ... لفـرط الجـوى لم أرد مـا أنـا قائـلُ

أأحبابنـا بـالجزع عـن أيمـن الحمـى ... تـرى هـل لمـا أروى مـن الشـوق ناقـلُ

تمنع من الهوى علي بوصله فعندي إنَّ الوجد المبرح شاغلُ

كتمت هواه برهة فنمت به دموع على خدي سح هواملُ

وَربما فاضت الأشواق فيضاً فرجعت قوله أيضاً:

ألا آهل عَشيات الأراكِ رَواجعٌ فننعم عينا، والعيون هَواجعُ

ونزفل من القرب سائل ويسكن نصبا جرحته القواطعُ

وترفع جزم الهجر عنا بوضعها عَوامل لما إن عداها التقاطعُ/ ٤١/

غَريبٌ له مذ بان بأن برامة فؤاد معنى أزعجته المطامعُ

يبيتُ يُناجي النجمَ، والطرف سَاهِرٌ بجنبِ قَريحٍ قد جَفتهُ المضاجعُ

له منذ نأى الأحبابُ سَفحَ مَدافعٍ وَزفرةُ مَعمودٍ وَهَل ذَاك نافعُ

تَشاغلَ ذهل بالحديث يظنه يشتيتُ هَمّاً، وهو للهمِ جَامعُ

وَلَمْ يُثنهِ قَولُ الوشاة بأنه وإن ظن عَاصٍ فهو بالقطع طائعُ

تبدلَ مَنْ مَرَّ التصابي حَلاوةً فلذلـه ما طَالَ فيه التنازع

وهو العتب فيما قد مضى، وتصدقوا ببذل الندى فالعمر لولاه ضائعُ

ومن لي بوصل أرجيه، وأثني بطيب خيال في المنام لقانعُ

أجيروا من الجوار المفرق للمنى بجمعٍ على مَرِّ الدهورِ يُطاوعُ

ومهما خضعت في ذلك الوادي ف يملك الأماكن المرقة سوادي أعد وصولي إليها ن المحال، وأعتقد أني لا أقدر عليه ولو بالغت في الحيل، والمحال زاعما أن الضعفاء أمثالي لا يستطيعون على كل حال لأن الحج إنما يستقيم بالأجسام الجسام، والأموال التي لا توسم بالحصر، والأتسام حتى كنت ربما أتغالى فأصرح بأني لا أصاحب من هنالك ذهب ولو ملكت ما ملكت من الفطن، أو الذهب.

وإن كنت التيحيد يحمل علبد على تصديق أفعاله بمشيئة مولاه فيقول لألا إن يشاء الله، ولما دعانا مولانا تعالى لشريف حضرته، وأيدنا بتأييده، وتوفقه ونصرته فهيأ لنا الأسباب وفتح لنا من خيراته كل باب، ولم يترك سبحانه نوعا من أنواع التيسير إلا أمدنا به جلت قدرته في الأمر اليسير ليعملنا لا فرق في أرادته بين القوى، والضعيف، والمقل، والمكثر وبنبينا أن وصاله لا ينال بحيله، ولا يرام بالنفائس الجليلة وإنما هو خصيصا يخص بها من شاء من عباده وفضل بجريه في الخلائق على حسب اختياره ومراده، ولقد صدق القائل الذي ظهرت على قوله من الخصومة مخائل:

قد كُنتُ أحسبُ أنَّ وَصْلَكَ يُشترى	بنفائسِ الأموال، والأرباحِ
وظننتُ جِهَادُ أن حب هين	تغنى عليه كرائم الأرواحُ/ ٤٢/
حتى رَأيتك تجتبي، وتخصُ مَنْ	تختارهُ بلطائف الأمناح
فَعلمتُ أنك لا تَنَالُ بحيلة	ولويتَ رأي تحت طَي جناحي
وَجعلتُ في عُشِّ الغرام إقامتي	في غدوي دائما ورواحي

فلذلك لما أزعجنا الشوق الذي بث سبحانه في صدورنا وجوانحنا إلى شريف تلك المساكن حركة عوالمه المعنوية من قلوبنا وجوارحنا كل كائن وساكن حتى ذهلنا عن النظر في العواقب من قلوبنا وجوارحنا جسم، ولا مال، ولم نعتبر ذلك، ولم نراقب وخرجنا منقادين بسلاسل الإرادة لما شاء أن يورثنا به سبحانه من عظيم هذه العبادة وقيض لنا الرفيق الذي لم نكن لنفارقه، والصديق الذي جلى على الصداقة المودة نحوره ومفارقه، والخليل الحبيب الصاحب الأثيل الذي لم يكن له في خلته ومحبته من مثيل، والأخ القائم بأعباء الأخوة لأنه يرى الذهول عن حقوقها ليس من المروءة الفقية النوذعي الكاتب المجيد الذي قلد بدرر أسجاعه الحلوة ونظامه المستعذبة.

محبنا الفقيه الناسك العدل الأتقى أبي عبد الله الخياط ابن أحمد الشهير بين الديار الحرية القاسية بابن جيجة المستنشق من أعراف الأعراق، وأطيب الأعلاق نسيم

الحسب، وأريحة أصلح الله الولد ورحم الوالد وبلغنا جميعا من المقاصد كل طارف، وتالد فقد كانت لوالده رحمة الله تعالى فينا زيادة محبة أوجبت إخلاص مودة الولد فلذلك لم نترك منها مثقال حبه، وتحلى الولد حفظه الله بتلك المحبة القديمة التي لم تزل على مر الأزمان مستديمة فكنا بتوفيق الله على عشرة لم تعهد للغير ومساعفة ومساعدة شاهدة لنا بكل خير كل منا ألزم لصاحبه من ظله، وأشد استغناء به عن أقاربه، وأهله شنشنة عرفناها في زمن الصبا وجعلناها أشهى إلى الروح من نسيم الصبا فلا تذكر ملازمة الفرقدين بالنسبة لذلك، ولا تعبأ بما قيل عن منادمة عقيل ومالك:

فهذا هو الذي تستديمه ... ولا تسألن عن مالك وعقيل

ولا تذكرن الفرقدين فودنا ... على كُلِّ ذي ود زرى وخليل/ ٤٢/

نسأل مولانا سبحانه أن يديم تلك المودة المحضة مصحوبة بالتوفيق إلى أن يرث الله أرضه لأن القلوب بيديه، والأمر كله لديه، وكان هذا الأخ بلغه الله أمنيته ووفاه قصده ونيته قبل ها ما بين السنين بعاكلا تهيأت الركاب للسفر سبح في بحر مدامعه وعام، ولم يملك قياداً لنفسه، ولم يميز وحشته من أنسه شوقاً لتلك الأماكن المشرفة المكرمة، وتوقاً لذلك الجناب الذي عظمه الله تعالى ومجده وكرمه.

فإذا امتدت أشواقه ونفقت ببضائع الوجد أسواقه طفق يغريني بطرائق الوجد ويحثني على غير أني أتصبر فلا أساعده على قوله لما أتحقق من عدم قوته وحوله، وأظهر له التمنع من ذلك لما أعلم من أنا معا لا قدرة لنا على سلوك تلك المسالك وإن كانت القلوب لتلك الرباع الرابعة راحله بغير زاد، ولا راحله فما زال بي أعلى الله تعالى قدره حتى شرح الله سبحانه صدري لما شرح إليه صدره، وأذهب عنا الموانع، والع....، وأرشدنا إلى أن ذلك هو الأمر اللائق فعند ذلك لم يمكنا إلا أن من تضع الوفاق أن نستنشق زهر الخلاف فآخذنا جادين في أهبة السفر، وقد أضاء علينا بفضل الله تعالى صبح التيسير وسفر.

ذكر خروجنا من فاس ومفارقتنا لتلك الشمائل الطيبة الأنفاس:

خرجنا من فاس الغراء التي لم ينظر لها نظير سوى الحرمين الشريفين فيما أظلت الخضراء، وأقلت الغبراء الأرض التي لم تزل رياضها بمآثر الكمالات أريضة ومحاسنها الباهرة طويلة عريضة أرض جمعت ما تفرق في الدنيا من المحاسن وحوت ما لا يوجد في غيرها من الفواكه المنوعة، وأنهار الماء الذي ليس بآسن.

أرجاؤها طبق المنى وهواؤها ... يشتاقه الولهان في الأسحارِ

والطبعُ معتدل فقل ما شئته ... في الظل، والأزهار، والأنهارِ

بَلدٌ تدفقت أنهاره، وتفتقت أزهاره ... وأتسقت أبنيته واتسعت أفنيته

فإذا تذكرت آسه وبانه أنشدت قول ابن اللبانة/ ٤٤/

بلد أعارته الحمامةُ طوقها ... وكساهُ حلة ريشه الطاووسُ

فكأنما الأنهار فيه مدامة ... وكان ساحات الديار كُؤوسُ

أرض تنبت الثراء ثراها، وتبتهج النفوس مهما تراها أرض حازت مصالح الدين، والدنيا بغير شرط، ولا ثنيا أرض ما زلت أنشد كما أشوقني إليها لذاتها، وأترابها:

بِلادٌ بها نيطت على تمائمي ... وأولُ أرضٍ مس جلدي ترابها

وماذا أقول في أرض أخرست محاسنها لسان لسان الدين ابن الخطيب، وقد ألف فيها جم من البراعة، والفصاحة، والفضل، والسماحة نفح الطيب، وما أدراك ما نفح الطيب بأي عبارة أعبر عن بلاد عجز عن استيفاء بعض كمالاتها القلم، والقرطاس، وما رام رام أن يصيب أغراضها وينيل سهامه من قراطيسها أغراضها الأنبا سهمه فأخطأ المرطاء وإذا طار حيث هذه الأرض في الأفاق وسما قدرها على جميع الأمصار في سائر الإعصار وفاق وسارت بمحاسنها البادية في الحاضرة، والبادية الركبان، والرفاق واشتهرت مزاياها وارتفع النزاع فلا يخدش في وجه جمالها الباهر وكمالها الظاهر صيرت

النزاع فلا يخدش في وجه جمالها الباهر وكمالها الظاهر صيرت الفتن أعجازها صدوراً، وأقعدت الشرور، والمحن، أو باشها من مقاعد التصرفات صدورا.

واستولى أمرها أرذالها دون أشرافها، وأكابرها، وتحكم أنزالها في كراسيها ومنابرها فإن الشرور ظلمة، ولا يظلم أحد حتى يستوجب ظلمه، وتراكم الأهوال موجب لتغير الأحوال وانقلاب الدول مظنة الفتى من الزمان الأول على أن ذلك مستندر بالنسبة لما مضى من تمام عافيتها، وما هو إن شاء الله آت ومفتقر في جنب حسناتها العظام.

إن الحسنات يذهبن السيئات وإذا المليح أتى بذنب واحد جارت محاسنه بألف شفيع فمن رام أن يغنم صفوها بلا كدر أسرع النقلة عنها قبل أيام الفتن وبدر، وأزمع الارتحال عند انتقال الحال، وقد فارقنا محياها الأزهر وانصرفنا عن روضها الذي بأفنان فنون العلم، والعمل يزهر ونحن نستمد المعونة من القادر ونسأله اللطف/ ٤٥/ والخيرة في جميع المقادر مصحوبون بالسلامة، والعافية مغمورون في آلائه تعالى التي ليست بواهية، ولا عافية صبيحة يوم الأربعاء الرابع من رجب الفرد الحرام سنة تسع وثلاثين ومائة، وألف لهجرة المصطفى (ﷺ) وعلى آله، وأصحابه الكرام.

وكان الركب خرج قبلنا في يوم الاثنين الثاني من الشهر المذكور محفوفاً بالسعادة، والإقبال في الوصال، والبكور، وتأخرنا عنه نحن لمقتضيات اقتضاها الحال مع مطر غزير تولدت منه، أو جال، وأوحال فلما أصبح يوم الأربعاء بسمت ثغوره عن الصحو وهبت رياح الإقبال على السحائب فمحت آثارها أي محو فخرجنا بعد أن استعملنا ما أشرنا إليه في المقدمة الرابعة من التوديع، والأدعية، وأنعمنا بزيارة من أمكنت زيارته من الصالحين الصدور، والأدعية.

وسألت الإله مولاي أن   يخلفني في جميع أهلي ومالي

فهو أرحم جل من بهم   وهو ينيلني غاية الآمال

وختمنا الزيارة بشمس المغرب التي ليس لمشرق أنوارها ومغرب بغية الأمل وملتقى القاصدين بالخلق الكامل بضعة الرسول ومنتهى السؤال مولانا أدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل.

أعاد الله على جميع المسلمين من بركاته واختص هذا العبد الفقير بأوفر نصيب منها في سكناته وحركاته ليكون الركوع في ذلك المسجد الأعظم، والخضوع بين يدي ضريحه المعظم هو آخر العهد تلك المدينة المباركة التي ليست في مزاياها ومآثرها بمشاركة.

ثم قصدنا زيارة رجال باب الفتوح، والدخول في منيع حرزهم وختمنا بالإمام الأكبر أبي الحسن علي ابن حرزهم وخرج لتشييعنا جماعة من أصحابنا الأعيان، وأوليائنا الذين يقصر عن وصف جلاهم ورصف علاهم الإيضاح، والبيان فمنهم من ودعنا باب الفتوح، والدموع منسكبة انسكاب الفتوح.

ومنهم من فارقناه في أواسط الزيتون وسحائب المدامع تجري فتزري بالعارض الهتون.

ومنهم من حملته المودة على الوصول إلى عنق الجمل، ولم يعبأ في جنب المحبة بما تكلف من مشقة الطين، والوحل /٤٧/ وحل فكان للبين بين هؤلاء القوم يوم، وأي يوم يوم وافي بموقف من أعظم المواقف، وترك المحبين ما بين جالس من جزع البين وواقف سكروا بمدامة الفراق وهاموا بسلامة النوى واختاروا إدامة الارتحال، والنوى عن ملازمة النوى في جنب الوجد الذي نويناه، أو هو أكمل وجه، وأفضل نوى فيا ما أشح النفوس بنفيس تلك الجموع ويا ما أسح الآماق بسحائب الدموع في ذلك الموقف العظيم الذي وقفت دون وسفه اليراعة وقف آثار الكل بالنسبة إليه كل فصاحة وبراعة موقف مدت فيه إلى الله تعالى أيد التذلل، والضراعة وحسر المشتاقون فيه مساعد الإلحاح في الطلب وذراعه.

وارتفعت الأصوات بالدعاء، والابتهال وإنها جبل الصبر الشامخ لعظيم جزعه وانهال، وتوالت من النفوس زهراتها واستولت عليها شدائدها وصراتها واستعبرت

العيون فلا تسل عن سيل سحاب العبرات واستعبرت الأعيان عن ذلك الموقف حتى قصرت العبارات عن تلك العبرات.

فيا له من يوم غبط فيه المقيم الراحل، وتمنى أن يطوي معه ولو على مقلتيه نشر الماحل وجعل يتلو شوقاً لتلك الأماكن التي لا تزال تزداد تشريفاً، وتعظيماً يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظاماً.

ويا له من مشهد استحلت لنفوس فهي مرارة الفراق وحلفت أن لا يميل وقتها لشراب الوصل ولو جاؤوها بألف راق:

فلا تعذلوا، وتعجبوا من مقالها ... فإن الذي قالت هو الكلم الفصلُ

لأن فراقا مثل هذا وحقكم ... وصال لأن القصيد منه هو الوصلُ

ألم تَكُ فارقنا البلاد، وأهلنا ... لوصل الذي في الكائنات هو الأصلُ

عليه صلاة الله، ثم سلامة ... ورضوانه ما اهتز في المعرك النصلُ

فلما سمع الأصحاب هذه الأبيات المرتجلة طفقوا يعجبون من البديهة، والعجلة ويستحسنون معانيها الغريبة ومبانيها الفائقة، والتزاماتها الغريبة، ثم أخذوا يتناشدون من الأشعار ما رق وراق ويتذاكرون فيما قيل في مثل هذا اليوم من أيام الفراق / ٤٧/ فمن منشد قول من لم يجد لسقام الوجد من منصف، ولا راق:

لا تسألني عما جناهُ الفراقُ ... حملتني يداه ما لا يطاقُ

أين صبري، أو كيف أملك دمعي ... والمطايا بالظاعنين تُساقُ

قِفْ معي تندبُ الطلولَ فهذى ... سنة قبل سنها العشاقُ

وَأعِدْ لي ذكر الغُوير فكم مال ... بعطفي نسيمه الخفاقُ

في سَبيلِ الغرام ما فعلت بالعشا ... شَقين القُدود، والأحداقُ

يوم ولت طلائع الصبر منا ... ثم شنت غَاراتها الأشواقُ

وَمن مستحسن قول بعض الناس لما فيه من الجناس:

ودعــتكم فرجعــتُ بعــد وداعكــم ... نــدماً اعــض مــن الفــراق أنــاملي

أمــا التصــبر بعــدكم فعدمتــه ... ومــن الأشــواق ولغــرام أنــاملي

ومن مجيد قول القائل المجيد:

لــو كنــتُ سَــاعة بيننــا مــا بيننــا ... ورأيــت كيــف تكــرر التوديعــا

لَعلمــت أنَّ مــن الــدموع محــدثاً ... وعلمــت أن مــن الحــديث دموعــا

ومن مائل إلى قول القائل:

ولمــا بــدا التوديــعُ ممــن أحبــه ... ولم يبــقَ لا أنْ تُــزم الرواحــلُ

بكيــتُ، وأبكيــتُ العــواذل رحمــة ... وحسـبك مـن تبكـي عليـه العـواذلُ

ومن جامع جميع الأوطا في تحول من بان عنه الفه أوطار:

حِلوا عُقود اصطباري عندما رحلوا ... وفي الخمائــل حلــو مثــل أمطــاري

إنَّ المنــازل قــد كانــت مَنــارةً إذ ... بأثوابهــا، وهــي أوطــاني، وأوطــاري

ومن قائل إن الرأي الصالح هو إنشاء وقول المعافري محمد بن صالح:

ودعــتُ قلبــي ســاعة التوديــع ... وأطعــت قلبــي، وهــو غــير مطيــعِ

إن لم تُشــيعهم فقــد شــيعتهم ... بمشــيعين تــنفسي ودمــوعي

وَمِنْ سَاكن حركته عوامل لأشواق فملأ بقول القائل الأسواق:

كيــفَ طابــت نفوســكم بفــراق ... وفــراق الأحبــاب مُــرُّ المــذاقِ

وعلمــتم بلــوعتي وصــبابا ... تي ووجــدي وزفــرتي واحتراقــي

لــرثيتم للمســتهام المعنــى ... ووفيــتم بالعهــد، والميثــاقِ

ومن قائل هل من صائغ مثل قول ابن الصائغ/ ٤٨/

قـد أودعـوا القلـب لمـا ودعـوا حرقـا ... فظـل في الميـل مثـل الـنجم جيرانـا

راووقـه يسـتعيرُ الصـبر بعـدهم | فقـال أني اسـتعرت القلـب نيرانـا

ومن أسوان فاضت عينه فيضان السواني فتمثل بقول القاضي الرشيد الأسواني:

رحلـوا فـلا خلـتِ المنـازلُ منهم | ونـأوا فـلا سَـلتِ الجـانحُ عـنهم
وسروا، وقـد كتمـوا الغـداةَ مسـيرهم | وضـياءُ نـور الشـمس مـا لا يكـتم
وتبـدلوا أرض العقيـق عـن الحـما | رؤيـا عيـوني أي أرض تيممـوا
نزلـوا العُـذيبَ وإنـما هـو مهجتـي | رحلـوا، وفي قلبـي المتـيم خيمـوا
مـا ضرهـم وودعـوا مـن أودعـوا | نـار الغـرام وسـلموا مـن أسـلموا
هُـمْ في الحَشَـا أن أعرقـوا، أو أنجـدوا | أو أيمنـوا، أو أشـملوا، أو اتهمـوا

ومن مشتاق يردد قول من نزع لأحبته واشتاق:

غِبْـتم فـما لي في التصـبر مَطمـعٌ | عظـم الجـوى واشـتدت الأشـواقُ
أشـتاقكم وكـذا المحـب إذا نـأى | عنـه أحبـة قلبـه يشـتاق

ومن مفرق في بحر دمعه السائل مغرم بقول القائل السائل:

ولي فـؤادٌ مـذ نـأي شخصـهم | ظـل كئيبـاً مُـدنفا موجعـا
وَمقلـةٌ مهـما تـذكرتهم | تـذرفُ دمعـا أربعـا أربعـا
ولـيسَ لي مـن حيلـة كلـما | لجـت بي الأشـواق إلا الـدعا
أسـأل مـن ألـف مـا بيننـا | وقـدر الفرقـة أن يجمعنـا

ومن مشوق غلبت العبرة فما زاد على أن توجع، وتألم، وأنشد بلسان حاله، وما تكلم:

ومُـودع يـوم الفـراق بطرفـه | شَرِقٌ مـن العـبرات مـا يـتكلمُ
مُتلفـتٌ نحـو الحبيـب فغصـةٌ | لا يسـتطيع وداه فيسـلمُ

وَمِنْ دَاعٍ إلى قوله من اعتبر حروف الجمع، والوداع:

كنا جميعاً، والدار تجمعنا مثل حروف الجمع ملتصقة

واليوم صار الوداع يجعلنا مثل حروف الوداع مفترقه

ومن مصبر قلبه بقول من اعتبر من الوداع قلبه:

إذا رأيت الوداع فاصبر ولا يهمنك البعادُ

وانتظرِ العودَ عن قريب لأن قلب الوداع عادوا / ٤٩/

ومن منتصب ترك الوداع مستدل بقول من ليس له بطالب، ولا داع:

عَاقني عن حلاوة التشييع ما أرى من مرارة التوديعِ

لم يقم أنس ذا بوحشة هذا فرأيت الصواب ترك الجميعِ

ومن، واله ناسج على منواله منشد قول الزين بن الوردي في تقوية لتصحيح تلك الحجة، وتنمية لتوضيح هاتيك المحجة:

مَنْ كَان مرتحلاً بقلب محبة يوما فإنك راحلٌ بجميعي

وأنا الذي تَركَ الوداع تعمدا مَنْ ذا يطيقُ مرارة التوديع

ومن مخالف لهذا المذهب قائل أن عكسه هو الطراز المذهب محتجا بقول من أقام البرهان من فرسان ذلك الزمان:

أرأيتَ من يرضى بفرقة ألفه أنا قد رضيت لنا بأن تفرقا

حتى أفوزَ بقبلة في خده عِنْدَ الوداع ومثلها عند اللقا

إلى غير ذلك من الإنشادات التي لست أستوفيها ولو وضعت مؤلفا مستقلاً فيها غير أن آخر ما سمعته من الإنشادات بين هؤلاء السادات قول من فاضت دموعه لما فارقته أحبته وودعته جموعه:

أودعكم، وأودعكم جناني وأنثر دمعنا مثل الجُمانِ

ولو نُعطي الخيار لما افترقنا ولكن لا خَيَار مع الزمانِ

وقد تكلفت القريحة الخامدة فيا وصلت وإن صالت، وقالت تتكلف الاعتذار لأجبتها حتى قالت:

نُودعكم ونودع اللب، والقلبا	لديكم إيا من لم يزالوا لنا قلبا
وَنَسألكم أن تعذرونا، وتسمحوا	ولا تعذروا كلا، ولا تكثروا عتبا
وما كانَ هَذَا البينُ، والله عن رضي	ولكنهُ وَصْلٌ نطيع به الربا
وفي ضمنه زيارة المصطفى الذي له	خلق الله المشارق، والمغربا
عليه صلاة الله ما ذَرَّ شَارق	وما طلعت شمس فأذهبت الشهبا

ولما لم يبق إلا التوديع ودعناهم، وأودعناهم من عظيم الشوق.

ما أودعناهم فرجعوا ودموعهم تعثر في أذيال الفرقة وسرنا آمنين في أعظم رفقة، وأكرم فرقة، ولما أدبر الناس أقبل على الأخ الذي لست لعهده ومحبته بالناس، والصحيب الذي لم تزل مودته/ ٥٠/ في القلوب راسخة، والأود الذي لم تبرح أي محبته لكل محكم من الوداد ناسخه الفقيه الأستاذ النبيه، والأديب الذي ما زالت آدابه اللطيفة تبنى عن نباهة ابن النبيه من لا أنسى محبته وعشرته عيشتي وبكوري صاحبنا ومحبنا الأعز أبو العباس أحمد بن محمد البكوري أعز الله جنابه وكفاها أنابه فناولني رقعة لأقوم بحقوقها، ولا استوفيها ففتحتها فإذا هي مكتوب فيها:

قد سِرْتَ يا ابن الطيب الطيب	لزورة البيت من المغربِ
في رِفعة موصولة أبداً	ورتبة تعلو على الرتبِ
لا زلت تر في سماء العلا	حتى ترى في الركب كالكوكبِ
وربنا يردك في نعمة	كي لا يرى الغرب بلا طيبِ

والسلام عائد عليك وبعد منصرفه عني بعث لي قصيدة أخرى ما زلت أعدها غنيمة وذخراً أجاد في صنيع مبانيها ما شاء، وأبدع في بيدع معانيها الإنشاء، وأطال فيها القول،

وأطاب وملأ العيبة، والوطاب بمرسل حديثها المسلسل المستطاب ونصها بعد الحمد لله، والصلاة، والسلام على رسول الله:

تأهبَ فركب الحجّ قَدْ كَادَ يرحل — أيا من له شوقٌ على الشرق يحملُ
إذا ما حدا الحادي لطيبة معلنا — بدت جمرةٌ بين الجوانح تشعلُ
ومذ ودعوني ودعت مقلتي الكرى — وقلبي على جمر الغضا يتململُ
هنيئاً لذلك الركب كم حاز من العلا — فصحبته ذخر لمن هو يعقلُ
ولم لا وفيه العالم العلم الذي — أفاض عليه الله ما كان يسألُ
محمدٌ بن الطيب الطيب الذي — له همةٌ عنها العوالم تنزلُ
له الفقهُ، والتوحيد طوع يمينه — ونحو، وتفسير به يتفضلُ
وقد صارَ في المعقول في الدهر عمدة — يقسم أجزاء القضايا فيعدلُ
وإن جئته تشكو إليه عويصة — بدتْ لك من عَرفانه تتذللُ
تَصرف في علم البديع حقيقة — فأنسى صفي الدين ما كان يفعلُ
وأنساني الفتح بن خاقان نثره — بِطُرْس، ومن نثر الحريري أجملُ
وفي الشعر، والترسيل ما زال قدوة — إذا قال خلت السحر في القول
أمانا بأي من نتائج فكره — لقد أذهلت من لا أخاله يذهلُ
بخط به أُنسي ابن مقلة خطه — إذا ما رآه قال خطي مشكلُ
أرتنا زهيراً وامرؤ القيس، والفتى — لبيد، أو مِنْ حَبْكِ ابن زيدون أفضلُ
شربتُ بها كأس البلاغة مترعا — فملت بها وجدا كما مال مثملُ
فقلتُ إِذَا قالت حَذْام فصدقوا — مقالتها فالصدقُ للمرء أعدلُ
فَكَمْ من قصيدة عنده وخريدة — تُسليكَ عن حُور الخيام، وتعزلُ

فـلا زِلـتُ أبغيــة واهتــفُ باســمه وأمدحـــه لـــو أن نظمـــي يَســـهلُ

أخـي وصـفيي بـل وشـيخي وسـيدي أسـائل عنـه الـريح إن هـب شَـمألُ

وأنـــدب أطـــلالاً بهـــا كـــان جمعنـــا عـلى نظـم آداب بهـا السـعد يكمـلُ

فيـا أهـل سـلع، والنقـا وديـار مـن بيارقـة الخيـف اسـمعوا النصـح واقبلـوا

إذا مـا أتـى ابـن الطيـب الـدهر عنـدكم فقومـوا عـلى سـاق إليـه وعجلـوا

يمينـا فـما في الشرق مـن هـو مثلـه ولا أحـدٌ فـيكم عليـه المعـولُ

فهـذا الـذي إن قـال قـولا أتـاكم بسـحر وإن مـا رام شرحـا يطـولُ

سَـلوهُ عـلى نظـم الفصـيح لثعلـب يُـريكم لـه شرحـا بـه الشرق يخجـلُ

وإن لاحَ أسـافر اللشـام أراكـم شَـواهد تـرضى في الخطـاب، وتقبـلُ

ومهـما بـدا سـمط الفرائـد فـاغنموا فوائـدَ فـالعلمُ فيـه مكمـلُ

وإن يبـد تحريـر الروايـة فـارتووا معـين مَعانيـه التـي تتسلسـلُ

وَكَـمْ لَـهُ في التلخيص تلخيصُ شَـاهِدٍ غـدا كُـلُّ عَقْـلِ عـن معانيـه يعقـلُ

إلى كتـب لا أسـتطيع حسـابها غـدت في فنـون العلـم طـرا تُفصـلْ

وإن رمـتم سَرد الحـديث فعنـده أحاديـثُ مـا فيهـا حـديث معطـلُ

فمـن كـان ظمآنـا إلى العلـم مـنكم فهـا هـو ذا ابـنُ الطيـب اليـوم منهـلُ

عَلـيكم بـه لا تقربـوا عـوض غـيره ففيـه لكـم كـل المنـا، والمؤمـلُ

عليـه سـلام الله مـا فـاح عرفـه بشرق، ومـا سـار الحجـيج المفضـلُ

ومـا أنشـد المشـتاق مـن كلـف بـه خلـيلي ركـب الحـج قـد كـاد يرحـلُ

قلت في قوله سلوه الأبيات الخمسة تلميح إلى ذكر بعض مؤلفاتي، وتمليح بشيء من مصنفاتي فأشار بالبيت الأول على شرحي لنظم مالك بن المرحل الذي لبس من حلل

البلاغة كل وشي مرحل، وهو شرح حافل/ ٥٢/ سميته (موطئة الفصيح لمواطأة الفصيح»، وقد بالغ أصحابنا في البناء عليه وقرظوا عليه من الآداب ما هو جائر بنسبته إليه وصياتي بعض أقوالهم البديعة الرائقة في مدح ذلك الكاتب، والثناء على معانيه الفائقة ولمح بقوله وإن لوح أساف، واللثام البيت إلى كتابي المسمى (بأسفار اللثام عن محيا شواهد ابن هشام).

وبقوله ومهما بدا سمط الفرائد البيت إلى كتابي المسمى (بسمط الفرائد فيما يتعلق بالبسملة، والصلاة من الفوائد).

وبقوله وإن يبد تحرير الرواية البيت إلى كتابي المسمى (بتحرير الرواية في تقرير الكفاية).

وبقوله وكم له في التلخيص التي إلى كتابي الموسوم (بتخليص التلخيص من شواهد التلخيص).

وقد اشتملت هذه القصيدة الفائقة على أنواع من البديع بديعه وحازت من أجناس الجناس مستحسنة وبديعه مع انطلاق تلك القريحة القوية وانسجامها وورود معانيها من معين لمودة إذ لا ترتاح الأرواح لغير أنس جامها وصدور هاتيك الأمداح عن صدر صادق المحبة وقلب قلب بين شغاف الشغف شغافه وحبه.

وجمع أوصاف تمام العهد، وأصناف دوام الود فلم يترك منها مثقال حبة ومحبة خالصة ليست در على خالصة قضت على هذا المحب أن تتولد عن فكرته هذه الخريدة الحائزة من جواهرها الثناء كل فريده.

وإن كنت لست بأهل لذلك، ولا مغتر بها هنالك بل أعتقد، والله رقيب وشاهد أني على النقيض من جميع ما تضمنته من الأوصاف المديحية هاتيك الشواهد فإن أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس.

فنسأل مولانا سبحانه أن يجعلنا فوق ما يظنون، ولا يؤاخذنا بما يقولون كما نسأله تعالى أن يكافئ هذا المحب على نيته ويكون له في سره وعلانيته ويجعل محبته لأشياخه غنيمة له وذخراً وينفعه بطويته دنيا، وأخرى بقوته وحوله وكرمه طوله.

ولما توجهنا إلى طريق عنق الجمل ألفيناها لا تسلك بحافر، ولا جمل جمعت الطين، والأوحال ومنعت الرجال، والرحال فأخذنا في ذات/ ٥٣/ اليسار رغبة في اليسار.

وعدلنا عن الطريق المألوفة عن اليمين رجاء السلامة بسلامها، والمعونة بكلامها، والبركة، والقوة، واليمين.

ولم نزل سائرين ما بين تلال وهضاب وشماريخ لا تسأل عن يسل الشماريخ، ولا عن هضب الهضاب.

وكلما وافينا شعبة، أو شعبا ألفينا بنواحيها من الأعراب قبيلة، أو شعبا فيبادرون إلى تلقيا باللبن، والحليب ويقولون مرحبا بزوار الحبيب فازددنا نشاطا بتلك الفالات الحسنة ورأينا في الانفراد عن الطريق الأخرى حسنة، وأي حسنة.

وبعد النزول انحدرنا لأول الطريق، وأدركنا من سلكها في أوحاله غريق فلما سلمنا عليهم أخذوا في التعجب، والارتياب حيث أتيناهم أنقياء الثياب ونزلنا بالنخيلة لنتطهر بواديها لصلاة الظهرين ونجلوا عن القلوب بأداء تلك العبادة كل رين، ثم جَدَّ منا تسياره لندرك من تقدمنا من السيارة، وما زال الناس يجتمعون بعشائرهم ويجمعون لملاقاتهم ما يستبشرون به من بشائر، وكان أصحابنا تقدموا في الرعيل الأول فلم يدرهم حتى أشفى الشفق على الغروب وعول فألفيناهم نزلوا الغور ما بين نجد وغور فنزلنا متأهبين لصلاة العشاء ووجدناهم جادين في مناولة صلاة العشاء فبتنا هنالك حتى طلع الفجر واغتنمنا ما في صلاته من المثوبة، والأجر.

وارتحلنا صباح الخميس مستمدين العون من مولانا ومادين له أيدي الشكر، والحمد على ما أولانا فظللنا سائرين في طريقة ارتحلت عنها عيون الأمطار وإن غادرت من الغدران، والعيون ما لا تستغني عنه الأوطار:

ووافيتُ ما بين الظهيرة، والعصر ضريح إمام العارفين أبي بكرِ

وجددت في الوادي الطهارة سائلاً من الله تطهيري من الذنب، والوزرِ

وصليت فيه الظهر وارتحت ساعة وصليت أيضاً فيه ركعتي العصرِ

وأقبلتُ أدعو الله جل بجاهه ييسر لي في كل ما ارتجى أمري

ويمنحني التيسير منه تفضلا فربي تعالى يبدل العسر باليسرِ

إلى أن أرى في مكة متمايلا تمايل زهو الوصل لا ميلة الكبرِ/ ٥٤/

ومن بعدها أمسى بطيبة طيبا أجار إذا جاورت طه من الجورِ

أعفر خدي حول تربة أحمد فترب رسول الله أزهى من التِّبْرِ

وطيبة كل الطيبات بطيبها تفوح فلا تسأل عن العنبر الشجر

فنسأل مولانا بجاه محمد وطيبة، والبيت الحرام وبالحجرِ

يَمُنُّ علينا بالوصول إليهما جميعا بلا قطع يكون، ولا هَجرِ

ويرفد هذا الوفد من فيض رفده بما أملوا في ذا المقام من الخيرِ

على أنْ يَفوزَ وافِ مني بمناهم ويمنحُ كُل منهم رابح التجرِ

وَيسعدهم في طيبة طيب سعدهم بزور خير العالم النائل السبرِ

مُحمد المحمود في الكتب كلها بألسن أهل الأفق، والبحر، والبرِ

وإذا مَدَحَ المولى الكريم بنفسه سنا خلقه الممدوح في محكم الذكرِ

فماذا يقول المادحون بأسرهم ولو ملأوا الآفاق بالحمد، والشكرِ

عليه صَلاةُ الله مَا حَنَّ شائق إليه، وما أعيت مدائحه فكري

فلما قضينا الأرب من الراح واقتضينا من الإجابة ما ملأ الراحة أخذنا في الصعود لعقبة بني مجارة الكبيرة المسافة الكثيرة الحجارة فأدركنا الليل قبل الانحدار منها وبتنا في

رأسها مع من لم يمكنه الانفصال عنها وارتحلنا منها صباح الجمعة لندرك شيخ الركب، ومن تقدم معه ودخلنا مع إشراق الشمس في حرز الشيخ محرز، وتوجهنا لزيارته، والدخل في حصنه الأحرز:

وجئت بكل ما أعي، وأعوز	أؤم به مقام الشيخ محرزْ
وأنزل عنده آمال ركب الحجيج	فلا يخاف، وليس يشمأزْ
فإن مقامه في قطر مازا	لا دوار الرجال مازال ركزْ
فيا مولى الموالي هذا وفد	نوى البيت الحرام، وما تشمزْ
وأنت أمرت بالدعوات ربي	وأنت أجل من أنجى، وأنجزْ
فنسأل نداك الرحب وصلا	إلى الحرمين توصيلا معززْ
بحق محمد خير البرايا	وأفضل من تسامى، أو تعززْ
وَمَنْ فاق الأنام بلا اشتراك	وحاز المجد أجمعه، وأحرزْ
عليه الله صلى كل حين	وسلم ما انثنى غصن، وما اهتزْ/ ٥٥/
ووالى بالرضى الأصحاب طُرا	وآل المطصفى، والشيخ محرزْ

ونزلنا تازا ضُحي ذلك اليوم، وأقمنا بها لاجتماع جميع القوم، ولما قرب الزوال توجهنا للمدينة لنغتنم بها صلاة الجمعة ونال من فضل الله الخير أجمعه فقصدت مسجدها الجامع الذي هو لأشتات المحاسن جامع مسجد أربى على جل مساجد المغرب وحاز كل صنيع بديع ووشي مغرب وانفرد بالثريا التي فات في سناها الثريا، والقبة المحرابية التي لم تزل على سائر القباب رابية، والمنبر الذي لم تزل درر أعواده المقلدة على غرر أجيادها أزهى من العود، والعنبر.

فأي مسجد أحرز هذه الثلاث الخصال، وقال المؤرخون أنه فاق بها على الآفاق وصال إلى فساحة الساحة وسعة الأفنية رحابة الرحاب وإتقان الأبنية وغرابة صحنيه

الصغير، والكبير.

وغير ذلك مما يقصر دونه التعبير وبقيت في زيتون الصحن الكبير أنتظر الصلاة، والخطبة واستدفع بحضورها ريب الزمان وخطبه حتى خرج من بيت الخطابة رجل تدل ذاته على أميته وخطبته على عاميته فقضينا تلك الفريضة، والقلوب من اندثار العلم وانقراض العلماء مريضة.

ثم خرجنا لنجول في تلك الأرض ونقضي من الحوائج السفرية ما يتأكد تأكد الغرض فألفيناها بلدة حصينة متمنعة رصينة نصبت على يفاع ورافعت بين الجبال أي الارتفاع فكانت قلعة لانتشار عواصف هبوب الأرواح وانقباض النفوس من الغرباء، والأرواح غلبت عليها أحوال البادية دون الحاضرة، وتيسرت لأهلها أسباب الفلاحة فهي لديهم بادية حاضرة.

وقد رأينا في أطرافه وواسطها من آثار الاندثار، والخراب وعاينا خلال ديارها من دمن السرجين، والتراب ما يدل على أن أملاكها فارقت ملاكها وبان بين بانات ديارها للفاسد وغراب، وأي غراب.

فلا بدع أن أعرضنا عن أوصاف القاطن بها، والساكن لأن البيت يستدل على ذلك بما أومأنا إليه أوصاف المساكن.

وفيها من المساجد ما فيه غنية للراكع، والساجد، ومن المزارات، والمشاهد/ ٥٦/ ما ينتفع بقصده، والوقوف عليه للغائب، والشاهد، وقد زرنا من أمكتنا زيارته من مشاهدها كمشهد سيدي محمد بن الجبش وسيدي عزوز وسيدي واضح وسيدي علي الجيار وسيدي أبي الفتوح وسيدي موسى الجيلالي وسيدي علي الدرار وسيدي عبد الله متعدداً في أمكان منها، وفي خارجها مشهد الإمام أبي الحسن سيدي علي بن سري وسيدي الخفاف.

وغيرهم ممن لم نعرف اسمه نفعنا الله تعالى بهم، وأعاد علينا وعلى جميع المسلمين من بركاتهم آمين.

ولقينا بها جماعة من أصحابنا الذين اتخذوها وطنا وصيروها قعد مفارقتنا عطفا وسرنا فوصلنا مع الإصفرار بالشريعة، وقد أبدى لنا في زمان الربع من أفنان الربيع ريقه وريعه.

وسرفا منها فبينها في أرض عارية من النبات خالية من البنين، والنبات.

وارتحلنا يوم الثلاثاء فسرنا حتى وصلنا وادي دبدوا، وهو جبل عظيم لم تزل العمران عليه تبدوا فيحدر من أعلاه ماء كثار لا يبالي ورده جماعة، أو كثار فأخذ الناس في الاستسقاء، والطهر، وأداء صلاة العصر بعد الظهر.

ثم تجاوزنا ذلك الوادي وبتنا بقرب فم بلزوز آمنين من جد، والعوادي.

وارتحلنا يوم الأربعاء حادي عشر رجب ودخلنا فم بلزوز الوادي العظيم الذي يقضي من شدة تمنعه العجب استدار كالأفعوان بين الجبال يمينا وشمالاً، وتعمق بين الأكام فلا تكاد تلقى به جنوبا، ولا شمالا.

وفي أثنائه ظهرت لنا هضاب عالية قيل لنا أنها بها ضريح الإمام المشهور بالكرامات العزيزة الغالية أبي الحسن أبو رضا علي بن المساح جليل العطيات الحليم المسامح ثمال الوفود القاصدين جنابه ومكرمهم طرا بأسنى المنائح فتوجهنا بالنية إليه إذ لم يتيسر لنا الوقوف عليه لانحرافه عن صوب الطريق وعدم الاقتدار على ارتقاء جبله الشاهق لضعف الطريق وقلة الرفيق في ذلك الفريق.

وسألنا الله تعالى بجاهه أن يبلغ المقاصد من كل قاصد ويعم بسببه الحاضر كل باد/ ٥٧/ وحاضر، وهو سبحانه يجازي ببلوغ الأمنيات على النيات لأنها ركن الزيارات فلا تتوقف على مباشرة المزارات، ثم توجهنا لدخول الظهرة فألفيناها تفصم عُرا سالكها، وتقصم ظهره أرض تكل دون وصفها الأقلام، وتعيي دون نصفها الأورام، وتضل فيها القطا، وتقصر عن أدناها الخطا عرضت وطالت وصالت على كل تيهاء وطالت وخلت حتى لا تكاد تلقى بها الأنيس.

ولو التمسته من اليعافير، أو العيس وبتنا بقرب جبل يسمى القارة الشارفة في أوائلها سائلين من الله أن يؤمننا من غوائلها.

وارتحلنا يوم الخميس، وأغصان رياض الزهور السرور علينا تميس فظللنا بوادي بني مطهر الذي هو مجلي لجلاء الخصب، والكلأ ومظهر وصلينا به صلاة الظهرين فظفرنا بغاية الصلاة، والقرب واستقينا من مائه النمير الذي لا تكدره الدلاء، ولا تنقصه القرب، وتجاوزناه بقريب وبتنافي نعمة صلى الحزين وقطرب الغريب.

وارتحلنا منه وسرنا حتى وصلنا المنقوب بالقاف المعقودة، وهو واد عظيم استقلت عقده لما أثبت الله عقوده غير أن ماءه كاد أن يعجز عن تكميل الأوطار لولا غدران غادرها فيه الأمطار، وتفرق الناس في كل ناحية يحفرون فيها فيجم لكل طائفة من الماء ما يكفيها حتى اكتفى الناس كلهم وذهب عنهم تعبهم وكلهم.

ثم أدينا الصلاة وقتنا، وتجاوزنا ذلك الوادي وبتنا وارتحلنا نجد الجادة بامتطاء الآكام وانتعال الغيطان حتى أتينا على بيان السلطان، وهي آبار عديدة ذات مياه أبحرها وافرة مديدة فاستقى الناس ما يكفيهم منها لعدم استغنائهم عنها، ثم سارت الإبل أمام، والخبير يتقدمها كالإمام وبقينا نحن خلفها، وتضع ثدي الراحة ونسمر خلفها حتى صلينا الظهر، والعصر وعصرنا النهار من الهاجرة أي عصر وسرنا نقص أثر الركب السابق ونعمل في الوصول إليه نص السوابق فلحقناه بعد المغرب، وقد ضرب الخيام أي مضرب فبتنا في عيش هنيء ونعم مطرب.

وارتحلنا قاصدين أبا الضروس المحفوف/ ٥٨/ برقيق الرمال ودقيق الضروس فنزلنا الضحى ناوين إقامة ذلك اليوم لاستراحة المواصل، والقوم، والاستعداد من مائة للمفازة التي استقبلناها أمام إذا لم يكن لنا بالماء فيها إلمام وارتحلنا خائفين من العطش أشد الخوف إذ لم يكن لنا بحصول الماء تيقن، ولا خوف فكان الأمر بخلاف ما ظن الناس وامتن علينا مولانا تعالى بيوم لست لكثرة برده وبروده بالناس من فضل الله سبحانه وبركة رسوله عليه السلام التي لم تزل على الآفاق فائضة سبحانه.

فظللنا سائرين غير خماص، ولا ظماء وبتنا على غير ماء وارتحلنا نؤم عين الحسنى فوصلناها، وقد جردت سيوف مائها اللجين ونزلناها ناوين الإقامة لنستريح في نعم تلك الخصابة ونستقي من معين تلك المقامة.

وارتحلنا منها فبتنا في القصاع، ومنه أصبحنا على القصيعات بالتصغير، وهي نقر صغيرة حول حجارته غدير صغير فألفينا المطر قد غادر بغديره مياها قليلة تساعرت لشربه الإبل الكليلة وسرنا حتى قربنا من عين الحجر وبتنا ما بين أذخر وذخيرة وجليل وجليلة وارتحلنا فأصبحنا ضحى على عين الحجر فألفينا من أثرها قد منع الخراب عمرانها وحجر.

وحثنا السير فوصلنا ظهرا لقرية المشرية فتعرض أهلها للحجاج، وأخذوا معهم في البيوع، والأشربة، وألفينا فيها من السمن، والأغنام ما فيه غنيمة الأنام وزرنا فيها روضة الشيخ محمد العمري الملقب بمولى الخلوة وروضة الشيخ عبد الرزاق المجلد في تلك الخلوة نفعنا الله وجميع المسلمين بتلك المزارة وغفر لهذا العبد المذنب مآثمه، وأوزاره.

وخرجنا بعد قضاء المآرب لبابها فأدينا من دين الفرائض ما نسأل الله أن يجعله من خالص العبادة ولبابها وسرنا حتى مالت الشمس للاصفرار ونزلنا بحكم الاضطرار وارتحلنا فظللنا سائرين حتى أذنت الشمس بالمغرب فنزلنا مسرعين لأداء صلاة المغرب فبتنا بواد قبيل النخيلي بعدما أشرف على الإشفاء في الوصول الشرفة/ ٥٩/ رجلي وخيلي.

وارتحلنا فأتينا النخيلي، وقد أشرق الصباح، ولا إشراق الوجوه الصباح، وهو النخيلي تصغير نخل التمر آخره ياء نسب.

ورأيت في بعض الرحل أنه مخيليف بإبدال النون ميما وزيادة الفاء بعد المثناة التحتية وكأنه تصغير مخلاف، وهو الكورة، ومنه مخاليف اليمن كما في القاموس وغيره.

وبعضهم يسميه نخيل تصغير نخل من غير ياء، ولا تعريف، وهذا الموضع فيه يجتمع طريقة الركب الفاسي مع السجلماسي وسرنا منه حتى تجاوزنا واديا عظيماً يسمى وادي الطرفا وبتنا نسامر من المواكب طرفا، ومن الكواكب طرفا.

وارتحلنا فأصبحنا ضحى على وادي الأشبور، وهو واد عظيم لا ماء به نفيد عن السمك، والأشبور كثرت في جوانبه أجناس النبات، والشجر وكبرت في نواحيه أساس الجبال، والحجر اكتنفته شواهق الجبال وحف بأصوله من معادن الملح ما لم يخطر ببال فأخذ الناس يأخذون من هاتيك الملك، ولم يعرجوا على مائه الأجاج الملح غير أن به عينا أقرت بمعينها من الركب عينا اكتفى بما بها الحجاج عن غيرها من الماء الأجاج.

وسرنا نحواً من ثلاثة أميال بين تلك الأطواد، ثم أشرفنا على مدثر خرب لم يبق إلا آثاره بعد ذلك الواد وبعد مجاوزة ذلك المدثر ألفينا معشراً من الأعراب ينتظرون الحجاج، وأي معشر فطلبوا من الشيخ النزول لإقامة السوق فما أجابهم إلا، والناس قائمون على سوق فتجاوزناهم حتى توسطنا شماريخ البور وبتنا فأضحينا بعين ماضي بعد أعمال السير الحثيث الماضي فأنخنا فيها الرحال وحللنا السحال، وأخذنا نتنعم في مائها العذب الفرات الذي هو أزهى من النيل، وأشهى من الفرات عم ماؤها جميع تلك الأرجاء بالانتفاع وشمل القاع، واليفاع.

وقامت بين الحجاج، وأعرابها سوق عطفه لا يعبر عن إغرابها، وقد حاز أهلها من كرم الأخلاق، أو في حظ وافر خلاق أكثرهم للقرآن حافظ وبالعرفان لافظ.

وأما نساؤها فإنهن من أزهر النساء سناء، وأزهارها/ ٦٠/ وأبهرها سناً، وأبهاها عيون فواتر أمضى في القلوب من السيوف البواتر وقدود زواهر أزهى في العيون من الغصن الزاهر، وقد بالغ أرباب الرحل في مدح ذلك الجمال ومدوا أطناب الإطناب في وصف ذلك الكمال فلذلك صبا القلب لذكر ذلك فقال لنا مال:

عَـيـنُ مـاضي بهـا عُيـونَ مـواضي فَـاعلاتٍ فعـلَ السـيوف المـواضي

والتفــاتُ الغــزال لمــا غــزا لي صــائلاً صــولة الأســود المــواضي
وَقُــدود تزهــو إذا قُــدت القلــب ازدهــاء الأغصــان بــين الريــاضِ

غير أنا أخبرنا أنهم لا يستعملن الماء في الاغتسال لأنه يضر بأبدانهن مهما قطر عليها وسال، وقد ورد علينا سائل بين موجب ذلك، وأوضح عذره قائلاً أن ذلك الماء يسقط حمل الحوامل ويذهب من الأبكار بالعذرة وكذا أجبنا بأن عدم الاغتسال بها يخف في حق العذارى، والحوامل فقط لهذه الضرورة الكبرى.

وأما غيرهن من الفارقات البطون، والأيامي فلا يعذرن بترك الاغتسال إذ لا ضرورة تلجئهم لذلك، والله سبحانه أعلم.

وارتحلنا من عين ماض بائتين على التخفيف كل مستقبل وماضي وسرنا حتى قابلنا بخموت، وهي قرية حافلة ما زالت في جلابيب السعة، والرفاهية رافلة اشتملت على بساتين وجنان وحدائق أحدقت السرور بكل جنان، ولم ندخلها لانحرافها يساراً عن الطريق لكن خرج من أهلها فتلقيناهم من فريق فبقي الركب مع هؤلاء الأعارب ريثما قضوا المآرب وسرنا نطوي نشر تلك الفيافي بها بعدمها حتى مالت الشمس للغروب وبتنا على غير ماء.

وارتحلنا فأصبحنا عند ارتفاع النهار على الأغواط البلدة المحمودة الأنجاد الممدوحة الأغواط.

قال فيها أرباب الرحل هي بلدة واسعة ذات أرضين واسعة ومحارث كثيرة وفواكه متنوعة غير أنها كثيرة الرياح، والرمال حتى قيل أن الرياح ذهبت بقرية من قراها بأهلها وطمست عليها الرمال، ولم يبق لها أثر نسأل الله السلامة، والعافية.

ولما وصلناها خرج أهله لملاقاتنا وطلبوا من الشيخ النزول عندهم للتسويق/ ٦١/ واشتراء السلع المغربية وبيع السويق فساعفهم بذلك بعد تمنع شديد لما رأى في إقامة السوق هنالك لنازلهم من الرأي السيد ونزلنا قبالة نخيلهم الباسقة

وقصورهم المتناسقة وبات الحجاج آخذين الحذر هنالك لما يعتادون فيها من النهب، والسرقة وغير ذلك وقامت بينهم سوق حافلة كفيلة بمقتضيات الركاب العظيمة فضاق عن القافلة.

وورد علينا هنالك جماعة من الطلبة فيهم إخواناً في الله ومحبة شيخنا ووسيلتنا إلى ربنا، والواسطة بيننا وبين نبينا الإمام أبو العباس أحمد بن ناصر أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته ونفعنا بسكناته وحركاته.

والفقيه المسن الخير الناسك أبو زيد السيد الحاج عبد الرحمن الفجيجي وولده الفقيه الأنجب صاحبنا السيد إسماعيل، وأكرمونا بأنواع التمر، والخضر، والفواكه جزاهم الله خيراً، وتناولنا معهم مسائل متنوعة في الفنون العلمية.

وورد علينا سؤال يتضمن البحث عن رواية الأستار في البول واستشكال عدة من الكبائر في البخاري حيث قال باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله.

وكنت أجبت عنه بأن معنى الاستتار التحرز، والتوقي، والتحفظ من البول كما تدل له الأحاديث وإن الاستتار افتعال من السيرة.

وقول ابن مرزوق أنه استفعال لا اتخاذ سبق قلم كما لا يخفى وصوابه افتعال ورواية يستتر بثناتين فوقيتين هو الذي في أكثر الروايات.

وفي راوية ابن عساكر يستبرئ بموحدة ساكنة من الاستبراء ولمسلم، وأبي داود حديث الأعمش لا يستنزه بنون ساكنة بعدها راي، ثم هاء هذا حاصل ما ذكره القسطلاني من الروايات.

وقد وقع عند أبي نعيم في المستخرج من طرق وكيع عن الأعمش لا يتوقى ونقلها ابن حجر أيضاً مع ما سبق من الروايات.

وقال ابن مرزوق في شرحه أنه روى لا يتأذى قال، وفي كلام بعضهم ما يقتضي أنه روى لا يستنثر يعني بالمثلثة، وهو استفعل من النثر أى لا ينفض ذكره من البول فإن صح رجع إلى لا يستبرئ.

وهذه الرواية التي فهمها ابن مرزوق من كلام هذا البعض/ ٦٢/ في غاية الغرابة، والله أعلم فمعنى لا يستتر يجعل بين جسده وثوبه وبين البول سترة أي وقاية منه أي من لا يستتر فقد فعل كبيرة، وهو ترك الاستتار ومعنى لا يستبرئ أي لا يطلب البراءة من لابول، ولا يفعلها ومعنى لا يستنزه لا يطلب النزاهة، وهي التخلص، والبعد من البول، وهي كلها متقاربة.

قال ورواية لا يستتر وإن أمكن حملها على كشف العورة لكن يبعده من البول بمن التعليلية وكشف العورة محرم سواء كان من أجل البول، ومن أجل غيره إلا أن يقال إذا كان كشفها من أجل البول محرماً مع الحاجة إليه فمع غيره أحرى فهو من التنبيه الأدنى لكن تبويب الصحيحين وغيرهما يدل على أن الأئمة إنما فهموا الاستتار بمعنى التوقي، وهو وإن كان مجازا من التشبيه، والاستعارة لكن قرينة اتصاله بمن، وتحريم الكشف مطلقا يرجحانه على حمله على الحقيقة.

وكذلك ما جاء من التصريح بهذا المعنى فيما روى: «تنزهوا عن البول فإن عامة عذاب القبر منه».

قال ابن مرزوق في شرح البخاري، وقال ابن حجر بعد تحرير الروايات فعلى رواية الأكثر معنى الاستتار أنه لا يجعل بينه وبين بوله سترة يعني لا يتحفظ منه فتوافق رواية لا يستنزه لأنها من التنزه، وهو الإبعاد.

وقد وقع عند أبي نعيم في المستخرج من طريق وكيع عن الأعمش كان لا يتوقى، وهي مفسرة للمراد.

وأما رواية الاستبراء فهي أبلغ في التوقي، وتعقب الإسماعيلي رواية الاستتار ربما تحصل جوابه فيما ذكرنا قال ابن دقيق العيد: لو حمل الاستتار على حقيقته للزم أن مجرد كشف العورة كان سبب العذاب المذكور.

وسياق الحديث يدل على أن للبول بالنسبة إلى عذاب القبر خصوصية يشير إلى ما صححه ابن خزيمة من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أكثر عذاب القبر من البول».

أي بسبب ترك التحرز منه ويؤيده أن لفظ من في هذا الحديث لما أضيف إلى البول اقتضى نسبة الاستتار الذي عدمه سبب العذاب إلى البول بمعنى أن ابتداء البول سبب العذاب من البول فلو حمل على مجرد كشف العورة زال هذا المعنى فتعين الحمل على المجاز التجمع ألفاظ الحديث على معنى واحد/ ٦٣/ .

ويؤيده أن في حديث أبي بكرة عند أحمد وابن ماجة «إن أحدهما ليعذب في البول».

ومثله للطبراني عن أنيس، وقال القسطلاني بعد تفسير الاستتار بالتحفظ، والتوقي، والإبعاد، ولا يقال إن معنى لا يستتر يكشف عورته لأنه يلزم منه أن مجرد كشف العورة سبب للعذاب المذكور لا باعتبار البول فيترتب العذاب على مجرد الكشف، وليس كذلك بل الأقرب حمله على المجاز يكون المراد بالاستتار التنزه عن البول، والتوقي منه إما بعدم ملابسته وإما بالاحتراز عن مفسدة تتعلق به كانتقاض الطهارة.

وعبر عن التوقي بالاستتار مجازاً ووجه العلاقة منهما أن المستتر عن الشيء فيه بعد عنه واحتجاب وذلك شبيه بالبعد عن ملامسة البول وإنما رجح المجاز وإن كان الأصل الحقيقة.

لأن الحديث يدل على أن للبول بالنسبة إلى عذاب القبر خصوصية فالحمل على ما يقتضيه الحديث المصرع بهذه الخصوصية أولى.

وأيضاً فإن لفظة من لما أضيفت إلى البول، وهي لابتداء الغية حقيقة، أو ما يرجع إلى معنى ابتداء الغاية بمعنى أن ابتداء سبب عذابه من البول.

وإذا حمل على كشف العورة زال هذا المعنى، والحديث تتعلق به وجوه كثيرة ومباحث أعرضنا عنها إذ ليس هذا محل بسط الكلام فيها مع كونها لم يتعلق بها غرض الباحث وفيما أشرنا إليه كفاية لمن له بمباحث الكلام دراية، والله أعلم سبحانه.

وارتحلنا من الأغواط نحث السير فوصلنا وادي الحوت عصراً واستقينا منه وبتنا بعد مجاوزته بيسير. وارتحلنا فوصلنا بعد ارتفاع النهار دمت وبعضهم يسميه ومد بالدال بذل المثناة الفوقية، وهي قرية على سفح جبال عن يمين الذاهب مشرقا في أصل

جبالها واد عظيم كثير الأشجار، والفواكه، والمياه كبير النفع لما شملته مسارحها من الإنعام، والشياه.

غير أن أهلها مشهورون بالتلصص، والانتهاب معروفون بسرقة الحجاج بين تلك السهاب فيا سعادة من غزا واديهم وفرق عن جموع وفود الحرمين الشريفين ناديهم، ولما توسطنا بين هاتيك الأطواد جلسنا هنيهة/ ٦٤/ للاستراحة، والوضوء من ذلك الواد، ثم سرنا حتى وصلنا البرج ويقال عين البرج فبتنا به وطرف كل واحد من الحجاج نابه، ومنه بتنا في أول عبد المجيد، وهو مبدأ المفازة الحجارية التي طوقت بسحاب المشاق، والتعب من المسافرين كل جيد وارتحلنا منه فظللنا سائرين في عذر أن غادرتها الأمطار وإضاء أضاءت منها وجوه الأمطار وسرى بها الروع عن الناس واستبدل الروع من وحشة العطش كل إيناس.

وذهب ما كان الناس يتخوفونه من قلة المياه ووجد كل واحد من الأوجذ ما طالب ريه ورياه وهذ المسافة من أول عبد المجيد إلى انتهاء وادي سيدي خالد من المفاوز التي ما زال يتحدث بعظم مشقتها وبعد شقتها الولد عن الوالد كلها وعرة مخوفة معطشة مجهلة لن يشك حاج فيها حوت من المخافات، وأبرزت من الآفات ولن يجهله.

قال جماعة من أرباب الرحل قد أجمع الحجيج وصح عندهم أنه لا يسلكها ركب إلا ويضع فيها أرمي، أو غيره وجرى على ألسنتهم لابد أن تأخذ هذه المفازة شابها، وقد تقرر أن الله سبحانه هو الفاعل المختار الجاري فعله جلت قدرية على حسب المشيئة، والاختيار فالحذر الحذر من اعتقاد مثل هذه الاعتقادات الفاسدة القاعدة في بنائها على غير قاعده.

وقد مات لنا فيها رجل من الركب نادته منيته قبل أن تبلغ أمنيته رحمة الله تعالى عليه وسرنا نحث المطيات حتى اصفرت الشمس وبتنا بعد مجاوزة البوقيات وهما ربوتان عظيمتان كأنها شبهتا النوام الذي يولد مع أخيه في بطن واد لشدة تقاربها، وتماثلها وارتحلنا فأصبحنا ضحى بوادي نبي الله تعالى سيدي خالد بن سنان عليه السلام،

وتلقانا من الأعراب الذي بنواحي أقوام يعجز دون حدهم الحساب ويكل دون عددهم كل الحساب وملئوا تلك الأرض ما بين الطول، والعرض كأن الأرض تفور بهم فورا وربما تخيلتها مالت فمارت موراً وطلبوا من الشيخ نزول الركب ليستوقوه فأبى لما علم أنهم لا يعتبرون في النهب أماً، ولا أباً فأسرع السير لما ثبت لديه من سرقة القوم/ ٦٥/ وخيانتهم وكثرة تلصصهم وقلة أمانتهم وبعد مفارقتهم أصابنا عاصف من الأرواح كاد أن يذهب الأجسام يزهق بالأرواح وملأ الوجوه العيون غباراً، وأذهل الناس فتراهم سكارى، وما هم بسكارى فشغلنا بهذا الأمر الشاق الشديد عن زيارة سيدي خالد، والوقوف على ضريحه المشهود بالفضل الوافر المديد، ولما قابلناه كنت قلت قصيدة من غرر القصائد مشتملة من البديع على درر الفوائد، وأولها:

حَططنا بمغنى خَالد بن سنان	لنحظى به عن أسهم وَسِنَان
أخالدُ مِنكَ الودُّ أصبحَ خالداً	لدى خَلدي بل في صميم جَناني
أخالدُ هَلْ لي للحرامين وصلة	أنعم منهما في فسيحِ جنانِ
أخالدُ من لي أن أفوز بحجةٍ	لها حجةٌ في السبر ذات يدانِ
أخلد هل لي زورة لمحمد	تبي سلها عن مشبه وَمدانِ
عليه صلاةَ الله ما حن شانق	الجوانحُ من قَاصٍ إليه وَدَانِ

وباقيها ضاع مع ما أشرنا إليه من الشيء المضاع.

وقد ذكر شيخ شيوخنا الإمام العلامة الرحلة الأديب البارع أبو سالم عبد الله العياشي رحمه الله في رحلته خالد بن سنان، وقال إن قبره من المزارات الشهيرة ببلاد الزاب تقصده الأركاب للزيارة من قواصي إفريقية كلها أشتهر أمره لدى الخاص، والعام، والبدو، والحضر وعليه مسجد عظيم وحوله مدرسة، والناس ينقلون عن ذلك المشهد كرامات.

قال: وقد أشكل على أمره وسألت عنه من يظن به علم فلم أجد عند أحد ما يشفي، ولا رأيت خبره في تاريخ، ولا تقييد.

وغاية ما سمعت من بعضهم أن سيدي عبد الرحمن الأخضر أخبرهم أنه شاهد النور صاعداً من تلك البقعة إلى السماء ثلاثة ليال، وأخبر أنه قبر نبي الله خالد فإن كان أطلع على ذلك من كشفه فيسلم له فإن أهل لذلك، وقد رأينا وسمعنا في بلاد المشرق بمشاهد متعددة من قبور الأنبياء، والأولياء أظهرها أهل الكشف الصادق فتزار بحسن النية وجميل الاعتقاد وحسن الظن بقابل ذلك حتى أن المشهد المنسوب لكليم الله موسى عليه السلام بالأرض المقدسة إنما أظهر بعض أهل الكشف بعد الستمائة، أو قريب من ذلك، وهو الآن من المزارات العظيمة/ ٦٦/ الشهيرة.

وقد أطال في ذلك ونقل أقوالاً جمة منها أنه نبي من العرب بعث بين عيسى ونبينا محمد عليه السلام، وأنه بأرض الحجاز ويا ما أبعد الحجاز من الزاب، وأطال في استبعاد ذلك له واستغرابه وحاصل ما انفصل عنه ما أجابه به عن هذا المشهد شيخه أبو بكر بن يوسف السجستاني لما سأله عنه أن الأقرب الذي تركن إليه النفس بعض الركوب أنه أحد رسل عيسى الثلاثة المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٣] الآية.

فقد ذكر بعض المفسرين أن أحدهم اسمه خالد، وأنه نبي أصحاب الرس، وقد ذكر بعضهم أن بلاد الزاب هي بلاد أصحاب الرس فإن صح أن هذا قبر نبي اسمه خلد فهو هذا، والله أعلم.

ويؤيد ما نقله أبو سالم عن شيخه السجستاني أن صاحب الاستبصار ذكر عن إسحاق بن عبد الملك بن الماجشون إنه لم يدخل إفريقية نبي قط، وأول من دخلها بالإيمان حواري عيسى عليه السلام فليتأمل.

قال أبو سالم: وقد مدحت خالد بن سنان بأبيات لما مررت بهذا المشهد سنة أربع وستين وهي:

يـا نبـيَ الإلـه يـا ابـن سـنانِ خالـدٌ أجـد لخـائف بأمـانِ

مـذنبٌ يطلـبُ السـماحَ ويرجـو نَفحـةً تُطلـق الأسـير العـاني

قَـدْ أنـاخَ ببـابكم مُسـتجيراً بجنابـك مـن صُروفِ الزمـانِ

فأحمـد أنـتَ خـير مـن يمنـع الجـار ويطعـن دون بسـنانِ

وَحَشـاكَ بسـام جـارك يـا خـير الـورى بمهانـة وهـوانِ

فـاحمِ مَـنْ أمَّ بابـك الرحـب يرجـو غـارةً تكشـفُ الهمـوم الـدواني

أيخـافُ إذا أتـى لحماكـم سـتجيرُ مِـنَ المهالـك جَـانِ

كُـنْ كفـيلا لمحـو ذنبـي فـما لي بالـذي قـد جَنيـتُ فيـه يَـدانِ

مـا أضـاعك إذ أضـاعتك عَـبسٌ مـن أجلـك في أجـل مكـانِ

بـل حَبـاكَ نبـوة وارتفاعـا قـد غـدا دون قـدرها الفرقـدانِ

لـو أطـاعوكَ في وصـيتك الغَـرا ء، وأمـا تقـول رأي عَيـانِ

قـد أتيتـكَ طَالبـا وصـلة الله فـإن نلـت هـذه فكفـاني

فَبِجَاهـك أسـألُ الله فيهـا لأفـوز بهـا بغـير تَـوانِ

وَقَصـدتكَ مَادحـا بنظـامٍ مِثْـل زِهـر الربـا ونظـم جُمَـانِ/ ٦٧/

فَتقبـلْ بِفَضْـلِ جُـودك منـي حلـة رَمْـتُ نَسـجها بلسـاني

يـا نبـي الإلـه فاجعـل جزائـي بالـذي أبتغـي سَـكنى الجنـانِ

يـا نبـيَ الإلـه فأقبـل عـلى مـا سـطرته مـن المـديح بنـاني

فعليـكَ مـن الإلـه سـلامٌ وصـلاةٌ تـترضى بكـل أوان

وتجاوزنا ذلك الوادي في حالة عدت عليه من العاصفات أيدى العوادي ونحن نتضرع إلى الله تعالى ونبالغ ونبتهل إليه سبحانه بكل قول بالغ ونطلب منه أن يكشف

عنا ما نزل بنا من شدة الأهوال التي غيرت الأحوال، وأن يسكن تلك العواصف التي شوهت الوجوه وبالغت في أذاها وطمست العيون فاسالت دموعها، ولم تقتصر على قذاها، وأذكرتنا ما قاله الصلاح الصفدي في مثل هذه الحالة من الآداب التي فاح عرفها وعبق شذاها:

أيا شعثا قام في وجهنا وزاد وعن خبرنا ما انتهى
سفيتَ الرمالَ على وجنتي وَمِنْ مَاء عيني خَولتها
تخيلتُ أنْ جَفْوني على عيوني سُطوراً فرملتها

وسرنا حتى تجاوزنا واديا وبتنا في غدوته آمنين لجفافه من عدوته فما غاب الشفق حتى كثر البرق، والرعد، وأرسلت السماء من الأمطار ما لم نره قبل، ولا بعد واشتدت العواصف ذهب من كل ناحية ريح قاصف فابتهل الناس إلى الله تعالى بادعاء المتوال، وأخذوا يسألونه اللطف في جميع الأحوال حتى استجاب سبحانه السؤال، وتداركنا بما أملنا من اللطف في الحال، والمآل وهدأت العاصفات وفترت السحائب الواكفات فسبحان من يستجيب دعاء العبيد ويكون معهم في ظلمات البحر وظلامات البيد ويعامله بخفى الألطاف أبد الأبيد.

وارتحلنا فأصبحنا على ذلك الوادي الذي تجاوزناه عشية، وهو يبس لا ماء به البتة فألفيناه قد تلاطم موجه، وتعاظم لجه، ولم نستطيع قطعة، ولا بته فبقينا على شاطئه تنتظر انكسار سورته رجاء السلامة من سطوته وسورته، ولما أتت الظهيرة ظاهر كل واحد ظهيره واقتحمنا عبور ذلك النهر ونهرنا الرواحل على اقتحام/ ٦٨/ شدائده أي نهر ونجى الله سبحانه وفده آفاته، وأمنهم، وله الحمد من مخافاته.

وكانت الأمواج عدت على بعض الثياب ألفيناها مؤمنة عند أعراب ذلك الموضع في الإياب وبعدما خلفنا من ذلك الوادي شدائد، وأمواجا تعرض لملاقاتنا الأقوام أفواجاً أفواجا يبالغون في التهنئة، والسلام ويلاطفون وفد الله تعالى بالكلام.

وأقام الحجاج معهم سوقا على ساق ريثما أدينا الظهرين وحدا بهم الحادي وساق وبتنا بعد مجاوزة أوش، والمدثر الذي له بهما التصاق واتساق.

وارتحلنا فوصلنا بكرة ضحى يوم الخميس الرابع من شعبان، وقد لاح لا وجه السرور وبان فأقمنا بها الخميس، والجمعة وقضينا منها أرب السفر أجمعه، وتوجهنا يوم الجمعة على مسجدها الجامع المزهو على ما عداه من الجوامع المتقن البناء، والمتبع الفنا وصعدت لمأذنته العظيمة البنيان الشهيرة الإتقان بين الأعيان الواسعة المدارج حتى أن الجمل ليصعد بحمله من غير انحناء، ولا اعوجاج في تلك المعارج وبقينا بالمسجد حتى آن وقت الصلاة.

فخرج من بيت الخطابة إمام المسجد وخطيبه وفقيه البلد الذي فاح عرف علمه بنواحيه وطيبه أبو محمد عبد الواحد بن محمد الرقاني فخطب خطبة وعظ فيها الناس واستطرد تبشير الحجاج فأذهب وحشتهم بالإيناس وبعدما صلينا اجتمعنا في ذلك المسجد بجماعة من أصحاب شيخنا الإمام الكبير العارف بالله تعالى أبي العباس أحمد بن محمد بن ناصر الذرعي (ﷺ) وعنا به فيهم الأخ الصالح المأذون له من الشيخ في تلقين الناس بتلك النواحي كلها البركة الخير المسن المرضي الأحوال أبو محمد عبد الحفيظ بن الطيب من أولاد سيدي قاجي نفعنا الله به.

وأخوه الفقيه المشارك أبو عبد الله محمد بن الطيب، وأولادهما وغير هؤلاء من الإخوان وخرجنا من المسجد، وتوجهنا لزيارة من أمكنت زيارته من صالحيها ومشاهدها نفعنا الله تعالى بهم ورضي عنهم وعنا بسببهم.

وجلنا فيها فإذا هي مدينة عظيمة واسعة الجوانب حوت من الأشجار، والآبار، والنخيل ما لم يوجد/ ٦٩/ في غيرها.

وقد أطال شيخ شيوخنا الإمام العياشي في رحلته الكلام عليها وبالغ في وصف مسجدها، وأسف على ما كان من العلوم ينسب إليها.

وذكر أن أدراج مأذنتها مائة، وأربع وعشرين درجة ووصفها بالطول، والسعة، والإتقان كما أشرنا إليه آنفا قال، والمسجد في غاية السعة وإتقان البناء إلا أنه قل عامروه وضعف ساكنوه فلا ترى فيه مدرسا، ولا قارئاً مع أن هذه المدينة من أعجب المدن، وأجمعها لمنافع كثيرة من توفر أسباب العمران فيها.

جمعت بين التل، والصحراء ذات نخيل كثير وزرع كثيف وزيتون ناعم وكتان جيد وماء جار في نواحيها، وأرحاء متعددة تطحن بالماء ومزارع جناء.

وفيها أنواع من الفاكهة، والخضرة، والبقول وكثرة اللحم، والسمن في أسواقها وبالجملة فما رأيت في البلاد التي سلكتها شرقا وغربا أحسن منها، ولا أحصن، ولا أجمع لأسباب المعاش إلا أنها ابتليت بتخالف الترك عليها وعساكر الأعراب فتستولي عليها هؤلاء تارة وهؤلاء تارة إلى أن بنى عليها الترك حصنا حصينا على رأس الماء الذي يأتي إليها فتملكوا البلاد، وأضروا بأهلها، وأجحفوا بهم في الخراج.

ولم يقدر على الخروج عليهم لتمكنهم من الماء الذي به حياة البلاد، وأهله فاجتمعت عليه غارة العرب من خارج وظلم الأتراك من داخل قال، وقد أشفت على الخراب وقاربت بباب لولا ما قائل من أسباب عمرانها الموجبة لرغبة الناس في سكناها ولله الأمر من قبل، ومن بعد.

وارتحلنا من بكرة التي هي قاعدة بلاد الزاب يوم السبت السادس من الشهر وسرنا حتى قابلنا قبر الإمام الكبير الشهر الذي أثبت له غير واحد من الأئمة صحبته سيد الأمة فاشتهر في تلك الآفاق بالصحبة وشهد له فيها بالكرامات وعلو الرتبة وصارت الركبان تسير لمقامه في اقتناء المنافع سيدنا ومولانا فقيه بن نافع زاده الله رفعة، وأعم سائر العباد نفعه، ولما لم يمكننا الوقوف على ضريحه توجهنا لاستنشاق ريحه، وأخذنا نسأل بجاهه خيرات الدنيا، والآخرة ونبتهل إلى الله تعالى أن يفيض علينا/ ٧٠/ بحار كرمه الزاخرة، وقد كنت خاطبته بأبيات بديعة تنيف على خمسة عشر أضاعت في الرحلة الضائعة، وقد علق بالفكر منها اليقاظ أعراف نشرها ضائعة، وأولها:

أعقبـــة جبنـــا أجـــبلا وعقابـــا أضـــلت مواميهـــا قَطَـــاً وعقابـــا

أعقبـــة ســـل مـــولاك جـــل جلالـــه يؤمننـــا كـــي لا نخـــافُ عِقابـــا

فهـــا نَحْـــنُ وَفـــدُ الله حُجـــاجُ بيتـــه وطيبـــة إذ مـــن طيبهـــا الكـــون طابـــا

قصـــدناك في نيـــل المقاصـــد كلهـــا ومثلـــك مَـــنْ بالمكرمـــات أجابـــا

ولما تجاوزنا الوادي الذي قبالة سيدي عقبة طلب عربان تلك الأرض من الشيخ النزول ليتسوقوا الركب فساعفهم بذلك ونزلنا بعد الزوال لإقامة السوق، والمبيت هنالك وارتحلنا يوم الأحد فظلنا سائرين في أرض أخصاب معشبة الأخصاب مياه غدرانها سائحة وطيور أغصانها صائحة ونسمات أزهارها فائحة وجداول أنهارها غدية ورائحة وجميع نباتاتها، وأشجارها حازت أذكى رائحة فيا ما أزهى تلك العيون في الأبصار، والعيون ويا ما أجمل تلك الأنهار المحفوفة ببدائع الأزهار أذكره أحسن حليتها لازهرية ما كنا نتناشده زمن الصبا من الأشعار الزهرية كالقصيدة الحلية المجلية في حلبة هاتيك الجلية الجلية:

وردُ الربيـــع مَرحبـــا بـــورده وبنـــور بهجتـــه ونـــور ورودهْ

وَبحســـنِ مَنظـــره وطيـــب نســـيمه وأنيـــق مبســـمه ووشـــى بـــرودهْ

فصـــل إذا افتخـــر الزمـــان فإنـــه إنســـان مقلتـــه وبيـــت قصـــيدهْ

يُغنـــي المـــزاج عـــن العـــلاج نســـيمه بـــاللطفِ عَـــنْ هبوبـــه وركـــودهْ

يـــا حَبـــذا أزهـــاره وثـــماره ونبـــاق ناجمـــه وحـــت حصـــيدهْ

وتجـــاوب الأطيـــار في أشـــجاره كبنـــان معبـــد في مواجـــب عـــودهْ

والغصـــنُ قَـــدْ كَســـى الغلائـــل بعـــدما أخـــذت يـــدا كـــانون في تجريـــدهْ

نَـــالَ الصِّـــبا بعـــد المشـــيبِ، وقـــد جـــر مـــاءُ الشـــبيبةِ في منابـــت عُـــودهْ

والـــوردُ في أعـــلا الغُصـــونِ كأنـــه ملـــك تحـــفُ بـــه سراة جنـــودهْ

وكــأنها الأقــاح ســمط لئــالئ ... هــو للقضـيب قـلادة في جِيـدهْ/ ٧١/

والياســمينُ كَعاشــق قــد شــفه ... جَــورُ الحبيــب بهجــره وصــدودهْ

وانظــرْ لنرجســه الجنــى كَأنــهُ ... طَــرف تنبتــه بعــد طُــول هُجــودهْ

وأعجــب لنــا دَرِّيونــه وبهــاره ... كــالتبريز هــي بــاختلاف نقــودهْ

وانظــرْ إلى المنثــور في منظومــه ... متنوعـــا بفصـــوله وعُقـــودهْ

أو مـا تـرى الغـيمَ الرقيـق، وقـد بـدا ... للعـــين مِـــنْ أشـــكاله وطـــرودهْ

والســحبُ تَعقــدُ في الســماء مــأتما ... والأرضُ في عُــرسِ الزمــان وعِيــدهْ

نــدبت فشــق لهــا الشــقيقُ جُيوبــه ... وأزرق سَوســـتها للطـــم خـــدودهْ

وأني لي باستيفاء المعاني التي قيلت في مثل هذه المغاني، وقد أعجزت كل قائل، وأغنت كل معاني ولأجل ما اشتملت عليه هذه الأرض من الخصب، والنعماء لم يحتج أحد فيها إلى حمل ماء وذلك كل من فضل الله تعالى وبركة الرسول (ﷺ) وإلا فمن يسلم فيتلك الموامي لو لا أن الله سلم، ولما نثرت الشمس زعفرانها على الربا وفتت سكنها على الغيطان.

وقربنا من وادي كبير ينحدر من ناحية جبل المصامدة يسمى وادي كشطان فبتنا بين تلك الأكام نجاذب أطراف الكلام ونزل من المصامدة، وهم أعراب تلك الأرض ناس متدينون لا بأس بأخلاقهم مع ابن الأرض فمن تونهوا فيه الانتهاء للعلم انضافوا إليه وحالوا معه في المسائل العلمية بقصد الرواية عنه، والقراءة عليه.

وارتحلنا يوم الأثنين الثامن يسوقنا ما في حشوا الأحشاء من الشوق الكامن فمررنا ضحى بوادي الحميدات، ومنه ظللنا في وادي الأعراب المقابل لزاوية سيدي ناجي المشهودة في تلك الأرض بين هؤلاء الأعراب، ومن حفدة هذا السيد العظيم سيدي عبد الحفيظ وسيدي محمد أبناء الطيب المتقدم ذكرهما فيمن لقيناه ببكرة.

وقد ذكرهما الشيخ ابن ناصر (ﷺ) في رحلته، وأثنى على روايتهما وجدهما وبالغ في مدح وشكره، وقد لقينا هنا أيضاً جماعة من أولاده وجملة وافرة من أهل جواره وبلاده.

وسرنا حتى اصفرت الشمس وبتنا في سبخة عارية من النبات، والأشجار خالية حتى من الأحجار سماها لنا بعض الناس وزرا، وما حوت ملجأ، ولا وزرا، وفي في الناحية اليسرى بعد زريبة حامد الكثيرة المحامد/ ٧٢/ وكنا تركنا الزرائب يمينا وسرينا من سفح ما حواليها من الوهاد خشية اشتداد الوحل في تلك السبخات لقرب عهودها بسواكب العهاد.

وارتحلنا يوم الثلاثاء فظللنا في المفازة العظيمة المعروفة بالتفيضة وبتنا بغدران أفاضت علينا من معينها فيضة، وأي فيضة.

وارتحلنا يوم الأربعاء فأصبحنا على غران بكسر الغين المعجمة وزن عمران، وهو جبل يخرج من ناحيته إلى أسفله واد سائل لارتواء كل وارد وسائل فاسترحنا به ريثما تسوق أعرابه مع الحاج واستقى من مائة الأجاج من له فيه حاج وسرنا حتى وصلنا أرضا سماها أعرابيها سندس فبتنا باسطين من بسيط ربيعها بساطا من سندس.

وارتحلنا يوم الخميس الحادي عشر فظلنا قبالة قرية الشبيكة التي باعد الرحمن عنها الظلم، والعشر بل أنبت في سفحها نخيلاً باسقة وظللنا من خير هاتيك السباخ بسحابة باسقة وجميع هذه الأرض رمال ليس فيها من الماء وشل، ولا سمال وعن يمين الذاهب مشرقا السبخة الملحة العظمى التي ما زالت تبيد في تلك البيد من المسافرين جسما، وتبيد منهم عظما.

وقد وصفها الإمام أبو سالم وشيخنا ابن ناصر وغيرها ومررنا عصراً بالأخاديد العظام المسماة بأم الاحوى فألفيناها فائضة بالمياه المطرية التي روت مرعاها فلم يكن غثاء، ولا أحوى فأخذنا في سقي البهائم وامتلاء القرب عند ذلك وبتنا بعد مجاوزة طرف من السبخة التي هنالك.

وارتحلنا فأصبحنا يوم الجمعة في الحامة التي منفعة مائها السخن في ملك الأرض عامة، وهي قرية كثيرة النخيل، والماء، والخصب، والنعماء سميت حامة لكون مائها حميا، وهو مع ذلك يصلح تلك الأرض فتنبت به نبتا جميا وسرنا منها في مطر خفيف فوصلنا قبل صلاة الجمعة لتوزر المدينة التي ما زالت تَسُدُّ بر فاهيتها كل ثلمة من الركاب، وتوزر فبادرت لدخولها، والجولان فيها فإذ هي قواعد مدن الجريد، وأعظم أمصاره التي تعي لسان/ ٧٣/ واصفيها أطال أرباب الرحل في وصفها وقالوا أنها حسنة البناء جداً كثيرة الجنات، والأشجار غزيرة المياه ينساب فيها واد كبير من غربيها، وأعرابيها أهل بادية مخصبة فيرخص فيها غالب سعر السمن، واللحم.

وأما التمر فإنه يرخص جداً، وليس في الجريد ما يماثلها في كثرة النخيل، والمياه بعد بكرة ومساجدها حسنة متقينة محكمة الأبنية واسعة الأفنية ولكن مأذنة بكرة أتقن، وأعلاه، وأوسع، والله أعلم.

وبعد أن نصبت الخيم ورفعت عنا الديم ورد علينا الفقيه العالم المقدم للفتوى في تلك العوالم المشهور بين هاتيك الديار، والقصور أبو عبد الله محمد بن منصور وصاحبه الفقيه النبيه الألمعي الذي ليس له في نجابته شبيه الشيخ رمضان فاجتمع عندنا من العلوم روضان.

وورد علينا قاضي توزر وخطيبها الفقيه الحسيب الحي الناسك الدين النسب أبو الحسن علي بن عبد الملك، والفقيه المتودع الجليل السيد المبروك وورد علينا من نفطة، وهي بلدة غربي توزراً الرجل الصالح الفقيه الشريف البركة السيد ضيف الله ومعهم جماعة من الفقهاء، والطلبة ضلت عني أسماؤهم، وتناولنا معهم مسائل متنوعة في الفنون العلمية، وأكثرها في الفقه وعلم الكلام وزرنا من أمكنت زيارته من صالحيها نفعنا الله بهم وبها خلوة الإمام الأكبر أبي الفضل ابن النحوي صاحب المنفرجة.

وقبر الإمام أبي محمد عبد الله ابن الشيخ أبي زكريا يحيى بن علي الشقراطيسي التوزري المتوفي لثمان خلون من ربيع الأول سنة ست وستين، وأربعمائة.

وسقراطس قصر قديم من قصور نفطية ولجانبه قبر ولده وللشيخ أبي محمد السقراطسي شهرة عظيمة في تلك النواحي ولهم اهتبال كبير بقصيدته اللامية المشهورة التي أولها:

الحمدُ لله منا باعثُ الرسل ... هدي بأحمد منا أحمد السبلْ

خَيرُ البرية من بدوٍ، ومن حضر ... وأكرمُ الخلق من حَاف ومنتعلْ

تَوراةُ موسى أتت عنه فصدقها ... أنجيل عيسى بحق غير مفتعل/ ٧٤/

أخبارُ أحبار أهل الكتب قد وردت ... عمار، أو أوروا في الأعصر الأولْ

ضَاءت لمولده الآفاقُ واتصلت ... بشرى الهواتف في الأشراق، والطفلْ

وَصَرْحُ كسرى تداعى من قواعده ... وانقض منكسر الأرجاء إذا ميلْ

وَفار فَارس لم توقد، وما خمدت ... مذ ألف عام ونهرا القوم لم يسلْ

خَرَّتْ لمبعثه الأوثان وانبعثت ... ثواقب الشهب ترمي الجن بالشعلْ

وَمنطقُ الذئب بالتصديق معجزة ... مع الذراع ونطق العير، والجملْ

وفي دعائك بالأشجارِ حين أتت ... تمشي بأثرك في أغصانها الذللْ

وقلت عودي فعادت في منابتها ... تلك العروق بإذن الله لم تمل

والسرح بالشام لما جئتها سجدت ... شم الذوائب من أفنانها الخضل

والجذع حن لأن فارقته أسفا ... حنين ثكلى شجتها لوعة الثكل

ما صبر من صار منعين على أثر ... وحال من حال من حال إلى عطل

حي فهات سكونا، ثم مات لدن ... حين حنينا فأضحى غاية المثل

والشاة لما مسحت الكف منك على ... جهد الهزال بأوصال لها فحل

سحت بدره شكري الضرع حافلة ... فروت الركب بعد النهل بالعلل

وآيـة الغـار إذ وقيـت في حجـب ... عن كل رجس لرجس الكفر منتحل

وقـال صاحبك الصـديق كيف بنـا ... ونحـن منهم بمرأى النـاظر العجـل

فقلـت لا تحـزن إن الله ثالثنـا ... وكنت في حجب ستر منه منسدل

حملـت لـديك حمام الـوحش جاثمـة ... كيـد الكـل غـوى القلـب مختبـل

والعنكبـوت أجـادت نسـج حلتهـا ... فـما يخـال خـلال النسـج مـن خلـل

قـالوا وجـاءت إليـه سرحـت سترت ... وجـه النبـي بأغصـان لهـا هـدل

وفي سراقـة آيـات مبينـة ... غذ ساخت الحجر في وحل بملا وحل

عرجـت تخـترق السـبع الطبـاق إلى ... مقـام زلفـى كـريم قمـت فيـه عـلى

عن قـاب قوسين، أو أدنـى هبطـت ولم ... تستكمل الليـل بـن المـرو، والقفـل

دعـوت للخلـق عـام المحـل متـبهلا ... أفـديك بـالخلق مـن داع ومبتهـل

صـعدت كفـك إذ كـف الغـمام فـما ... صـوبت إلا بصـوت الواكـف الهطـل

أراض بـالأرض ثجـا صـوف ريقـه ... فحـل بـالروض نسـجار رائـق الحلـل

زهـر مـن النـور حلـت روض أرضـهم ... زهـر النـور صـافي النبـت مكتمـل/ ٧٥/

في غصـن نضـير مـورق خضر ... وكـل نـور نضـيد مؤنـق خضـل

تحيـة أحيـت الأحيـاء مـن مضر ... بعـد المضرة تـروى السبل بالسـبل

دامـت عـلى الأرض سـبعا غـير مقلعـة ... لـو لا دعـاؤك بـالإقلاع لم تـزل

ويـوم زورك الـزوراء إذ صـدروا ... مـن يمـن كفـك عـن أعجوبـة مثـل

والمـاء ينبـع جـوادا مـن أناملهـا ... وسـط الإنـاء بـلا نهـر، ولا وسـل

حتـى توضـأ منـه القـوم واغترفـوا ... وهـم ثـلاث مئـين جمـع محتفـل

أشـبعت بالصـاع الغـامر ملـين كـما ... رويـت الفـا ونصـف الألـف مـن سـمل

وعاد ما شبع الألف الجياع به كما بدوا فيه لم ينقص، ولم يحل

أعجزت بالوحي أرباب البلاغة في عصر البيان فضلت أوجه الحيل

ساكتهم سورة في مثل حكمته فتلهم عنه حتى العجز حين تلي

فرام رجس كذوب أن يعارضه بسخف أفك فلم يحسن، ولم يطل

متيم بركيك الأفك ملتبس ملجلج بردى الزور، والخطل

يمج أول حرف سمع سامعه ويعتري به كلال العجز، والملل

كأنه منطق الورهاء شد به لبس من الخبل أونس من الخبل

أمرت بالبير بل غارته مجته فيها، وأعمى بصير العين بالسجل

وأيبس الضرع منه شؤم راحته من بعد إرسال رسل متهمل

بريت من دين قوم لا قوام له عقولهم من وثاق الغي في عقل

يستخبرون خفي الغيب من حجر صلد ويردون غوث النصر من جبل

نالوا أذى منك لو لا حلم خالقهم وحجة الله بالأعذار لم تنل

واستصعبوا أهل دين الله فاصبروا منه على كل خطب فادح جلل

لاقى بلال بلاء من أمية قد أحله الصبر فيه أكرم النزل

إذا جهدوه بضنك الأسر، وهو على شدائد الأزل ثبت الأزر لم يزل

ألقوه بطحا برمضاء البطاح وقد عالوا عليه صخوراً جمة الثقل

يوحد الله إخلاصاً ومذ ظهرت بظهرة كندوب الظل في الطلل

إن قد ظهر ولي الله من دبر قد قد قلب عدو الله من قبل

نفرت في نقر له ترض أنفسهم إذ نفروا الرجس إلا القدس من نقل

بأنفس بذلت في الخلد إذ بذلت عن صدق بدل ببدر أكرم البدل/ ٧٦/

مـــن كـــل مهـــتصر لله منـــتصر ... بـــالبيض مخـــتصر بالســـمر معتقـــل

يـمشي إلى الموت عـالي الكعـب معتقلا ... أظمى الكعوب كمشي الكاعب الفضل

قـد قـاتلوا دونـك الأقيـاء عـن جلـد ... وجـادلوا بجـلاد البـيض، والجـدل

وصـــلتهم وقطعـــت الأقـــربين معـــا ... في الله الـــولاه لم تقطـــع، ولم تصـــل

وجـــاء جبريـــل في جندلـــه عـــدة ... لم تبتـــذلها أكـــف الخلـــق بالعمـــل

بـيض مـن العـون لم تسـتل مـن عمـد ... خيـل مـن الكـون لم تسـتن في طبـل

أعميت جيشاً بكـف مـن خصا فمشـوا ... وعلقـــوا م حـــراك النقـــل بالنقـــل

ودهـــوة بغنـــاء البيـــت صـــادقة ... غـــدا أميـــة منهـــا شر منخـــزل

غـــادرت جهـــل أبي جهـــل بمهجلـــة ... وشـاب شـيبة قبـل المـوت مـن وجـل

وعتبـــة الشر لم يعتـــــب فتطفـــــه ... منـك العواطـف قبـل الحـين في مهـل

وعقبـــة الغـــــم عقبـــاه لشـــقوته ... إن ظـل مـن غمـرات الخـزى في ظلـل

وكـــل أشـــوس عـــاتي القلـــب منقلـــب ... جعلتـــه بتليـــب البئـــر كالجعـــل

وجـــاثم بمشـــار النقـــع مشـــتغل ... بحـــاجم مـــن أور الثكـــل مشـــتعل

عقـــدت بـــالخزى في عطفـــي مقلـــده ... طـــوق الحمامـــة بـــاق غـــير منتقـــل

أمســـى خليـــل صـــغار بعـــد نخوتـــه ... بـــالامس في خـــيلاء الخيـــل، والخـــول

دام يـــــديم زفـــــيراً في جوانحـــــه ... جـــنح مـــن الشـــك لم يجـــنح، ولم يمـــل

أوصـــاله مـــن صـــليل الغـــل في غلـــل ... وقلبـــه م غليـــل الغـــل في غلـــل

يظـل يخجـل سـاجي الطـرف خافضـه ... لمسـكة الحجـل لا مـن مسـكة الخجـل

أرحـت بالسـيف ظهـر الأرض مـن قفـر ... أرحـت بالصـدق عنـه كـاذب الضـلل

تركـت بـالكفر صـدعا غـير ملتـئم ... وإن منـــك بجـــرح غـــير منـــدمل

وأفلت السيف منهم كل ذي أسف ... على الحمام حماه آجل الأجل

قد أعتقته عناق الخيل، وهو يرى ... به إلى رق موت رقة الغزل

فكـ ببكـة من بـاك وباكية ... بفيض سجل من الأماق منسجل

وكأسف البال بالي الصبر جدت له ... بوابل من وبال الخزى متصل

فؤاده من سعير الغيظ في غلل ... وعينه من غزير الدمع في غلل/ ٧٧/

قد أسرعت منه صدراً غير مصطبر ... وحملت منه صبراً غير محتمل

ويم مكة إذا شرفت في أمم ... تضيق عنها فجاج الوعث السهل

وجحفل قذف الأرجاء ذي لجب ... عرمرم كزهاء الليل منسجل

وأنت صرت بحكم الله تقدمهم ... فهو أشراف نوط منك مكتمل

تنير فوق أغر الوجه منتجب ... متوج بعزيز النصر مقتبل

تسمو أمام جنود الله مرتدياً ... ثوب الوقار لأمر الله ممتثل

خشعت تحت بهاء العز حين سمت ... بك المهابة فعل الخاضع الوجل

وقد تباشر أملاك بها ملكت ... إذا نلت منه غاية الأمل

والأرض ترجف من زهو، ومن فرق ... والحق يزهر أشراقا من الجذل

والخيل تختال زهوا في أعنتها ... والعين تنثال زهواً في ثناء الجدل

لولا الذي خطب الأقلام من قدر ... وسابق من قضاء غري ذي حول

أهل تهلان بالتهليل من طرب ... ل النبوة فوق العرش في الأزل

شعبت صاع قريش بعد ما شعبت ... بهم شعوب شعاب السهل، والعلل

قالوا محمد قد زادت كتائبه ... كالأسد تزار في أنيابها العصل

فويل مكة من آثار وطاته ... وويل أم قريش من جوى الهبل

فجدت عفوا بفضل العفو منك ... ولم تلمم، ولا بالميم اللوم، والعذل

أضربت بالصفح صفحات عن طوائفهم ... طولا أطال مقيل النون في المقل

رحمت، وأشج أرحام أتيح لها ... تحت الوشيح نشيج الروع، والوجل

عاذوا بظل كريم العفو ذي لطف ... مبارك الوجه بالتوفيق مشتمل

أزكى الخليقة أخلاقاً، وأطهرها ... وأكرم الناس صفحا عن ذوي الزلل

زان الخشوع وقار منه في خفر ... أرق من خفر العذراء في الكلل

وطغت بالبيت محبوراً وطاف به ... من كان عنه قبيل الفتح في شغل

والكفر في ظلمات الخزى مرتكس ... ثا وبمنزلة البهموت من زحل

حجزت بالأمن أمطار الحجاز معا ... وحلت بالخوف عن حيف وعن ملل

وحمل أمن ويمن مناك في يمن ... لما أجابت إلى الإيمان عن عجل /٧٨/

وأصبح الدين قد حفت جوانبه ... بعزة النصر واستولى على الملل

قد عاد منحرف منهم لمعترف ... وانقاد منعدل منهم لمعتدل

أحبب نجلة أهل الحق في الخلل ... وعز دولته الغراء في الدول

أم القيامة يوم منه مصطلم ... وحل بالشام شؤم غير مرتحل

تعرفت نمنه أعراف العراق ولم ... يترك من الترك عظما غير ....

لم يبق للفرس ليث غير متفرس ... ولا من الحبش جيش غير منخفل

ولا من الصين صون غير متبذل ... ولا من الروم مرمى غير منتضل

ولا من النوب جذم غير منجذم ... ولا من الزنج جذل غير منجذل

وسل بالغرب غرب السيف إذا شرقت ... بالشرق قبل صدور البيض، والأسل

ونيل بالسيف سيل النيل واتصلت ... دعوا لنود فكل بالجلاد دخل

وعـــاد كـــل عـــدو عـــز جانبـــه ... منهـــا ومنـــك ببـــذل مـــن مبتـــذل

بذمـــــة الله، والإيـــــمان متصـــــل ... أو مـــن شـــبا النصـــل بـــالأموال منصـــل

ألســت أكــرم مــن يــمشي عــلى قــدم ... مــن البريــة فــوق الســهل، والجبــل

وأزلـــف الخلـــق عنـــد الله منزلـــة ... إذ قيـــل في مشـــهد الأشـــهاد، والرســـل

قـــم يـــا محمـــد واشـــفع في العبـــاد وقـــل ... تســمع وســل تعــط واشــفع عائــداً وســل

والكوثر الحوض يروي الناس من ظماء ... يـــرح وينفـــع مـــن لا يحجـــج الغلـــل

أصـــفى مـــن الـــثلج إشراقـــا مذاقتـــه ... أحـــلى مـــن اللـــبن المضروب العســـل

تحلتـــك الـــــود عـــــلى إذ نجلتكـــــه ... أحيـــا بحبـــك منـــه أفضـــل النجـــل

يـــا خـــالق الخلـــق لا تخلـــق بـــما اجترمـــت ... يـــداي جهـــدي مـــن حـــوب، ومـــن زلـــل

فـــما بجلـــدي لنضـــج النـــار مـــن جلـــد ... ولا لقلبـــي بهـــول الحشر مـــن قبـــل

وأصـــحب وصـــل وواصـــل كـــل صـــاخة ... عـــلى صـــفيك في الإصـــباح، والأصـــل

وقد أبدع فيها ناظمها غاية الإبداع وانصدع عجزها عن صُبح البلاغة أي انصداع وبالغ في الثناء على بلاغتها العبدري في الرحلة وملأ بمدحها وطابه ورحله، وأولع الناس بها في تلك الأرض شرحا، وتخميسا، وتصديراً، وتعجيزاً، وأحضروا لنا لها شرحا حافلاً في أربعة أجزاء، وهي جديرة بجميع ما ذكر لجمعها من/ ٧٩/ أنواع البلاغة، والفصاحة ما لا يكاد ينكره منكر.

وأقمنا ببوزر الجمعة، والسبت، وقد قال الرحالون أن توزرا أكثر بلاد الله سرقة وخطفاً، وأهلها أعظم الناس لجناء الأوزار في النهب. والاختلاس فإنهم يسرقون ليلا ويخطفون بالنهار فل أن يسلم من إذا هم أحد من الحجاج، أو الزوار جراة على عباد الله وعدم مبالاة بعذاب الواحد القهار.

وقد ارتحلنا منها صباح الأحد بعدما قضى الأوطار منها كل أحد وسرنا فظللنا في نخل كريز، وهي قرية حازت بكثرة النخيل، والماء مزيا، وأي ميز، ومنه سرنا بقبة أشرقت بين تلك النخيل، ولا إشراق الهلال معزوة لمولانا الشيخ أبي هلال فأخذنا في زراته، والتوجه إليه.

وسألنا الله تعالى من خيراته الدنيوية، والأخروية وبه عند الوقوف عليه، وتجاوزناه وبتنا حواليه وارتحلنا متجنبين السبخة العظيمة الهائلة المتغولة الموصوفة في الرحل المصرح بأنها ساخت بركب عظيم فغرق فيها بوسطها من الوحل حتى صار بعد العين أضعف من الأثر وشاع باستيلاء السبخة على الأركاب الأثر.

وتركناها يمينا لقرب عهدها بالأمطار مخافة أن تحول أوحالها بيننا وبين الأوطار وبقينا نجنبها مسيرة يومين لما صح من تغولها على داخليها زمن الشتاء بلا مين، وكان الناس على غير وثوق في وجود الماء في تلك المفازة اليهماء فامتن الله سبحانه علينا بكثرة المياه، والأنوار بين تلك الأنجاد، والأغوار أنها متدفقة، وأزهار متفتقة ومرعى خصيب ومسعى حاز من الشكر أوفى نصيب فيا ما أوسع هذا الفضل العظيم ويا ما أحق المنعم منه بالإجلال، والتعظيم.

وارتحلنا يوم الأربعاء فظللنا قبالة حامة قابس، وهي قرى متصلة عند انتهاء تلك البسابس حازت من النخيل أعلاها، وأطولها، ومن المياه أحلاها، وأطولها وماؤها أشد حرارة وسخنة من الحامة التوزرية ومنافعها أعم من تيك فلذلك كانت عليها زرية وسرنا بعدما زرنا من أمكن زيارته من المشاهد وسألنا الله لنا ولكل غائب وشاهد ونزلنا بعد/ ٨٠/ اصفرار الشمس قرب ضريح الشيخ سيدي هريش فبتنا من معين عينه الزلال في أرغد عيش.

وارتحلنا يوم الخميس فأصحبنا على قابس ودخل يقبس أنوار مقضياته منها كل قابس وخرج لملاقاتنا منها ناس كثيرون وفيهم جماعة من التونسيين جاءوا ليركبوا معنا ظهر البسابس وظللنا تحت ظلال نخيل وارفات بين عيون جارية ونباتات وارفات، ثم

مررنا بمارت، وكانت الإبل تقدمتنا وسارت فزرنا من أمكننا زيارته من صالحيها كسيدي سالم قبيله وسيدي عبد الله المغربي.

ووقت العصر وصلنا عرام، وهي قرية صدرت رمية عمارتها عن مرام فزرنا مقبرتها الحفيلة المشتملة على قباب لم تزل بكل خير لقاصدها كفيلة، وقد سمي لنا أربابها جماعة ممن شملته حبابها.

فمنهم سيدي عبد الرحمن بن جابر وابنه سيدي علي وحفيده سيدي يحيى وسيدي عبد اللطيف وسيدي محمد بن يحيى وسيدي الزيتوني وسيدي زين العابدين وسيدي بو عزة وسيدي إبراهيم بن عمر وسيدي سالم الصيد وسيدي يحيى بو مسيلين وسيدي يحيى بو عزة وسيدي بلقاسم بن الطاهر وسيدي علي بو مسيلين وسيدي بلقاسم بن عبد العزيز هؤلاء السادات كلهم حماونه كما حدثنا بذلك جماعة من أهل البلد وسيدي سيدون المراكشي أفاض الله من بركاته علينا وعلى جميع المسلمين ونفعنا بالوقوف على مقبرتهم الحفيلة آمين وسرنا فتنا بوادي السمارة على غير عمارة.

وارتحلنا يوم الجمعة فتجاوزنا الشيخ أبا عزيز، وما قبله من الغدران الملحة الغرارة فنزلنا للاستراحة قبالة جربة لننتظر من أهلها من له في السفر بلا إربه وبقينا نتأمل على العبد في بحرها المواج وسفنها تترائى لنا بين تلك الأمواج حتى صلينا الظهر، والعصر وورد علينا منها جماعة بقصد السفر للحرمين ومصر وسرنا حتى أرخى الليل سدول الظلماء وبتنا على غير ماء.

وارتحلنا فوصلنا ضحى ماء نبش الذيب في أرض قفراء لا ثعلب فيها، ولا ذئب استولى على الأبنية التي حواليها الخراب/ ٨١/ وصاح في جوانب حافاتها البوم، والغراب ومررنا بعد ذلك بعقلة آبار تسمى البحيرة فألفينا ماءها لردأته ولملوحته يترك شاربه في حرة وحول هاتيك العقلة حلة من أعراب بني مريم ما فيهم إلا من تلقانا بالترحيب، وقال مهيم ووصلنا إلى بئر يقال له المويلحة فوجدنا بهاء ماء ياما أبرد وياما أغزر وياما أعذبه وياما أميلحه فجددنا من ذلك الماء النمير الطهر، وأدينا صلاة الظهر،

وتجاوزنا، وأيدي قسى فارغاً من الماء وبتنا بعده بكثير في كلأ ونعماء وارتحلنا يوم الأحد فبادر للاستقاء من ابن مردان كل أحدعلى مائه من الملوحة، والرداءة التي تهيج في الأعضاء داءه.

وقد رأينا في نواحيها من الآثار التي استولى عليها الاندثار وعظيم الأبنية، والمقابر، والقباب الذي جاوز بباب وعالي الجوامع وعالي الصوامع ما ينهئ عن تقدم عمران عظيم كان بتلك الساحة الفيحة المساحة وسرنا حتى قربنا منبرج الملح وبتنا على غير ماء عذب، ولا محل.

وارتحلنا في السحر مبادرين إلى الماء لكثرة ما كان في الركب من الظمأ فوصلنا البرج مع طلوع الفجر ونزلنا على شفير البحر فتوضأنا واغتنما ما في أول الوقت من الأجر وسرنا فحصلنا الزوارات الغربية عند ارتفاع النهار ونزلنا ريثما سقينا من آبارها العذبة الباردة الصافقي الفائضة، ولا فيضان الأنهار واشترينا من أهلها الزبيب الشرقية ظهرا فصلينا بها وركبنا من الجادة ظهرا وبتنا قرب مليته وارتحلنا وكل واحد يحد، وأماليه فأتينا مليته مع الشروق وعجلنا لسيدي أبي عجيلة لننال من بركته ما يروق.

ومنه وصلنا قرية زواغة فصلينا فيها الظهر بعدما توضأنا من مياهها الصواغة وعاينا فيها من آثار العمران، والبنيان الظاهرة للعيان ما يبهر العيون ويقف الأعيان.

وفيها مسجد مشتمل على أساطين فائقة وهيئته في العيون رائقة/ ٨٢/ غير أن في قبلته انحرافات للمغرب على ما كان فيه من الوصف المغرب.

ومنها بتنا في الزاوية فتلقانا أهلها بالترحيب، وكانوا لبيتوتنا زاوية وظعنا منها يوم الأربعاء فظللنا نسير في ظلال الزياتين، والكروم، والتين حتى وصلنا قرقارش قبل الزوال، وأخذنا في النزول فيه، وتركنا الذهاب منه، والزوال لنملأ الراحة بالراحة ويكون دخولنا لطرابلس صباحا بعد الاستراحة وورد لملاقاتنا جماعة من الحجاج لمغربين وغيرهم من أهل طرابلس المقربين.

ذكر دخولنا لطرابلس المستظرفة الشاملة لأنواع الفواكه، والتحف المستطرفة:

دخلنا طرابلس الظريفة ذات الفواكه المنوعة، والظلال الوريفة صبيحة يوم الخميس الخامس، والعشرين من شعبان فألفيناها أزهى من دمشق وشعبان وَحُسنا خلال ديارها، وأشرفنا من شرفاتها على تيارها فإذا هي مدينة صغيرة المساحة خصبة الساحة كثيرة الفواكه ليس لها في زيها ولطافتها مشابه، ولا مشاكه ولها بابان باب إلى البر وباب إلى البحر لأن البحر محيط بكثير من جهاتها، والحصار الذي فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية باب البربينة وبين البحر، وقد شاهد أهلها بركة عظيمة في أمر معاشهم وقت الحجاج فقد يجتمع فيها الركبان، والثالثة، والأربعة ويكون عسكر البحر خارجا في البحر بعض الأحيان ومع ذلك لا يزيد فيها السعر على ما كان في كل مطعوم بل ربما نقص مع أنه معروف بالغلاء بالنسبة لأرياف النيل، والمغرب غير أن في الطحن بها غاية المشقة إذ رحاؤهم إنما تدور بالإبل فتبطئ في الدوران.

وفيها من المساجد الأنيقة المليحة المشتملة على الأبنية الفائقة الوسيمة ما في مرآة البديع نزهة للناظر بين المناظر، ولا سيما المسجد المعروف بجامع الترك فإنه ما ترك شيا من المحاسن البديعة إلا حاز عجيبه وبديعه.

وزرنا فيها من المشاهد المزارة ما نسأل مولانا أن يمن بالعقول على من قصده أوزاره ويحط بتركته مأثمه، وأوزاره، وأصبحت الجمعة فتوجهنا لصلاتها واغتنام صلاتها ودرجنا مع من درج لإيقاعها في جامع/ ٨٣/ الدرج فرقي المنبر إمامه المسن الخير الأكبر الشيخ أبو محمد عبد القادر الحنفي، وأبدى خطبة رائقة رقيقة جمعت لطيف الوعظ ورقيقة.

وقد رأينا فيها من الأعلام من تروق بحلاهم الأقلام فمنهم صدر الأفاضل المتحلي بأسنى الفضائل، وأسنى الفواضل المتحلي بالكرامات لكل فاضل الفقيه البارع النبيه العالم المشارك الذي ليس له في مشاركته شبيه الأديب الماهر الذي أزرت لطافة آدابه برقة

ابن النبيه الحافظ الراوية الذي ما برح يدون ما يسند من العلوم ويرى إخوانا ومحبا الأعز علينا أبو عبد الله محمد بن علي المعروف بابن الأصرم القروي أدام الله بهجته، وأبقى مهجته ومع مساواته لنا في الاغتراب وحلول غير التراب مع غير الأتراب.

كان يبالغ في إكرامنا بأنواع الطعام، والشراب، وأخذ في الرغبة في تأنيس غربتنا، وما تأنى، ولا استراب، وأظهر لنا من المحبة الصافية، والخلة الوافية ما نسأل الله تعالى أن يكافئه عليه ويبعثنا وإياه يوم القيامة بالنظر إليه.

وكانت تقع بيننا في أنواع العلوم مباحث يستحسن الخوض في بحرها بفلك فكره وكل باحث، وقد حمله صادق المحبة وحسن السيرة وصفاء المودة، والسريرة على أن خاطبني بقوله:

قَسماً بمن أولاك أرفعُ منصبِ وبها حويت من البيان المعربِ

ما شنفَ الأذانَ مثل فاصحة أذنت بِفَضْلِ محمد بن الطيبِ

شَرُفت به فاسُ وَحُقٌّ لها العلا فلذاك أَضحت بيتَ فضل المغربِ

وكتبت خاطبته بأبيات أظن صورتها، والله أعلم:

قسماً بمكة، والحطيم وزمزم والركن، والبيت الشريف الأعظمِ

ما إن سَمعت بمشرق، أو مغرب كلا، ولا في الروم، أو في الديلمِ

مثل الفقيه البارع اللسن الأديب اللوذعي محمد بن الأصرم، وكان ينشدني من المقطعات البديعة الحائزة مستحسن الأدب وبديعة ما يدل على نورانيته بدره وإشراقة ذكائه وعلو همته وحسن ذكائه وكنت أثبت منها ما عدت عليه يد الإضاعة وحسده ريب/ ٨٤/ الزمان فأتلفه، وأضاعه غير أني تذكرت من ذلك السماع بيتان علقا بالأسماع وهما:

إِنَّ لـذي أدي يرضى بمنقصة ولم يكن مِثْلَ بَازِ فَوق قُفازْ

يوما بمصر ويوماً بالشام وبا لعراق يوما، وأياما بشيرازْ

فنسأل مولانا سبحانه أن يجمعنا به مرة أخرى لنظفر بتلك الآداب التي لم تزل لأولي الألباب غنيمة وذخرا، وقد سألني عن لفظ طرابلس التي لم تزل وكيف يضبط وعن لغاته الثلاث فأجبته بأنه يقال أطرابلس بالألف في أوله وبحذفها مع ضم الموحدة، واللام معا، وقد تسكن اللام وبعضهم يفصل فيقول طرابلس هذه الغربية إنما يقال بغير ألف فقط وذات الألف هي الشامية، والله أعلم فاستحسن ذلك.

ومنهم الفقيه الخير المسن الأتقى المستمسك من الديانة، والمروءة بالعروة الوثقى الشيخ أبو عبد الله محمد المكنسي المشهور بالفتوى في تلك الأقطار منذ أعوام بين الخواص، والعوام.

ومنهم الفقيه النبيه النبيل الذي سلكت فتاويه العلمية في كم من يشيل واتخذت المروءة، والصيانة ربعه مربعاً للمبيت، والمقيل الشيخ أبو عبد الله محمد بن مقيل.

ومنهم الفقيه المشارك في أنواع المعقولات الذي عجزت عن تحصيل مباحثه الأصلية، والفرعية المقولات نادرة الأوان الشيخ أبو محمد عبد العزيز مروان.

ومنهم الفقيه الفاضل الذي حاز أفاضل الأخلاق، وأخلاق الأفاضل الشيخ أبو العباس أحمد بن الصغير، وقد أكرمنا في داره مراراً، وأمر علينا كراماته أمراراً.

ومنهم الفقيه الخطيب وغصن الفصاحة الرطيب الشيخ أبو العباس أحمد كنت الخطيب بجامع الترك الأعظم، وقد صلينا معه الجمعة الثانية فأبدى خطبة بالغ فيها في أمر الحاج وعظم مع فصاحة المنطق وانطلاق اللسان، والإتقان في تحكيم الألفاظ، والإحسان.

ورأينا غير هؤلاء من مطاق الطلبة زيادة على الأعيان لكن حال بيننا وبين إثبات ذكر أسمائهم النسيان، وأقمنا نحو التسعة أيام، وتأهبنا للتقوية على السفر، والصيام./ ٨٥/

ذكر خروجنا من طرابلس، وتوجهنا لجبال برقة المزرية برضوى و ....

كان رحيلنا منها بعد صلاة الظهر من يوم السبت الرابع من شهر رمضان الذي هو أكرم شهر فنزلنا بآبار قبل تاجورا وبات معنا جماعة ممن خرج لتوديعنا من الأصحاب

وغيرهم مبروراً مأجوراً.

وارتحلنا يوم الأحد فرجع من أهل التوديع كل أحد ومررنا بتاجورا عند الصباح ووقفنا لزيارة من أمكنت زيارته من مشاهدها الصباح، ثم مررنا بوادي الرمل، ثم بوادي المسير بعد أعمال أنواع الذميل، والمسير وكلا الواديين وصفه أبو سالم بكثرة الخصب، والنعماء وجزالة الحطب وغزارة الماء وبتنا بقرب موضع يسمى توزعت، وهو المعروف الآن بوادي التوتة، أو التوت وسماه أبو سالم وادي ينوت.

وارتحلنا فأصبحنا بذلك الوادي ومررنا بها حوالي النقازة من الأطواد وظلنا بروضة الشيخ سالم القلعي نستظل بظل سرحه الظليل ونسأل الله كما في السلامة بحق ذلك السيد الجليل، وألفينا بإزاء الروضة جُبّاً مملوء من الماء النمير فأخذ الناس في الاستقاء منه حتى اكتفى المأمور، والأمير وبقينا هنالك ننتظر مرور الأيام لتعذر تتابع السير بين تلك الجبال وصلينا الظهرين وقربنا من وادي لبدة وبتنا في أنعم عيش، وأنعام عين.

وارتحلنا يوم الثلاثاء فمررنا بقصر البنات المزرية شرفاته برؤوس البنات قمصر قصر عليه السحن، والإحسان وقصر دون وصفه اللسان برعت حجارته في الضخامة، والعظم، وتناسبها، وتناسقها أعجب منها، وأعظم وظلنا سائرين حتى غربت الشمس وبتنا بالبئر المعروفة بمسيلين لمبيتنا بالأمس.

وفي أثناء هذه المراحل السابقة قطعنا الجبل الذي هو منتهى الجبال في تلك البلاد، وهو آخر الجبل الذي لا نظير له في الدنيا طولا وعرضا وحطبا وماء وقرى متصلة وعمران متراكبة وقبائل وافرة غالبها بربر، وأوله من البحر المحيط أطراف السوس الأقصى، ثم يمتد كذلك إلى أن يمر قبل مراكش، وهو المسمى جبل دزنا، ثم يمتد كذلك إلى أن يقارب البحر قرب تلمسان.

ثم لم يزل يساير/ ٨٦/ البحر وإن كان يبعد عنه في بعض المواضع ويسمى في كل بلد باسم وربما تعددت أطرافه فيسمى كل طرف باسم إلى أن انتهى هنا بأطراف برقة.

وقال صاحب تقويم البلدان إنه يمتد من أطراف السوس الأقصى من البحر المحيط إلى أن يبقى بعينه وبين الإسكندرية خمس مراحل.

قال الشيخ أبو سالم، وكان جعل بلاد برقة كلها، والجبل الأخضر منه لأن بلاد برقة مرتفعة على ما يجاوزها من بلاد فزان ونواحيها، والبحر من الناحية الأخرى إلى العقبة الصغيرة وبينها وبين الإسكندرية خمس مراحل، ثم استظهر ما ذكرناه أولاً، وقال أنه الذي اقتر عليه غير صاحب التقويم.

وأقول أن عبارته قريبة من عبارة غيره إذ لا كبير فرق ينهما عند التأمل.

قال أبو سالم وغرب هذا الجبل في كل البلاد بلا مخصبة ذات أنهار وعيون، وأشجار وقبلته صحراء ذات نخيل ورمال من البحر المحيط من أطراف السوس الأقصى إلى آخر برقة.

وفي هذا المحل الذي قطعنا منه آثار أبينة كثيرة.

وفي سفحه الذي يلي ساحل حامد مدينة عظيمة يقال لها مدينة لبدة قد خلت في العصور الأوائل وبقيت آثارها ورسومها قد أكل الشجر كثيراً منها وفيها مبان عظيمة وهياكل جسيمة، وأبراج خارجها مبنية بالحجر المنحوت في غاية الإتقان قد هرم الدهر، وما هرمت، وتعاقبت عليها الأزمنة، وما ثلمت فترى الأبنية مائلة متقابلة على رؤوس الجبال مد البصر بحيث يقضي الحدس أن كل ما كان داخلها كأنه مدينة واحدة إلى البحر، وترى أعمدة الرخام وغيره واقفة في وسط البحر قد أحاط بها الماء بحيث لا يرتاب أن البحر قد أكل الكثير منها.

وفي هذه المدينة ينقل كثير من أعمدة الرخام إلى طرابلس وإلى مصر وغيرهما من البلدان ويقال أن بانيها الملك دقيوس وبعد وفاته تملكتها امرأة اسمها رومية.

وذكر بعضهم أن النمرود لما بنى دمشق بقي ثلاث سنين وبعث ولده، وأمره أن يبني مدينة بالمغرب فبنى هذه المدينة وجلب إليها الماء من وادي كعام في بناء متقن يحار الناظر

فيه، وأثر البناء وممر الماء باقي إلى اليوم متصل من خرق الوادي إلى أطراف المدينة إلا أن ماء/ ٨٧/ هذا الوادي الآن قليل آجن.

ويزعم أهل البلد أن ماء هذا الوادي كان حلوا غزيراً أيام عمارة المدينة، وكان هما يؤثر عند أهلها أنه إذا بدت الملوحة في ماء الوادي فذلك علامة خرابها.

فلما بدت الملوحة فيه أخذ أهلها في الانتقال منه، والله أعلم أي ذلك كان.

وقد ذكر العبدري هذه المدينة في رحلته وذكر أنه وجدها خالية، والذي يظهر أنها خلت قبل الإسلام إذ لم يذكرها أحد ممن ذكر فتوح إفريقية، والله تعالى أعلم بغيبه.

وبعد أن ذكر الإمام أبو سالم خبر هذه المعالم.

قال غربية أخبرني بعض أهل تلك البلدان أن الملك الذي بنى هذه المدينة وقع موتان في عسكره حتى تفانوا، ولم يدر ما سببه فأمر بشق بطن واحد منهم فشق من قلبه فوجد فيه دودة فعلم أن ذلك سبب موتهم، وأمر بصب جميع الأدوية عليها واحداً فواحداً فلم تمت حتى أخرج زيتاً كان عنده في قارورة جاء بها من أرض الشام فصب عليها قطرة من زيت فماتت فعلم أن دواء ذلك المرض أكل الزيت فبعث إلى الشام وجاء غرس الزيتون فأمر بغرسه في تلك الأركان كلها من مسراته إلى سُوسة، وتونس، وأعمالها، ومن تلك الساعة بقي الزيتون في هذه البلاد، والله أعلم.

وبعد هذه الوعار بلد ساحل حامد، وهي بلدة كبيرة ذات نخل كثير ومزارع وزيتون إلا أن نخل هذا الساحل روى لا يدخر تمرة، ولا ييبس إلا بعد إزالة النوى منه فيبقى كقطع الجلد لا قوة فيه، ولا حلاوة، ولا طعم، ولا يفرق بينه وبين لحاء الشجر.

وفي هذا الساحل قبر الشيخ الشهير المآثر، والكرامات الكبير المفاخر، والمقامات سيدي مفتاح، وهو على تل مرتفع بساحل البحر بينه وبين البلد الدعاء عند قبره مستجاب.

وبقرب الساحل وادي تار غلات وفيه آثار سانية فيها قنوات تحمل الماء إلى المدينة المذكورة من عين يقال لها عين كهان وفيها صنعة عجيبة، وأبنية غريبة بحجارة منحوتة

عظيمة تحار فيها العقول كل حجر فيه أربع أذرع فأكثرها منقورة في وسطها متقنا، ومن رأى ذلك استغرب أن تكون قدرة البشر، وأصله إلى ذلك المقدار وعلم أن دهراً فنا أولئك الأقوام جدير بأن يستأصل بقية الأنام من حالة إلى حالة، ومن دار إلى دار/ ٨٨/

وبعد ذلك بلد زليتن، وهي مصل الساحل في النخيل، والسواني وبه قبر الشيخ المشهور بالقوة، والتصريف الغني بكمالاته عن التعريف أبو محمد عبد السلام الأسمر.

قال فيه أبو سالم رجل من أهل المائة العاشرة كثير الكرامات عالي المقامات من أجل تلامذة سيدي أحمد بن عروس نزيل تونس، والغالب عيه الجذب في أول أمره وآخره، وله تصرف قوي، وأخباره في قهر الجبابرة وفك الأسارى من أيدي الإفرنج في حياته وبعد مماته شهيرة، وهو من بلدة يقال لها الفواتر، وأمه مغربية دراوية، ولم تزل هذه البلدة التي هو منها مأوى الصالحين، والعابدين من قديم الزمان تواتر عند أهل البلد أنها لا تخلو من سبعة من أكابر الصالحين قالوا، وهم ظاهرون بها حتى الآن، وليس عليهم سمت متفقرة الوقت بل هم على هيئة العوام في ملابسهم ومساكنهم وحرفهم إلا أنهم قائمون على منهج الشريعة وكل من رام أهل هذه البلدة بسوء يقصمه الله، ولا يدخلها أحد فتجبر، وتكبر إلا أذله الله.

وبلدة الفواتر هذه بإزاء زاوية سيدي عبد السلام قريباً منها بنحو من فرسخ وفيها مزارات كثيرة للأحياء، والأموات.

وقد أظهر الشيخ سيدي عبد السلام من المزارات، والقبور شيئاً كثيراً منها قبر الشيخ مفتاح المتقدم الذكر، وكانت له فرسه ربما تمر بمكان فتبحث برجلها في الأرض فيقول لهم الشيخ احفروا فإن هنا قبر ولي فيجدونه فظهرت بذلك مزارات كثيرة وفقراء الساحل إلى الآن يعرفونها فيقولون هذا من الذين أظهرهم فرس الشيخ.

ولا بدع في ذلك فإن السر في الراكب لا في الفرس، والكرامة للشيخ لا لمركوبه وسر الولاية موروث عن النبوة.

وقد بركت ناقة النبي (ﷺ) في مكان مسجده وعندما دخلت الحرم يوم الحديبية فالله الله إخواني في خدمة الصالحين ومحبتهم، والحرص على ملاقاتهم وزيارتهم، والانحياش إلى ظلالهم وحمى مزاراتهم.

فإن لذلك أثر عجيب في تليين القلوب، وتسخير النفوس وإزالة المطلوب وإذا كان لها تأثير في الحيوانات، والجمادات فما بالها لا يؤثر فيكم معشر الآدميين، وأنتم السادات جعلنا الله من المحبين لأهل ولايته/ ٨٩/ وحشرنا مع حزبهم وفريقهم تحت ظلال علم الرسول ورايته.

وارتحلنا يوم الأربعاء فدخلنا مسراته، وتوجهنا لزيارة الإمام العلامة المحقق في علوم الباطن، والظاهر وسر الله المتجلي في جميع المظاهر العارف بالله، والدال عليه أبي العباس أحمد بن أحمد زروق البرنسي الفاسي حقق الله تعالى نسبتنا إليه فوصلنا إليه جال الظهر، وتوضأنا في السانية التي لجنبه واستفتحنا بصلاة ركعتين في المسجد المتصل بروضته المباركة ودخلناها بما اقتضاه الوقت من الآداب، والوقار.

وأخذنا في قراءة ما تيسر من السور القرآنية كالكهف وطه ويس وسورة الملك غير ذلك من قصائد المديح كالبردة وغيرها وختمنا بوظيفته (رضي الله عنه) في جماعة حافلة من الركب وغيرهم.

وحضرت في ذلك الوقت نفحة ربانية من الله تعالى وابتهل الناس للدعاء، والتوجه إلى الله سبحانه، وأخذ كل يسأل ما يشار ويودع الناس عند قبره أنفسهم، وأموالهم، وأديانهم.

وقد فعلنا ذلك فرأينا بركته وشاع عند الحجاج أن من أودع الله عنده نفسه، وما له لا يصيبه مكروه حتى يرجع ويفعلون ذلك إذا مروا به، أو حاذوه في البحر فيجدون بركته، ولا بدع في ذلك، ولا غرابة فإن الله حفيظ لا تضيع ودائعه.

والأولياء أبواب الله فمن أودع الله شيئاً عند باب من أبوابه فكيف لا يحفظه فيه، والله خير حافظاً، وهو أرحم الراحمين.

فنسأله تعالى أن يمن علينا بالقبول وبلوغ المأمول بمنه وكرمه آمين وكنت خاطبت الشيخ بقصيدة فائقة مشتملة على أنواع من البديع رائعة أولها:

أأحمد في مغناك قد ظلت أحمد ... ومثلك مَنْ يُسدي الندا حين يحمدُ

ولاسيما، والقول منك مصرحٌ ... بذلك في بيتٍ من الشعر ينشدُ

إذا كُنْتَ في ضَيقٍ وَغُمٌّ وكُربة ... فنادِ يا زروق يأتيك أحمدُ

فَهـا نَحنُ وفدُ الله زوار بيته ... وطيبة إذ يدعوا عليها محمدُ

عليه صَلاةُ الله، ثم سلامه ... ورضوانهُ فالأخ في الأفق فَرْقدُ

فَعجل قرآننا بالسؤال لربنا ... ليبلغَ مِنْ كُلٍّ لدى الرب مقصدُ

وتظفرُ في ذاك المقام نجحة ... لها حجة في السبر ليست تُفندُ

وفي روضة المختار نَصيحُ كلنا ... خرجنا عشقنا العودَ، والعودُ

هذا ما علق منها بالبال، وما زال في القلب لفقد الضائع منها وجيب وبلبال، ثم صلينا الظهر بالمسجد المذكور وزرنا خلوة الشيخ التي توفي بها (ﷺ)، وهي أمام المسجد قريبا منه ونزلنا حواليه وقامت هنالك الأسواق العظيمة امتلأت بالشعير، والدقيق، والسمن، والتمر، والأغنام وغير ذلك من كل ما في مآرب الأنام.

وورد علينا جماعة من طلبة البلد وبالغوا بالإكرام جزاهم الله تعالى جزاء الكرام وسألوا عن مسائل علمية تدل على ضعف العلم في تلك الأرض وانقراضه وفشو الجهل في ذلك العرض واعتراضه واستعداد الناس لفازة نحو أربعة أيام وبالغو في استقاء القرب مخافة الأوام.

وارتحلنا يوم الخميس مستقبلين مفازة برقة لأن مبدأها عند الحجاج من زروق إلى مصر، وأما أعراب تلك البلاد العارفون بها فإنها يطلقون اسم برقة على العين في هذه الأزمان على نحو مسيرة ستة أيام من المنعم إلى سوك وفيها آثار أبنية كثيرة.

قال أبو سالم، وأطلاق برقة على ما سواها مجاز علاقته المجاورة.

ورأيت له تقسيما آخر نصه: أرض برقة منقسمة في عرف أهلها إلى أقسام أولها من حسان إلى وراء الأحمر بيومين ويسمى سرت، ومن هناك إلى قرب المنعم يسمى برقة البيضاء، ومن هناك إلى سوك يسمى برقة الحمراء إلى التميمي يسمى الجبل الأخضر.

ومنه إلى العقبة الكبيرة يسمى البطنان، ومن العقبة الكبرى إلى الصغرى يسمى بين العقاب، ومن العقبة الصغرى على الإسكندرية يسمى العقبة الصغرى يسمى بين العقاب.

ومن العقبة الصغرى إلى الإسكندرية فيسمى العقبة الصغرى قال.

وتقسيم العبدري جار على اصطلاح وقته قلت، وهذا التقسيم هو الجاري على اصطلاح زماننا هذا في الغالب.

وأما العبدري فقال برقة مدينة قديمة من بناء الروم، وكان اسمها عندهم الطابليس.

قال البكري ومعناها بلغتهم خمس مدن ومعنى طرابلس ثلاث مدن، وليس الآن هنا مدينة تسمى برقة فغير اسمها إلى طلميشة أم غيرها وبرقة الآن عند الناس اسم أرض لا اسم مدينة.

والمغاربة يسمون بها ما ردت عين قيان من غرب جد أبيه إلى الإسكندرية وذلك نحو من أربعين مرحلة/ ٩١/ .

وأما عرب تلك الأرض فإني رأيتهم لا يسمون إلا مارد الحصون شرقا إلى أرض برنيق غربا، وهو حد الغابة وما، والاها من الساحل، ومن العبلة ويسمون ما رد الحصون إلى القبة الكبيرة البطنان ومنها إلى الإسكندرية لا يذكرون إلا العقبتين.

قلت، وأوله في غاية البعد عن اصطلاح وقتنا، وأما آخره فقريب منه، والله أعلم أعاننا الله على قطع فيافيها ورزقنا القوة التامة فيها.

وسرنا من زاوية سيدي أحمد زروق إلى آخر تلك القرى المتصلة به لأنها آخر العمران هناك، ولا عمارة بعده في طريقة الحاج إلى الإسكندرية.

ومررنا في آخر العمران بقبة الشيخ سيدي أبي شعيفة على تل مرتفع بساحل البحر وزرناه ووقفنا حول المغارة التي هناك بساحل البحر يتعبد فيها الصالحون، ولا يكاد يطلع عليها أحد إلا من عرفها لأنها صغيرة مستقبلة البحر، وتركنا معطن الفريقين بين السبخة، والبحر للاستغناء منه بماء القرب وإن وصف أبو سالم بكونه طيبا حلوا.

ووصلنا ظهر الموضع يسمى السميدة بالتصغير وكأنه سمي بذلك لشبه رمله بالسميد مشابهة قامة كما يشهد بذلك كل من رأى حروشة رمله ودقته من الخاصة، والعامة فتفرق الناس فيه، وأخذ كل واحد يحفر مقدار ذراع ويطلع له من الماء ما يكفيه فسقينا من مائها الملح الدواب، وتوضأنا واغتنمنا ما في أداء الفريضة من الثواب وسرنا حتى وصلنا الموضع المعروف بالملف في سباخ مديدة على شاطئ اليم وبتنا في أرغد عيش، وأتم.

وارتحلنا يوم الجمعة فوصلنا عند الزوال الهائشة التي هي كاسمها هائشة أسقطت في غدرانها كم من راكب وعثر في حجارتها الضخمة كثير من الراكب.

قال الإمام أبو سالم، والهائشة سبخة مستطيلة وعلى جوانبها بناء قصور خالية فيها نخيل متفرق كأنه رؤوس شياطين لا ترى أوحش منه، ولا أثقل طلعة على الحاج في ذهابه سيما المعاود لما يستشعر بعده من المفاوز، والمهامة، والمعاطش التي يحار فيها الدليل كما لا آنس منه، ولا أبهى منه في منظر الآيب لدلالته على انقضاء المفازة وقرب العمارة ونخيله آخر نخل يراه الذاهب، وأول نخل يراه الآيب.

وماء الهائشة ملح أجاج لا يكاد يساغ يضرب به المثل في القبح، وليس في مياه/ ٩٢/ برقة أقبح منه إلا مواضع قليلة لا يعتمدها الحاج مع أن هذا أيضاً لا يستقي منه إلا من اضطره العطش.

وكانت أيام الحر وهواؤه راكد في مواضع كثيرة يحيط به القصب وبعضه أشد قبحاً من بعض وبآخر الهائشة واد من الملح يجري الماء على أرض من الملح فلا الماء يجمد ملحا، ولا الملح يذوب ماء، وأظن ذلك لقوة ملوحة الماء ونداوة المحل وحيث وصلنا

الهايشة تفرق للحجاج يسقون دوابهم من مائها الأجاج، وتوضأنا فيها وصلينا وسرنا لوادي الملح المتصل بآخرها المعروف اليوم على السنة الحجاج بالمخاضة فعبرناه بعد لأي ولأي وخضناه فيمن خاضه وسرنا حتى غربت الشمس.

وأخذ أول الركب في النزول، ولم ينزل آخره حتى زال الشفق، أو كاد يزول وارتحلنا يوم السبت فجثثنا السير ومررنا بين الظهر، والعصر بقبر الشيخ المشهور بالصلاح في كل عصر سيدي بو مديونة من أولاد الوافي من يسار الذاهب مشرفا فزرناه وسرنا حتى وصلنا مطرو وبتنا حواليه لاحتياج الناس إليه ومطرو بئر كثير المياه خصبة الساحة للأنعام، والشياه قضى المحتاج من مائها أربه وحلت بغزارتها للظمآن أربه ورويت البهائم، ولم يبق في الناس هائم، وألقينا بقربه محلة عظيمة من الأتراك يقول رأسها لصاحبه تراك تراك قيل لنا إنها جاءت لنهب بعض قبائل الأعراب دون إعراب فعلمنا أن الجور عام في العالمين وسألنا الله تعالى أن يقطع دابر الظالمين بجاه الرسول (ﷺ) آمين.

وأعراب تلك البلاد يعرفون بالفرجان، وهم أصحاب سمت حسن، وأخلاق أزهى من اللؤلؤ، والمرجان وورد علينا منهم طلبة يقرؤون مطلق القراءة فأخذوا يتبركون بكل أحد ويسألون دعاءه.

وارتحلنا يوم الأحد فدخلنا بلاد سرت وسار الناس جادين في السيرت وسرت، وتركنا الزعفراني يسار الحيد ودقه عن الطريق واستغناء الناس عنه بما في القرب من الماء الرحيق.

قال أبو سالم ويعطن الزعفراني أحساء في ساحل البحر ماؤها طيب وعليه كثبان من رمل أحمر يظهر من بعيد من وراء الكثبان من ناحية البر قصور.

وسرت، وهي ثلاث قصور، وتخزن فيها العرب/ ٩٣/ ميرتها، وكانت فيها قبل هذه السنة خاليه، وفي هذه السنين ربما يوجد فيها بحص العمارة فمن تركته العرب على خزائنها حافظاً لها.

وبلاد سرت هذه من أخصب البلاد ذات مزارع كثيرة، وأعرابها أهل رفاهية إلا أن الجور أجلاهم عن بلادهم وشتت شملهم.

وقال في موضع آخر لما ذكر مزارع أولاد سيدي ناصر، وهي بعد الصريحة ما نصه:

وأولا سيدي ناصر فقراء مرابطون من أهل سرت يطعمون من ورد عليهم ومعهم طرف من الديانة، أو أنهم أضربهم جور الأعراب لأنهم بين عرب سرت وعرب برقة فقل ما يسلم لهم وقت من غارة إما هؤلاء، أو من هؤلاء غير أنهم الآن مستظلون بظلال أسمال من العافية.

لما ولي عبد الرحمن الجبالي الملقب سيدروحة على البلاد وقهر الأعراب وقويت شكيمته على أهل البادية فأمنت السبل بعض الأمان فرجع فقراء الأعراب إلى بلادهم وعمرت البلاد بعض العمران.

وتلك سنة الله في البلاد، والعباد إن الولاة وإن جاروا خير من مرج الرعية يعدو بعضهم على بعض فيعم الخراب الحواضر، والبواد وبهذا السبب خلت أرض برقة كلها، وهي مسافة شهرين، وكانت متصلة العمارة من الإسكندرية إلى إفريقية لا تكاد تسير فيها بريداً ليس فيه أثر بناء ورسوم عمارة دائرة.

وقد جاء الإسلام وغالبها عامر، ثم لم تزل عمارتها تضعف إلى أن خرج عرب هلال من مصر أواخر الرابعة، وأوائل الخامسة فخربوا البلاد واستولوا على القرى فأفسدوها وخلت البلاد من يومئذ، وما صرح به من كون سرت أرضاً، ولا مدينة هو المعروف المتداول.

وأغرب البكري فنقل أنها مدينة ونقل ذلك العبدري فقال وسرت يطلق على عدة قصور بيها مسافة أولها الشبيكة، وهو أعمرها في الوقت وآخرها يسمى المرية، وأكثر ما يطلق اسم سرت عليها وحكمها كلها حكم القفار.

وقال البكري في المسالك إن سرت مدينة كبيرة على ساحل البحر لها نخل وبساتين وذكر نحو ذلك في أجدابية، وأنشد البكري في سرت:

يـــا سرتْ لا سَرَتْ بـــكِ الأنفـــسُ لســـانُ مـــدحي فيـــك أخـــرسُ

ألبســـتم القـــبح فـــلا منظـــر يـروق مـــنكم لا، ولا ملـــبسُ/ ٩٤/

بخســـتم في كـــل أكرومـــة وفي فَعـــالِ القـــبح لم تبخســـوا

ومررنا في وقت الظهر ببئر قرب القصر المعروف بقصر الذباب، وهو قصر استولى عليه يباب وناداه الخراب من كل باب فتفرق الناس يبالغون في الحيلة، والتدبير في كيفية الاستقاء من تلك البئر فمنهم من تيسر له من مائها الملح سقي الدواب.

ومنهم من رأى إن ترك ذلك هو الصواب لما في مناولته من المشقة وبعد الشقة وعدم الوفاء بالأغراض وعمق البئر وملوحة الماء الداعي إلى الصدود عنه، والإعراض فقضينا من أرب الطهر، وأوفينا من صلاة الظهر وحثثنا السير، وقد اشتد الحر ونزلنا بعد أن اسود جنح الليل واحمر.

وارتحلنا يوم الاثنين قاصدين معطن النعيم الدال باسمه على غاية التنعيم فوصلناه في العصر بعد إعمال السير النعيم.

والنعيم معطن على ساحل البحر دل اسمه على مسماه وفاق بمائه العذب غيرة من المعاطن، وأسماه، ولما وصلناه بات الناس في سعة من الماء، والمرعى، والحطب، وأخذوا في استقاء الدواب وامتلاء القرب واستعدوا للمفازة التي أمامهم؛ وهي ستة أيام إلى المنعم إذ لا ماء بينهما يعتد به ويقضى منه الأدب إلا ما يعرض من الآبار الملحة القليلة الجدوى المحدثة في الأجسام أدواء لا تتداوى منها ولكن تدوى، وقد وسف أرباب الرحل هذه المفازة بكثرة السموم، والرياح التي هي أحر من السموم أجارنا الله من جور سمومه، أو عصمنا من ذوات سمومها بمنه وفضله.

وارتحلنا يوم الثلاثاء فمررنا ضحى بمعطن الأحمر ونزلنا بئر العويجة بقصد المبيت، وقد نثرت الشمس على الرمال ذهب أصيلها الأحمر.

وارتحلنا يوم الأربعاء فمررنا ضحى بالرحبة وقلنا في فلاة رحبة وحولنا رجلة من

البحر داخلة في البر تسمى أبا ثواد عادة الحجاج فيها اصطياد السمك بالقصب، والأعواد ووصلنا إلى بئر الكحيلة فبتنا حواليها تلك الليلة، ولم ينتفع أحد من الحجاج بمائها القليل الأجاج.

وارتحلنا يوم الخميس فظللنا بالحدادية، وهي بئر كالكحيلة في قلة الماء، والجدوى وإن تكلف البعض/ ٩٥/ وسقى منها الدواب، وما أروى وبقي الناس يستريحون في واديها وسارت الإبل تهدي أمامها هواديها وصلينا الظهر فيها، وأخذنا في طي ما حولها من فيها، وكانت تتراءى لنا عن يسار الذاهب مشرقا آثار قصور ضخام، وأبنية عظيمة مرصوفة بالحجارة المنحوتة، والرخام بالغ في إتقانها بانيها ودلت على أمر عظيم مبانيها وذلك كله خرب واندثر، ولم يبق منه سوى الأثر ولله الأمر من قبل، ومن بعد وبيده سبحانه تصاريف الأمور، وأمور الحر، والعبد.

وأتينا سبخة مقطع الكبريت بعد ذلك فبتنا هنالك وسمي هذا الموضع مقطع الكبريت لأنف في أعلا السبخة معدن الكبريت في آبار وعيون كالمرج يحمل منها كالطين، ومن هناك يحمل إلى طرابس وكذلك إلى مصر، والإسكندرية ويذهب منها مع الركب إلى مصر في كل سنة أحمال كثيرة لأن العرب الذين يحملون بالكراء من مصر إلى طرابس للحجاج إذا رجعوا حملوا على ما فضل من إبلهم عن الكراء كبريتا ويتقدمون أمام الركب بيوم إذا شارف هذا المحل، ثم يلحقون الركب في المنعم بالقرب، والجلود مملوءة بذلك ويتركونها إلى أن تجمد لتتداوى بها الغبل الجربة فقد ذكروا أنه لا أنفع منها لجرب الإبل قيل وكذلك جرب الآدمي أيضاً فإنه ينفعه جداً.

وإذا أردوا المداواة به حلوه في شيء من الماء وطلوا به الجرب فيذهب بإذن الله تعالى الباهر الحكمة الواسع الرحمة.

وارتحلنا من مقطع الكبريت فنزلنا المنعم كيما نتفكه بمائه العذب ونتنعم، والمنعم معطن عظيم مشتمل على أحساء كثيرة لا تكاد تعد في وسط كثبان من الرمل على ساحل

البحر وماؤها عذب طيب فُرات، ولا سيما الآبار التي في حيز المشرق فإنها فاقت في العذوبة وكلما انحازت إلى الغرب ضعفت حلاوتها قدرة الملك القدير المنفرد بالتدبير.

ومن المنعم بتنا بالمصانع، وهي غدران مصنوعة بين كثبان الرمل من غير صانع وارتحلنا نعمل السير الحثيث المديد فوردنا في العصر آبار الحديد، وهو معطن آباره منقورة في صفاح الحجارة ومياهه جاوزت الحد في الحلاوة/ ٩٦/ ، والغزارة مع سهولة المآخذ وقرب التناول من تلك الأوجه فطفق الناس يسقون ويستقون من مياهها الفائضة الرابية خشية الازدحام في الأجدابية، وتوضأنا منها وصلينا العصر حواليها.

وقصدنا الأجدابية فوصلنا من الاصفرار إليها قال الإمام أبو سالم، وفي هذه الجابية آثار عمارة كثيرة وآبار عظيمة منقورة في الحجر وبنيان هائل بالحجر المنحوت وهناك رمم مسجد قديم تهدم.

ووجدنا في بعض حجارته تاريخ بنيانه منقوش سنة ثلاثمائة.

قال، وأخبرني شيخنا سيدي محمد بن مساهل عن بعض المشايخ أن الإمام سحنوناً كان مدرساً بهذا المسجد ثلاث سنين، وهذه المدينة هي مدينة برقة المذكورة في كتب الفقه.

وقيل إنها مدينة بالجبل الأخضر في الجانب البحري، وأستغرب هذا القول من جهات منها ما يذكر أن بها قبر أحد الصحابيين الذين ذكر المؤرخون أنهما بها وهما رويبع بن ثابت بن السكن الأنصاري البخاري لأنه دفن بها لما كان أميراً عليها من قبل مسلمة بن مخلد وزهير بن قيس البلوي ندبه عبد العزيز بن مروان إلى برقة فلقي الروم فقاتل حتى قتل في برقة.

ومنها ما يذكر على ألسنة الفقهاء أن بين برقة وبين كل من مصر وإفريقية نحو الشهر، وهذا تشاركها فيه الأجدابية أيضاً لأن بينها وبين المدينة التي بالجبل الأخضر نحو من خمسة أيام.

ومنها أن التي في الجبل أقرب إلى مسمى المدينة لما بإزائها من المياه، والأماكن المخصبة، والمزارع الكثيرة، والقياض الملتفة من أنواع الأشجار بخلاف الأجدابية فإنها في صحراء من الأرض، والله تعالى أعلم بغيبه.

وقد سبق لنا أن مسمى برقة على التعيين عند عرب البلد اليوم هي مسيرة ستة أيام من المنعم إلى سلوك وفيها رسوم أبنية كثيرة.

وأن إطلاق برقة على ما سواها مجاز علاقته المجاورة. وهذا يقوي أن مدينة برقة هي الأجدابية وذلك المسجد الذي ذكره أبو سالم هو باق إلى الآن من أشهر المعالم. وبإزائه قبر محوط عليه بالحجر يزار يقال لصاحبه سيدي يونس، وهو من عرب الفواخر.

وقد ذكره أبو سالم/ ٩٧/ أيضاً ومرت عبارته في تسمية هذا المكان بالجابية، وهو سهو لأنه لا يعرف في برقة أرض، ولا مدينة بهذا الاسم وإنما اسمها الأجدابية كما في القاموس وغيره، والله أعلم.

وفيما بين الجديدة، والأجدابية آثار أبنية عظيمة وقواعد مدن هائلة جسيمة مبنية بالحجارة المنحوتة المحكمة الصنعة، والإتقان وذلك كله صار خرابا بعد عظيم العمران فسبحان المنفرد بالبقاء بعد فناء الخلائق سبحان.

وارتحلنا من الأجدابية وظللنا سائرين في أرض هشة كثيرة الغيران مملوءة بحجرة اليرابيع، والفيران لا يكاد سماها لنا أهلها الشبان فتلقانا أهلها الكهول، والشباب وطلبوا منا المبيت لديهم بقصد التسويق، وأقاموا سوقا حافلة مملوءة بالغنم، والإبل وغير ذلك من الألبان، والسويق، وأعراب تلك الأرض يعرفون بأهل الزاوية، وهم ناس وجوههم طلقة غير زاوية وآثار الرفاهية بادية عليهم غير واهية.

غير أنهم يشكون جور الغارات من الأعراب، والعمال ويزعمون أنهم لا يحصل لهم لأجل ذلك تمام الأعمال أخمد الله نيران الظالمين، وأذهب الجور من العالمين آمين.

وارتحلنا، وقد نظمتنا الفيافي في سلوكها، وأوصلتنا فيما بين الظهرين معطن سلوكها وسلوك معطن كالأجدابية في الماء وقفر الآبار في الحجارة غير أن ماء سلوك أشد عذوبة

وغزارة في رأينا أعذب منها، ولا أغزر، ولا أشد حلاوة، وأكثر بحيث تكفي الأركاب العديدة، ولا تتأثر مياهها الوافرة المديدة.

وأخذ الناس يستقون من كل بير حتى مضى من الليل جزء كبير، وكان الناس ينتظرون أعراب تلك الأرض ليقضوا من إقامة السوق معهم نافلة السفر، والفرض فلم يظهر لهم آثر وكنا وجهنا إليهم من يخبرهم فيا وقف آخر عليه، ولا عليهم، ولا عثر.

وأخبرنا بأنه مرض في الطريق فبقي لا إلى هؤلاء الفريق، ولا إلى هؤلاء الفريق، وهذا المورد هو آخر برقة الحقيقية كما مر.

وتسمى برقة الحمراء، وهي بمرأى من الجبل الأخضر وبإزائه آثار أبنية عظيمة وإن كانت أبنية الأجدابية أكثر، والعادة أن أهل ابن غازي يتلقون/ ٩٨/ الركب بأنواع الفواكه، والخضر وكأنهم لم يصلهم إن الركب هناك قد حضر مع كون الرسول المبعوث إليهم وإلى الأعراب عاقه المرض عن استيفاء المقصود منهم، والغرض.

وابن غازي مرسي حسنة بسفح الجبل الأخضر بينها وبين سلوك مسافة يوم وفيها عامل وعسكر لصاحب طرابلس.

وفي تلك المرسى تصب أودية السمن، والعسل، والشحم، والودك من الجبل الأخضر الذي لا أخصب منه، ولا أكثر أداما بحيث يكتفي منها أهل تلك النواحي، وتحمل السفن منه أضعافا مضاعفة إلى طرابلس وجربة، وما بإزائها من البلدان.

ومن هذا الجبل غالب إدامهم ولحمانهم مع رخص الأسعار الرخص الخارج الحد بحيث تشتري القناطير من ذلك بالثمن التافه من مزاد، أو عروض، أو غير ذلك وغرائب هذا الجبل وغفلة أهله وجهلهم ورخص الإدام فيه مما هو مشهور معلوم ومع ذلك لا يكاد أحد يستوفيه، وقد ذكر بعض هاتيك الغرائب أبو سالم رحمه الله.

وارتحلنا متوجهين لدخول مفازة السروال الموصوفة بشدة الأهوال فكان لطف الله حاضراً في جميع الأحوال وكنت قلت أبياتاً ضلت عني مباينها وإن كان لطف الله،

وتعويده الخير لعباده في جميع المواطن وسؤاله تعالى أن يكمل علينا في هذا المحل هو المقصود من معانيها فظللنا في فم السروال، ثم دخلناه في قرب الزوال، والناس في وجل عظيم مما يتعادون من شدة بالحر وكثر الأوام إذ لا ماء في مفازته الطويلة مسيرة سبعة أيام فلم نَرَ ما ساء، والحمد لله بل سرنا في برودة تامة ونسيم طيب من فضل الله تعالى وبركة رسول الله (ﷺ)، وأنجى بركته هذا الوفد من جميع الآفات وسلم.

وبتنا بابن قردان، والليل قد ألم وارتحلنا مجدين المسير للمزرب لعلنا نجد به من الماء ما فيه بعض الأرب، وهو واد توجد في جوانب غدران إذا قرب العهد بالمطر فوصلناه في العصر، وما فرغ عهده بالعهاد فضلاً عن كونه قطر.

وبتنا في فلاة يهماء وارتحلنا قاصدين وادي سمالوس لعلنا نجد به شيئاً من الماء فوصلناه بعد ارتفاع النهار فألفيناه جافاً وجوانبه منهال رمالها إليه، وتنهال/ ٩٩/ وقلنا بموضع يسمى الشبيكة حتى طبنا بصلاة الظهر فيها نفسا وبتنا بموضع تسمى الغنسا.

وارتحلنا فسرنا بالمخيلى، أو نخيل، أو مخيليف كما سمعنا كلاً منها، ولم نجد من نقلده في تلك المعارف وسرنا فبتنا يسار العلب الشارف، وهو اسم رابية على تلك الطرقات رابية وارتحلنا يوم الأحد فسرنا في مطر غزير روي من غدرانه كل أحد فبلغنا معطن التميمي قبل الزوال، وهو معطن عظيم تزان بسوقه الحافلة بالأحوال فاجتمع أهل تلك النواحي من كل فج وجاء أهل درنة وغيرهم لتسويق الحج وقامت هنالك الأسواق لا يرى الحجاج مثلها في بيع الفواكه، والخضر، وأنواع الآلاء وضروب النعم، ولا يجتمع في غيرها ما يجتمع فيها من السمن، والأدام، والتمر، والشعير، والدقيق، والغنم مسافة يوم ونصف من غربيه، وكانت خالية منذ أزمان إلى أن عمرها الأندلس قرب الأربعين، والألف، ولم يزالوا بها إلى أن بطروا فأنشبوا الحرب بينهم وبين أمير طرابلس فأخرجهم منها صاغرين بعد وقعة قتل فيها مئون من أشرافهم، وهي الآن في طاعته.

وفيها عامله ومرسى هذه المدينة عجيبة تنزل بها السفن الواردة من الإسكندرية، ومن طرابلس، ومن بر الروم، ولا سيما جزيرة كندية فإن بينها وبين درنة مسافة يوم في

البحر لأنها في مقابلتها، والمعاش في هذه المدينة متيسر كثيراً لجمعها بين البادية، والحاضرة، وأقمنا في معطن التميمي يومين لينال الناس من مطالبهم ويقضوا من مآربهم ما فيه قرة العين ويتوسعون في استقاء أسقيتهم من كل عين.

وارتحلنا منه يوم الثلاثاء في الفجر فظللنا سائرين على ساحل البحر حتى زالت الغزالة ووصلنا إلى عين الغزالة، وهي عيون من الماء العذب على ملوحة فيه تصب في بحيرة منقطعة عن البحر يدور بها القصب من أكثر جهاتها، وليس في برقة كلها ماء يجري إلا هذا فاستقى الناس دوابهم من تلك العين وظلوا تحت ظلال أشجاره في جوانبها حتى أقروا بصلاة الظهرين العين وسرنا في سبخة مستطيلة بين جبلين، ثم خرجنا لأرض طيبة ذات محارث مخصبة/ ١٠٠/ ومزارع متصلة بسواقي صيبة ومررنا في العشية عن يسار الطريق ببيت منحوت في الحي الصلد طولها عشرون ذراعاً في مثلها وبداخله بيت آخر نحو نصفه وفيه غرف صغار وكأنها مخازن وكل ذلك منقور في الحجر الصلد نقراً عجيباً مربعاً كهيئة أحسن ما أنت وراء من البيوت، وله باب مربع كأحسن الأبواب وعند الباب حجرة واسعة منقورة في الحجر أيضاً فتعجبنا من بديع صنعتها وإتقانها ورائع حسنها وإحسانها، وتدبرنا قوله سبحانه: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

وجرى على ألسنة الحجاج تسميته بقصر فرحون، ولم ندر ما أصل ذلك، ولا موجب إحداثه هناك، وقد أطال في وصفه العبدري، وأجاد، وأومأ عليه الشيخ أبو سالم ومررنا قبله ببيت آخر متصل بالأرض قريب من الجبل يسميه الحجاج بالحمام، ولم يذكره أحد من أرباب الرحل.

غير أن العبدري ذكر أنه مر في أيامه ببيت آخر يماثل الأول، وأبدع في وصفه أيضاً وذكر أن له ماء طيب ومراحيض ومطابخ وغير ذلك فلعله مر بهذا الذي مررنا به أولاً، والله سبحانه أعلم، وله الأمر من قبل، ومن بعد.

وظعنا يوم الأربعاء التاسع، والعشرين من رمضان فظللنا بالمدور، وهو ماء جل معدة للماء يتألف فيها ماء المطر، ولا يتغور وسرنا فوصلنا في العصر للشجرات السبع، وهي أنواع مختلطة من الشجر كالرمان، والخروب وغير ذلك في وسطه حفير منقور في الحجر، وتجاوزناها حتى أقبلت الظلماء وبتنا على غير ماء.

وارتحلنا يوم الخميس منعطفين لناحية البحر لنرد منهل الدفنة ونقلد من جواهر مائه كل نحر فوصلناه قبل الغروب، وأنزاحت عنا بتحصيله الكروب، وهو منهل قرب البحر مشتمل على إحساء كثيرة سهلة التناول قريبة المأخذ نحو القامة.

وكل من أراد أحداث بئر حفرها ينبع معه الماء السريانة في ذلك الساحل كله وماؤه من أطيب المياه، وأحلاها، وأعذبها، وأحسنها، وأعلاها، وقد ملأ الحجاج منه أسقيتهم ومتعوا فيه دوابهم، وأوعيتهم.

وورد علينا لهذا المورد طوائف من الأعراب بالسمن، والغنم، والإبل وجاءونا بتمر سوي، وأخذ الناس منه كفايتهم بأرخص سعر وذلك فضل من الله/ ١٠١/ ونعمة، والله ذو الفضل العظيم، وتمر سوي من أحسن الثمار لم نر تمراً يشبه تمر سجلماسة ورعة من يوم خروجنا إلا هذا لوناً وطعماً، وهذا ألطف منه، وأنقى لأن عادتهم أنهم لا يحملونه إلا في قفاف من العزق كل واحة قريبا من نصف قنطار ويجعلون لها معاليق تعلق بها على أقتاب الإبل فيحمل الجمل منها عشراً، أو أكثر، أو أقل على حسب صغرها وكبرها وقوة الإبل وضعفها، وتلك صنعة عجيبة يبقى التمر لأجلها على حاله نظيفاً، ولا يحتاج مشتريه لغرارة وليت أهل مغربنا يفعلون مثل ذلك.

وقد ورد علينا لهذا المنهل قوافل من الإبل بهذا التمر حتى تنعم بشرابه المأمور وذو الأمر، وأصبحنا في الدار يوم الجمعة من شوال ريثما أصلحنا الهيآت، والأحوال وارتحلنا متأهبين لإقامة سنة العبد فمررنا غير بعيد، وكان شيخ الركب طلب مني أن أنوي الصلاة، والخطابة فرأيت أن أملأ بالموعظة لاحتياجه إليه وطابه بل رأينا غالب

هؤلاء القوم محتاجين للموعظة، واللوم، والإيقاظ من الغفلة التي استولت على قلوبهم، والنوم.

ولا يمكن التوصل لذلك في غير هذا اليوم مع أن الظاهر من فحوى كلام الفقهاء أنه لا محذور في إيقاعها للمسافر بل ربما يستشعر من أفعال السلف، وأقوالهم استحبابها، والقول بكراهتها عندي وإن اختاره جماعة من الفقهاء ومال إليه شيخنا ابن ناصر في رحلته من الأمور البعيدة، والله أعلم.

وبسط القول في هذا يراجع بصحيحه الفروع إلى الأصول في الأبواب، والفصول.

وبعدما فرغنا من الصلاة خطبت لهم خطبة حافلة جامعة لما يتعلق بالقواعد محذرة مما ألفه الناس من الغيبة، والنميمة وغير ذلك من العوائد مشتملة على الانتداب للحج وذكر فضائله، والأحاديث التي وردت عن النبي عليه السلام في فروضه ونوافله مع قلة الألفاظ وجزالة المعاني السهلة للحفاظ وكنت أثبتها في الرحلة الضائعة لما حوت من المعاني الرائعة، والفصول الجامعة تقبلها الله على الإضاعة وجعلها لنا في الآخرة أنفع بضاعة آمين.

ولما انصرفنا من الصلاة انحاز كل فريق لفريقه، وأظهر في طريقه حسه طريقه، وأحضروا من أنواع الأطعمة/ ١٠٢/ المختلفة الألوان ما لا يجمعه إيوان في مثل ذلك الأوان مما لا يتفق في الأمصار، والحواضر، وأوسعوا من ذلك كل حاضر تقبل الله الأعمال وبلغ الآمال بمنه وكرمه.

وبعدما استرحنا في ذلك المكان أعملنا السير فبتنا في فضاء من أرض بطنان، وكان يقربنا قبر يزار يقال لصاحبه سيدي عزيز، وهو من عرب سمالوس تأتيه الأعراب بإبلهم وغنمهم فيمرون بها بين كومين هناك ويزعمون أن من مشوا بها هناك لا تصيبها آفة في تلك السنة وربما اقتدى بهم بعض الحجاج فيفعلون مثل فعلهم.

وظعنا يوم السبت فأتينا العقبة الكبيرة في وقت الظهيرة، وهي عقبة مشرفة على البحر وعرة ذات حجارة عظيمة ترجل فيها الناس كلهم ولحقهم فيها تعبهم وكلهم.

وبقينا تحت العقبة على ساحل البحر ريثما سرحنا وصلينا الظهر، والعصر وسرنا فوصلنا في المغرب منهل المقرب، ولم يصل آخر الركب حتى غاب الشفق وغرب فتفرق الناس بين هاتيك التلال يستقون من مائه العذب الطيب الزلال.

وفيه بتنا عن يمين الخشومى في موضع يقال له حوز البقر وربما سماه بالعش بعض من بحث عن اسمه ونقر.

وارتحلنا يوم الاثنين فظللنا سائرين في بلاد مشتملة على مآجل كثيرة وآثار عمران عظيم، وأبنية دائرة أثيرة وبتنا في فلاة يهماء على غير ماء.

وارتحلنا فأصبحنا في وقت الضحى بمورد جرجوف، وهو معطن على شاطئ البحر معروف مياهه كثيرة وآباره كبيرة وغالبها عذب طيب المذاق، والقليل رديء لا يكاد يذاق مع شدة مقاربتها ومحاذاتها واتحاد تربتها في ذاتها صنع الفاعل المختار الذي يخلق مايشاء ويختار فتفرق الناس على الآبار يسقون البهائم، والإبال، وأقبلوا على امتلاء القِرَب كل الإقبال وجددنا في إحسائها الطهر وصلينا به الظهر وسرنا حتى وصلنا في المغرب بجلازين، وهو واد لا ماء برمله اليابس وبتنا فيها حواليه من اليابس.

وارتحلنا يوم الأربعاء فمررنا بأبي خلاق، وهو اسم ولي قديم الوفاة مشهور من أولياء الملك الخلاق، وألفينا بقربه ما جلا عظيما مملوءاً بماء المطر فبادر إليه من احتاجه وقضى منه الوطر/ ١٠٣/ ؛ ثم مررنا بوادي الرمل بعد ذلك، وهو واد عظيم تكنف حافات مرتفعة هنالك؛ وهو وإن كان جافاً من الماء ففيما يتصل منه بالبحر عن يسار الذاهب مشرقا آبار تسمى المطروح فيها من المياه العذبة ما فيه غنية النفس وشفاء الروح ولكنا استغنينا عنه بماء جرجوف الذي في القرب، وما انحرف له أحد من الركب إلا شرذمة قليلة من العرب.

ثم مررنا بواد آخر أعظم من واد الرمل مساحة يسمى وادي نصر الله بين أعراب تلك الساحة، وهو وإن كان جافاً من الماء أيضاً فعند اتصاله بالبحر بئر تسمى العبدية تفيض مياهها لكثرتها فيضاً، وهي مطوية بحجر في سفح جبل مفرطة الكبر بحيث تقوم

للأركاب مقام السبل وقابلنا عروضها بالأعراض استغناه عنها بما في القرب إذ لم تتعلق بها لأحد أغراض.

ثم مررنا بوادي أبي كدية الكبير المغني بعيونه الملحة بهائم الركب وإن كان جافاً من الماء عن كلفة البير فشربت منه جملة من البهائم، وتجاوز أول الركب مع العلام، والخبير وجعلوا يرتادون المنزل، وأخذ كل يحوز موضعه وينزل.

فإذا بصاحب شيخ الركب ينادي بين أهل ذلك النادي لا تنزلوا بل جدوا في المسير فقام الناس، وأخذ كل الرجالة يوقد في نيره ناراً كالمشعل ليهتدي إليه من خلفه ويسير فما نزل الشيخ الأكبر حتى مضى من الليل جزء معتبر وعبرنا الدار قرب معطن المداز.

وظعنا يوم الخميس مع الفجر فمررنا ضحى بقصبات المدار، وهي آثار أبنية قديمة منحوتة في الحجارة متطرفة تترائى في الطريق وعن يمينها أحاط بها البناء ودار، ثم وصلنا منهل المدار، وهو أحد المناهل التي عليها في أرض برقة المدار كثرة إحساؤه وطاب صباحه ومساؤه وقرب تعاطيه وسهل مناوله وكثر ماؤه العذب الطيب واشتهر فضله، وتطاوله.

فتفرق الناس فيه وسقوا دوابهم، ثم استقى كل في قربة ما يكفيه وبعد ما صلينا الظهر وفات الزوال أعملنا السير المتوال وبتنا بعد غروب الشمس في ليلة غراء بعد الانحدار من العقبة الصغرى وظعنا يوم الجمعة آخذين الحذر من الأعراب، وهم السلالمة وخويلد الذين أغربوا/ ١٠٤/ في التلصص، والغدر غاية الإغراب وعند ارتفاع النهار ظهرت خيول كثيرة يعلو غبارها أمام الركب كالدخان، وما فيهم إلا من غدر وخان فتشوش الناس واستعدوا العدد، والأهب، وما فيهم إلا من أسلم نفسه لمقاتلة السلالمة وخويلد ووهب فلما رأوا تأهب الحجاج إليهم أظهروا أنهم سلم جاؤوا لتسويق الركب، وأقبلوا بعلم السلامة عليهم، ثم ظهرت خيول أخرى أخريات الركب فانتظرهم الحجاج فلم يظهر لهم خبر بل رجعوا، وقد علاهم الأم، والكرب وسلم الله

وفد بيته وزوار رسوله من الظالمين وقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين.

وحثثا السير، وتركنا رأس الحصان يمينا ونزلنا عن يسار زرزورة، وهي ربوة صغيرة تقابل جميمة من ناحية الغرب وجميمة مورد مشتمل على إحساء كثيرة في رملة بيضاء ذات ماء طيب عذب، ولم نمر به استغناء عنه وإن بتنا قريبا منه.

وارتحلنا يوم السبت آخذين الحذر أيضاً من هؤلاء العربان الذين ظهر شرهم وبان وبعد ما ريضنا في غوط منخفض بين الكثبات قام على ربوة من الحجاج حاج لقضاء بعض الحاج فأشرف على خيول كثيرة في أخيرات الركب يلتمسون الغرة للانتهاب فركب الناس واستعدوا لملاقاتهم، والتفتوا إليهم، وأقبلوا بكثرة العدد، والعدد عليهم ورموهم بالبنادق ليرتهبوا أي ارتهاب فلما علموا تأهب الناس لقتالهم، وتحققوا أن الحجاج لا ينالون بقوة الله وفضله الأضعاف المضاعفة عن أمثالهم رفعوا أمامهم راية وجعلوها علامة على أنهم سلم لا أرب لهم في الشر، وأية وإن كانت المخايل تكذب حالهم، وتظهر مكرهم ومجالهم وغادرناهم في غدران غدرهم هائمين وسرنا في يم الأمن، والأمان عائمين، وما زال الناس يبصرون آثارهم إلى أن ولي النهار وانقطع خبرهم الذي لم يزل على شفا جرف هار وحال الله بيننا وبين القوم الظالمين دخل روفده من خويلد، والسلالمة سالمين وبتنا في قصبات الشامة، وهي أبنية كثيرة تتراءى في جوانب الطريق، وأمامه.

وارتحلنا يوم الأحد قاصدين/ ١٠٥/ منهل الشامة لنرد من مائه العذب، ولا عذوبة مياه الغمامة فعرضت لنا خيول كثيرة في هيئة عظيمة، وأبهة كبيرة ورئيسهم محمد بارك عامل البحيرة خرجوا بقصد التعرض للأركاب، والبحث فيها بين الرجالة، والركاب عن رجل يعرف بسركس، وهو أحد سناجقهم وكبرائهم وقوادهم العظام ووزرائهم كان عتا عتواً كبيراً في تلك الأرض دعمت شوكته الطول منها، والعرض.

فعزموا على تغيير أحواله وسفك دمه وإنتهاب أمواله فخرج من مصر خائفاً يترقب ونشط للفرار بنفسه نشاط غير على مرقب فكان استقراره بالجراس ليس بمزود فيها بالخفية، ولا زائر فتحير أكابر العسكر المصري من سكونه وخفية وكونه وبقوا يتجسسون عن أخباره ويبحثون عن آثاره وينقرون عن إستخباره مخافة أن يعود إلى مصر على ما فارقها عليه من العتو الذي لا حد له، ولا حصر فكان من رأي باشا مصر وشدة عظمه وقوة همه واحتراسه وحزمه إن وجد هذا العامل بجيشه العرمرم لفحص الأركاب، وتفتيشها عن ذلك النكس البرم فتعرضوا أولاً لركب الجزائر وفتشوا حتى الدرابك، والمحاير فلم يقفوا له على خبر في حافر، ولا وبر.

ثم تعرضوا لنا في خيل مسومة وعدد كثير وعدد مقومة، وأظهروا من الأطبال ما حير الإبال، ومن الغوايط ما عم صوته كل مكة وغايط، ومن المعازف ما تنكرت منه المعارف واستعد الحجاج لملاقاتهم كل الاستعداد واستمدوا من معونة الله فوق ذلك الاستمداد فسرنا نخب ونضع ونرفع ما اتضع حتى دنونا منهم إذ لم يسعنا الإعراض عنهم فأقبل كبيرهم على الشيخ وسلم عليه، وأكثر من الفرح بلقائه وشدة الاشتقاق إليه، وأخذوا في مسابقة الخيول، وأكثروا من اللعب بالمعازف، والأبواق، والطبول، والركب سائروهم يلعبون أمامه حتى وصلنا منهل الشهامة، وهو إحساء كثيرة على ساحل البحر الأجاج كالمعاطن المتقدمة في طريقة الحجاج فأخذ الناس في السقي، والاستقاء بنية الانصراف من ذلك المورد وعدم البقاء فبعث رئيس العسكر للشيخ أن أقيموا اليوم فساعفه بالإقامة خشية المعتبة، واللوم وقام أكابر العسكر /١٠٦/ بالتفتيش، والتنقير كل القيام وعموا بالبحث ما أمكنهم جميع الخيام فما وجدوا لسركسهم من خبر بعدما اختبر كل منهم جميع الأركاب وخبر.

وارتحلنا يوم الاثنين من الشهامة فركب جيش الأتراك، وتقدم الركب وسار أمامه فخلنا أنهم بركبوا الخيول بقصد التوديع ليخرجوا من تشنيع عدم التشييع فإذا هم أرادوا نهب من كان معنا من عمالتهم من الأعراب فتعرضوا لأول الركب، وأخذوا من

عرفوه من قبيلهم دون استحياء، ولا استغراب وحازوا إبلهم دون تبيين، ولا إعراب وصد الأمر من قبل، ومن بعد وفيه الكفاية إذا انقطع الرجاء من العبد وانفصلنا عنهم، والقلوب متقلبة بين جمار غضي الجور في ذلك الفضاء سائلة من الله تعالى اللطف في القضاء فهو سبحانه ينتصر على من انتهك حرمة وفده ويجازي الصابرين على ضير الضائرين من واسع إحسانه ورفده.

وبتنا غربي القرعة في ربوة تسمى العرجف في فلاة قرعة.

وارتحلنا يوم الثلاثاء فبتنا بمنهل عفونة، وهي ربوة ذات آبار عذبة ليست بمتروكة، ولا معفونة وماؤها من أعذب المياه، وأطيبها، وأحلاها، وأسهلها، وأصفاها، وأجلاها

وارتحلنا يوم الأربعاء فتياسرنا عن وادي الرهبان، وهو واد ممتد بين عظام الكثبان سمي بذلك لأن فيه رهبان النصارى يتعبدون في ديور أربعة كل طائفة في دير، ولا يدخل إليهم أحد من غير جنسهم، وليس لهم زرع، ولا ضرع.

وأهل الذمة من نصارى مصر يعاملونهم ويوجهون إليهم بالصدقات، والنذور في طعام وكسوة وغير ذلك، وقد مال إليهم بعض الحجاج وشاهدوهم هنالك وبتنا في أثناء هاتيك الرمال في أرض لا نبات فيها، ولا مرعى للبهائم و الجمال.

وارتحلنا يوم الخميس فظللنا قبالة الأهرام التي زمت الدهر بالمشيب، وأشرفته على الأهرام، وقد جمع السيوطي في وصفها ما قصد ورام كقول ابن الساعاتي في ذلك المرام:

وَمِنَ العَجَائِبِ، والعَجائبُ جَمَّةٌ ... وَقْتَ الإكثارِ، والإسهابِ
هَرمانَ قَدْ هَرِمَ الزَمانُ، وأدبرت ... أيامهُ، وتزيد حُسن شَبابِ/ ١٠٧/
لله أي بنيةٍ أزليةٍ ... تبغي الزمان بأطول الأسبابِ

وكقول سيف الدين بن حبارة:

لله أيُّ غريبةٍ وعجيبةٍ ... في صَنعةِ الأهرامِ للألبابِ
أَخْفَتْ عَنِ الأسماعِ قِصةَ ... أهله اونضت عن الإبداع كل نِقَابِ

فكـــأنما هـــي كالخيـــالِ مَقامـــة ‏ ‏ ‏ ‏ مِـنْ غَـير مـا عَمْـدِ، ولا إطنــابِ

وأطال في إنشاد الأشعار فيها ونبه على أصل وصفها وبانيها وغير ذلك من الأمور التي لا يقوم بها التأليف، ولا يستوفيها.

وسرنا متياسرين عن الأهرام حتى آن العصر وبتنا بعد مجاورة كرداسة بين أرياف مصر وورد علينا ناس كثيرون من مصر بأنواع القثاء، والبطيخ وغير ذلك من الخضر وجاءونا بجميع أنواع أطعمة الخضر واستقينا من ماء النيل العذب الزلال وبتنا منعمين في أنواع الخيرات التي لا جزاء لها إلا إدامة الشكر ذي الإكرام، والجلال.

ولم يزل الناس ليلتهم في أرغد عيش شبعا ورياً وكيف لا ونحن على ساحل النيل الذي أشرف الأنهار الأربعة الخارجة من الجنة إلى الدنيا.

وأثر بركته ظاهرة للعيان في مائه، وترابه وقراره ومدائنه بحيث لا يوجد بلد أوسع مزارع، وأكثر خصبا من اتصال العمارة نحو الشهر من هذه بيد أنها لها مزيد اختصاص بمضاعفة الوظائف الجورية على الرعية بحيث تملك رقابهم فضلاً عن أموالهم، ولا يجدون عن ذلك محيصا بمنعه أواخر حتى أن أحدهم لو أراد أن يتخلى ويترك الزراعة، والفلا لم يتركوه ولو فر لاتبعوه حتى استفاض عند العمال الفسقة إن ثلاثة لا تقبل فيهم شافعة ويعمدون منهم من يريد أن يتخلى عن الفلاحة، والزراعة قاتلهم الله أنى يؤفكون.

لا هم ينصفونهم ويخففون عنهم من المظالم، ولا هم يتركونهم يذهبون حيث شاؤوا من هذه العوالم اتخذوا مال الله، ولا وعباد الله خولاً.

وقد ذكر المؤرخون أن مصر لا بد أن تشتمل على طائفتين أحداهما في غاية العتو، والاستكبار، والأخرى في غاية الذل، والاحتقار، وقد صدقوا قد كان فيها فرعون وملأه فلم ينته دون أن قال أنا ربكم الأعلى وبنو إسرائيل إذ ذاك مستضعفون/ ١٠٨/ في الأرض يذبح أبناءهم ويستحيي نسائهم، ثم لم تزل كذلك، وأنها في زماننا بل قبله بأزمان لعل مثل ذلك الوصف فبشواتها وصناجقها وولاتها وحكامها بل وسائر جندها

وعسكرها فيها ظهر لنا ليس فيهم إلا من أعمال أباطل وحب الدنيا، وأمكره شراب الرياسة، والظلم وختم على سمعه وقلبه فهم لا يرحمون ضعيفا، ولا يوقرون كبيراً، ولا يعظمون مشروفا، ولا شريفا فلا يأمن الناس معهم على نفس، ولا مال لأنهم عدل بهم هواهم عن طريقة العدل، والحق ومال، وأمار عيبها وفلاحتها فلا نسل عما يلاقون من الظلم، والجور من الجند، وما هم فيه من الإهانة، والاحتقار تضرب ظهورهم، وتؤخذ أموالهم، ولا مشتكى لهم إلا الله، ومن تجاسر مهم واشتكى ضوعف عليه العذاب الأليم.

وأخبار مصر وظلم الولاة بها وغش الباعة وحيل المتسببين ومكر العاملين أعظم من أن تحصى، ولا غرض في تتبع ذلك، ومن وردها يعلم غالب ما هنالك، وأصبحنا على أبنانه، وتوجهنا لزيارة سيدي إسماعيل الأنبابي ومساجد على هيئة القاهرة، وهي بالجانب الغربي في مقابلة مدينة بولاق، ولما انتهت مدينة أنبابة أشرفنا على النيل يرفع على سواحل أعبابه فتذكرت حين أبصرت تلك المحاسن التي لا استوفاها قول ابن ناهض فيها:

شَاطئُ مصر جنةٌ ما مثله في بلد ... لا سيما مذ زُخرفت بنيلها المطردْ

وللرياحِ فوقه سَوابغ من زَردْ ... مَسرودةٌ قامتها داؤدها بمبردْ

سَابلة وهوفا يرعد عاري الجَسَدْ ... والفلك كالأفلاك بين حار وَمُصعدْ

وقول الآخر:

انظر إلى النيل الذي ... ظهرت به آيات ربي

فَكأنه في فيضه ... دَمعي، وفي الخفقان قلبي

واجتمع الناس على شاطئ النيل مواكب مواكب، وأخذوا يعبرونه في المراكب وحيث عبرناه ونزلنا ببولاق ألفينا عم رفيقنا سيدي محمد، وهو السيد الحاج مسعود جاءنا بقصد التلاق، وألفينا هنالك من الإبل المعدة لحمل الحاج ما فيه غنية الحاج

ويحمل على الواحد منها أربابها من عظيم الأحمال ما يكل عن حمله في موضع آخر الحملان، والأجمال/ ١٠٩/ فقضينا من ذلك العجب وذكرنا حكاية تحتم ذكرها هنا ووجب.

ذكر الشعراني في طبقاته عن بعض الصالحين ممن يسكن في بعض قرى مصر أنه كثرت أذايته أهل القرية التي هو بها له فعزم على الخروج منها فأكترى جمالا يحمل أمتعته فأتى بجمل فجعل يلقي عليه كل ما كان من الأمتعة فلما أكثر عليه قال له الشيخ إنك قد ثقلت على هذا الجمل فقال له صبي هناك يا عم إن الجمل يحمل أكثر من هذا فتفكر في نفسه، وقال هذا خطاب من الحق لي فإذا كان الجمل، وهو من الحيوانات العجم لا يعقل، ولا يرجو ثواباً يحمل أكثر من هذا فكيف لا أتحمل أنا أكثر من هذا من أذاية الخلق فحط أمتعته ورجع فسمع منشداً ينشد:

إِنَّ الجِمالَ التي بالحمل قد عَرفت ... تأبى العَيَاءَ ولو مست من لعتبِ

فأكد ذلك عنده فأفهمه، وقد رأيناهم حملوا على جمل واحد ما كانت تحمله الخمسة، والستة من الإبل في الطريق، وقد سخر الله لهم الإبل ونزع الرحمة من قلوبهم عليها يحملون عليها القناطير المقنطرة من الأمتعة، وأحمال التبن، والحطب وغير ذلك حتى لا يظهر من الجمل إلا رأسه، ثم يدخلونها السفينة كذلك وينيخونها فيها بأحمالها على ظهورها، ثم يخرجونها منها كذلك، وقد ألفت إبلهم ذلك.

وأما إبلنا فلا يدخل منها جمل إلى المركب إلا بعد عناء شديد ووثاق وثيق وضرب عنيف وإدارة الرجال بهم بعضهم يحملها وبعضهم يضربها وبعد ما حملنا الحوائج وانفصلنا عن ذلك الموقف الرائج تقدم عم رفيقنا الحاج مسعود يرتاد لنا منزلاً قريباً من الأزهر لأنه لدينا سعد السعود.

ذكر دخولنا لمصر القاهرة حفظها الله، وأمنها من كل صولة قاهر

ثم دخلنا ضحوة الجمعة إلى القاهرة ذات المحاسن الظاهرة، والمزايا الباهرة فألفينا الحاج مسعوداً اكترى لنا محلاً في الغورية قريباً من الناحية الأزهرية فأنزلنا أمتعتنا فيه

وانطلق بنا إلى منزله الكريم الأهل المحفوف بألف مرحب وسهل، وأهل، وأحضر لنا من أنواع الأطعمة ما لا نكاد نقوم بحقه، ولا تستوفيه وختم لنا بها فيه من الأشربة غاية الشهوة.

وجرى على اصطلاح أهل هاتيك الأرض في تأكيد/ ١١٠/ حضور شراب البن المعروف عندهم بالقهوة بعدما نوع لنا الأطعمة المغربية، والمصرية وجمع لنا منها بدوية وحضرية وإن كان أهل مصر بل وكذلك غيرهم من أهل الحرمين، والحجاز، والآفاق المشرقية كلها إنما يتكارمون بالقهوة التي لا يعرفها المغاربة، ولا يعدونها في الأطعمة، ولا في الأشربة، ولا في الأدوية، ولا في المشتهيات، والكلام فيها من حيث الحكم بالإباحة وعدمها طويل عريض واسع معلوم مشهور نظماً ونثراً.

وأكثر العلماء مائلون فيها إلى الإباحة، وترشح قولهم بفعل أكثر الصوفية مع تورعهم في المطاعم، والمشارب لما اشتملت عليه من الفوائد التي منها إعانة على السهر في العبادة، والمطالعات الليلية.

ومنها أنها تزيل ما يحصل في الرأس من التدويخ بسبب السهر وخلوا المعدة صباحاً فإذا شربها الإنسان وجد في أعضائه نشاطاً عظيماً، وأحس بخفة برأسه زائدة كما شاهدنا ذلك منها، ولا سيما في السير ليلاً بالحجاج.

ومنها أنها تهضم الطعام، وتذهب بثقله على المعدة ومنها أنها تنفع في الحر، وتبرد حرارة العطش، ولا يحس شاربها بعطش، ولا ضرر، ولا غير ذلك وكونها باردة هي المتداول بين الناس.

ولكن قال الشيخ داوود الأنطاكي في التذكرة إن البن حار في الأولى يابس في الثانية قال، وقد شاع برده ويبسه، وليس كذلك لأنه مر وكل مر حار ويمكن أن يكون القشر حاراً ونفس البن.

إما معتدل، أو بارد في الأولى، والذي يعقد برده وعفوصته.

وذكر له منافع منها أنه مجرب لتخفيف الرطوبات، والسعال البلغمي، والنزلات وفتح السدد وإدرار البول.

قال، وقد شاع الآن اسمه بالقهوة إذا حمص ويطبخ بالغاً بالماء، وهو يسكن غليان الدم وينفع من الجدري، والحصبة وذكر غير ذلك مما محله غير هذا المختصر.

وقد كان ورد علي ونحن في الحرم الشريف سؤال يتضمن أبحاثاً نفيسة تتعلق بالقهوة، وأحكامها فجمعت في ذلك تأليفا مستقلاً حافلاً سميته (الاستمساك بأوثق عروة في الأحكام المتعلقة بالقهوة) ورتبته على مقدمة، وأربعة فصول وخاتمة، وأبديت فيه من نفيس الأبحاث ودقيق الأنظار ما يشهد بتحريره عند مشاهديه جميع النظار فعدا عليه/ ١١١/ ذلك السارق، وأخذ فيما أخذ من القراطيس، والمهارق تقبله الله على التلف وعوضنا فيه، وفي غيره خير خلف.

وقد صحح بعض العلماء أنها تحرم على من طبعه السوداء، وتكره لمن طبعه الصفراء، وهي نافعة لصاحب البلغم.

قال: وكذلك غيرها من أنواع المطعومات، والمشروبات يحرم تناول ما يضر منه على من علم أنه يضره، ولا يكون ذلك موجبا لتحريمه مطلقا كما لا يخفى، والحاصل إن الشاربين لها كما قال الشيخ أبو سالم فريقان فريق يشربونها في أماكن معدة لذلك منحرقة فلما تخلوا من لهو وحضور من لا يحل حضوره من الجواري، ومن في معناهم من المراد مع الآلات الطرب، والغناء فهؤلاء الحامل لهم على شربها إتباع الأهوال، والتلذذ بما قارنها من الأمور المذمومة فينبغي أن يقال إنها محرمة في حق هؤلاء لا لذاتها بل لما قارنها من الأمور المحرمة، وهذا لا خصوصية له بالقهوة بل وكذلك الحليب المجمع على حليته إذا قارنته هذه الأمور المحرمة المذمومة شرعاً فإنه ينبغي أن يمنع الاجتماع عليه بمثل هذه الهيئة الفاسدة إذ ليس شربه هو المقصود منها بل ماحف به من المناكر العظيمة المبنية على غير قاعدة.

والفريق الثاني يشربونها في مساكنهم وحوانيتهم، وفي مطلق السوق غير تهيئة، ولا احتفال، ولا جلوس مع الفريق الأول فهؤلاء الحامل لهم عليها الفهم لها حتى أنهم يتضررون بتركها ويحدث لهم تركها ضرراً في أبدانهم، وقد يحملهم على شربها تحصيل ما أشرنا إليه من المنافع وغالب ما يستعملونها مع طعام خفيف من كعك، أو كسر خبز، أو نحو ذلك هذا مع خفة موانتها إذ بفلس واحد يشرب من ذلك ما يكفيه مع تيسرها في جميع الأوقات من غير احتياج لكبير مؤونة، ولا مقارنة أدام، أو ملح، أو إزار، أو خضر، أو غير ذلك مما يحتاج إليه غالب الأطعمة.

ويزاد على ما ذكر من منافعها، وهو أكبرها عندهم أنها تقوم مقام القرى للضيف بحيث لا يستحي أحد في تقديمها للباشا فمن دونه ويقوم ذلك عندهم مقام ما يتكلفه المرء عندنا من الأطعمة الكثيرة الفاخرة المنوعة التي تبلغ قيمتها الدنانير الكثيرة ودرهم واحد يقوم مقام الدنانير لا يكرهه أحد/ ١١٢/ على أنه لو قدم لأحد هناك أي طعام لم نكن معه فكأنه لم يقدم له شيء وإن قدمت هي وحدها كفت.

قال الإمام أبو سالم بعد أن ذكر مثل ما تقدم لطيفة.

أخبرني شيخنا الملا إبراهيم من حسن الكوراني أن شيخنا الإمام صفي الدين المقشاشي كان يقول ما أنعم الله على أهل الحجاز هذا البن لأنهم ضعفاء فقراء في الغالب، والناس يقدمون عليهم من الآفاق، والإنسان لا بد له من طعام يقدمه ممن دخل عليه، ولا قدرة لهم على تكلف ذلك لكل أحد يدخل عليهم.

وهذه القهوة خفيفة المؤنة، والناس راضون بها غنيهم وفقيرهم ورئيسهم ومرؤوسهم فكانت صيانة لوجوه الفقراء عن ورود أحد عليهم فلا يبعد أن تكون مستحبة عند أهل الحجاز لأن اتخاذ الإنسان ما يصون به عرضه مطلوب شرعاً قال ذلك في معرض المزاح، وقد سأل عن حكمها قال أبو سالم وكلام هذا الشيخ مع جلالة قدره وجمعه بين العلم الظاهر، والباطن وكلام غيره من أئمة الطريق مما يتقوى به قول من قال بإباحتها لأن المسألة إذا كانت ذات قولين، وكانت الصوفية مع إحدى الطائفتين

ترجح قولهم لا محالة لما رزقوا من صدق الإلهام ونفوذ البصيرة من تأييد الله لهم عند اشتباه الأمور فيميلون مع الحق فيما مال لرفضهم دواعي الهوى.

نص على ذلك غير واحد من الأئمة، وقد شاع وذاع عند كثير من الناس بل ذكره غير واحد ممن تكلم عليها أن أول من أحدثها، وأخرجها من أرض اليمن الشيخ المتفق على ولايته سيدي علي بن عمر الشاذلي اليمني، وأمر أصحابه بشربها ليستعينوا بذلك على السهر في العبادة، ثم لم يزل أمرها يفشو شيئاً فشيئاً، ومن بلد إلى بلد إلى أن آل إلى ما آل بحيث عمت البلاد المشرقية كثيراً من المغربية فيحمل منها في كل سنة من بلاد اليمن إلى كل أفق من الآفاق شرقاً وغرباً آلاف من الأحمال فتدفع فيها أموال قلما تدفع في غيرها من التجارة فيبلغ الحمل منها في مكة إذا رخص فوق العشرين ريالة وبمصر إلى الخمسين، وفي البلاد الشاسعة كإفريقية وبلاد الروم من القسطنطينية وغيرها فوق المئين.

قال أبو سالم، ومن أحسن ما رأيته من الأسئلة، والأجوبة في شأن القهوة نظماً /١١٣/ ما اشتملت عليه هذه الوجادة فأقول وجدت بخط شيخنا أبي مهدي عيسى بن محمد الثعالبي بمكة المشرفة ما نصه كتب العلامة رضي الدين محمد بن إبراهيم الحلبي الحنفي المعروف بابن الحنبلي للشيخ علي بن محمد ابن عراف يسأل عن القهوة:

أيها السامي لكلتا الذروتين	بجوار المصطفى، والمروتينِ
العلي القدر علماً وكذا	عملا فوق علو النيرينِ
من له في الزهد باع ويد	وهو في بذل الندا رحب اليدينِ
أفتنا في قهوة قد ظلمت	حيثما شيب تعاطيها بشينِ
من نلة هالنا مهيعة	وافتراق لأقاوئل وقينِ
ومراعاة أمور شهدت	فعلها في الحان كلتا المقلتينِ
وحكى شرابها أهل الطلا	فالتداني بين تين الفرقتينِ
أو دعوا إذا الطرس ما يرجوا الفتى	أو دعوا فاليأس إحدى الراحتينِ

فأجابه الإمام ابن عراف بقوله:

أيهــا الســامي ســموا الفرقــدين ... وإمــام العلــم مفتــي الفــرقتينِ

يــا رضي الــدين يــا بحــر النــدا ... مــن رجــاكم راح مملــوء اليــدينِ

جــاءني مــنكم نظــام قــد حكــى ... في نصــوع اللفــظ مسبوك اللجــينِ

قلــت فيهــا إن ذي القهــوة قــد ... خلطوهـــــا بتلــــة وَبِمَــــيْنِ

وبمطعــــوم حــــرام وغنــــاء ... وبــــرقص وبصــــفق الــــراحتينِ

وطلبــت الحكــم فيهــا بعــدما ... قــد رأيــت مــا ذكــرتم رأي عــينِ

وجــــوابي أنهــــا حــــل ولا ... يقــتضي مــا قلــتم تحــريم عــينِ

وعــلى ذي الأمــر إنكــار الــذي ... شــأنها حتــى تصــفى دون ريــنِ

والتــداني مــن جماهــا، وهــي في ... وصــفها المــذكور شــين أي شــينِ

والصــفا في شربهــا مــع فئــة ... أخلصــوا التقــوى وشــدوا المئــزرينِ

ثــم نــا جــوارهم جُــنح الــدجا ... بِخُشــــوع ودمــــوع المقلتــــينِ

فابتــداء الأمــر فيهــا هكــذا ... قــد حكــاه عــن ولي دون مــينِ

ذا جــوابي واعتقــادي أنــه ... في اعتــدال كاعتــدال الكفتــين

قال: أبو سالم، والإمام ابن عراف مشهور فضله وعلمه وورعه وهو/ ١١٤/ صدر في علماء الحرمين علما وعملا وجوابه في المسألة هو الحق إن شاء الله إلى مثله تميل أجوبة كثير من الأئمة من أنها إذا خلت مما يضاف إليها من المحذورات فهي في نفسها مباحة على ذلك عمل كثير من الأئمة المتعمقين في الورع تركا لما لا بأس به حذراً مما به البأس كما هو شأنهم في غيرها من المباحات التي هي من الفضول.

قلت: وهذا الذي اختاره ابن عراف وجنح له أبو سالم هو المصرح به في فروع المالكية كما في الخطاب وغيره، وهو مختار الشافعية، والحنفية أيضاً كما وقفت عليه في كثير من

أجوبتهم، وتآليفهم فيها.

وكنت لا أعلم الحنابلة ما يقولون فيها، ولا ما يحكمون به عليها، وكان ذلك يخدش في الصدر وإن كان يغلب على الظن أن أقوالهم لا تخرج عن هذه القواعد حتى وقعت على الكتاب الموسوم (بالدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج ومكة المعظمة).

تأليف الإمام الكبير زين الدين أبي محمد عبد القادر بن الشيخ بدر الدين محمد بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم الأنصار الجزيري الحنبلي.

وهو كتاب حافل أبدى فيه، وأعاد، وأفاد، وأجاد، وأطال، وأطاب وملأ الوطاب فرأيته استطرد الكلام على القهوة فقال بعد كلام: وإذا شرت مخالطة لوصف خبيث كما فشى الاجتماع عليها في البيوت، والخانات في هذا الزمن وعمت به البلوة، وتواتر به المحن من الانهماك في حانات لهوهم على ما يؤثر من فسادهم وزهوهم متصفين بقبائح أفعالهم الشنيعة، وأحوالهم المخالفة لأمور الشريعة كخلط القهوة وقذف أعراض المحصنات، والمؤمنات وانبعاثهم في اختلاق الأكاذيب التي لا حقيقة لها وباطل الإشاعات، وما لا خير فيه من الأعمال، والمقاصد القبيحات فلا خلاف في حرمة ذلك.

فأولئك الذين حبطت أعمالهم ونمت منهم الأوزار، والسيئات ويجب على ولاة الأمور ردعهم وزجرهم ومنعهم من خبائث هذه الاجتماعات.

وأما المنفرد، والمجتمع على شربها السالم من شوائب أفعال المخلطين في دأبها فلا يمنع من استعمالها سواء كانت مستعملة للإعانة على العبادة أي على أمر مباح/ ١١٥/ كسهر في صناعة، أو نشاط في عمر مباح لأنها حينئذ من أحل الحلال بالنص، والإجماع.

ومن زعم أن شربها منفردة يكسر، أو يغير فقد أفترى بهتانا وإثما عظيما.

قال، وقد ألفت في حلها مؤلفاً بديعاً في بابه وسميته (بعمدة الصفوة في حل القهوة) وبينت فيه الحل بالنص الصريح وبطلان قول المخالف لذلك ممن هو لشربها غير مبيح، ولا يحتمل هذا المؤلف الإطالة وقلت في حلها وإطرابها:

أضوءُ أُنسٍ بدا يهدي لذي كرم ... أم نَارُ قهوة قشر في دُجَا الظلمِ

مَوضـوعُ صـفوة أقـوام قـد اجتهـدوا ... في حفـظ أوقـاتهم لـيلا عـلى قـومِ

فـانهض إلى حانهـا واشـهد منصـتها ... والمـم بكاسـاتها إلمـام منسـجمِ

فيهـا منـافع لا إثـم يمازجهـا ... ولا تصـد عـن الطاعـات، أو تقـيمِ

ولا تخـدر كـالأفيون إن شربـت ... أو كالحشـيش، ومـا فيـه مـن الـنقمِ

ولا كـبرش يـودي مسـح مدمنـه ... في الذات، والعقل، والأحوال، والشيمِ

سَـمراء لا تنـزل الأكـدار سـاحتها ... تشـفي مـن النون، أو عـرف بـدا بضمِ

وللحصـاة مـع الأدرار ثـق بشـفا ... وللصـداع ففيهـا أي معتصـمِ

ينشـف البلـة الرطبـاء في معـد ... وللـبلاغم قـل مـا شـئت أن تـدم

وفعلهـا في بواسـير فتداولـه ... أهـل التجـارب حتـى صـار كـالعلم

وفي الجمـاع المرطـوب المـزاج يـزد ... حتـى يـرى ذاك في فعـل، وفي عـدم

تفيـد في اللـون إشراقـاً حراراتهـا ... وتـذهب الهـم في بـدء ومختـتم

لا عيـب فيهـا سـوى تنشـيط شـاربها ... وفي العبـادة مفتـاح لـذي الهمـم

ففعلهـا في نشـاط لا يعادلهـا ... فيـه سـواها ومشـفاة مـن السـقم

أكـرم بهـا مـن شراب طـاب مـورده ... الهـام آل طريـق الله أن يـذم

حُلـو فكاهتهـا مـن مـذاقتها ... حـل مسـاغتها في الحكـم فـاحتكم

بهـا مـن السـبط مـا يعنـون مرحـه ... وهـو ارتيـاح لـنفس الشـارب الـنهم

وخفـة عنـد أسـباب يعالجهـا ... مـع اقتـدار عـلى الأعـمال مـا لهمـم

إن قلـت فيهـا حـرام، وهـو مجتنـب ... قلنـا المضرة فيـه أيسر القسـم

فتـور أعضـاء مـدمها إذا فقـدت ... فـإن دفـت آت مـا قـد كـان مـن عـدم

وإن تصـفها بيـبس للمـزاج فقـل ... كل الكثير عدو الطبع بالسقم/ ١١٦/

فَدَعْ مَقالَةَ مَنْ قد ظل يمنعها ... بحرمة ولشرع عن هداه عمي
ولا تكن عن أصول الشرع في دهش ... فالحق يظهر من معنى، ومن كلم
والأصل في مطعم حل بلا شبه ... فما عد النص كالميتان، أو كدم
وزعمه أنها كالخمر مسكرة ... عناوه ظاهر فيها بلا وهم
أهل ترى شارباً منها يعربد أي ... يميل سكراً بقول غير منتظم
نعم إذا اقترنت بالوصف، أو جمعت ... فواحشاً باجتناب غي منفصم
وحيث شيبت بمحظور تعاطيها ... محرم لا لذات فاسغ واستقم
وادخل لحاناتها واشرب وكن لهجاً ... بالذكر فهي طريق الصادق الفهم
واستجل فيحانها واغنم مسرتها ... في مجلس صادق لله ذي النعم
مع البخور، أو الريحان في ملأ ... تدفع بدعوتهم ما خفت من نقم
ولا تكن بالحديث اللهو مشتغلا ... ففي البطالة أنواع من الوصم
وقل بها في عبارات، وفي سهر ... وفي نشاط، وفي علم، وفي حكم
فإنها الحل ما دامت منزهة ... عن الخبائث في حل وف يحرم
وكل من رام أعدما لمشربها ... فقد تعرض للبلوى وللعدم
لأنها تحفة السادات في سهر ... كشاذلي المحاور الدين، والقدم
وكالمساوئ كالشيخين في يمن ... هما المرجد، والريحان في أمم
وقل من عابها إلا، وقد وصفت ... لدابة فغدت تشفيه من ألم
قد قيل إن بها سر الولي فدع ... ذكر النقيصة بالتسليم واستلم
وكن بها جذلاً وانجح بها عملاً ... ولا تكن كسلا في ساحة الندم
فقد جلوت عروس الشرع وانقسمت ... غياهب الشك عن نور من الرقم

ثم الصلاة على المختار من مضى خير البرية من عرب، ومن عجم

لابن الجزيري يا مولاي جدير مني واغفر له يا عظيم العفو، والكرم

قلت: أوردت هذه القصيدة، وما قبلها ليعلم منها ما يقوله الحنابلة، وأنهم موافقون لغيرهم من المذاهب مع ما اشتملت عليه من الفوائد المتعلقة بالقهوة، والمنافع الناشئة منها غير أن ما أومأ إليه من أنها تنفع من الصداع، ومن البواسير.

مخالف لما قاله الشيخ داود الأنطاكي في التذكرة فقد صرح بأن شراب القهوة على الكيفية/ ١١٧/ المذكور يجلب الصداع ويهزل جداً ويولد البواسير وقطع الباءة وربما أفضى إلى الماليخونيا قال فمن أراد شربه للنشاط، أو غيره من المنافع فليكثر معه من أكل الحلو ودهن الفستق، والسمن.

قال وقوم يشربونه باللبن، وهو خطأ يخشى من البرص وكنت نبهت على جميع ما يتعلق بهذا وغيره في كتابنا الاستمساك بأوثق عروة الذي أشرنا إليه قبل.

وقد ألف فيها جماعة من أهل مصر، والقاهرة، والحرمين، والشام وغيرهم مؤلفات عديدة وقفت على جلها، وأثبت خلاصتها في ذلك الكتاب وحليتها صريحة من عموم قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] الآية.

فقد قرر أهل الأصول أنها دليل على أن أصل كل مطعوم من نبات وغيره الحلية إلا ما استثناه الله تعالى، أو أدى إلى عذر في عقل أبو بدن، والله أعلم.

والكلام فيها كما قلناه طويل عريض ما بين نثر وقريض، وهذه النقطة غاية ما يحمله هذا الجدول من ذلك السحاب العارض، والبحر الأطول.

ولما قضينا الغرض من جميع ما عن من الأطعمة، والأشربة وعرض توجهنا للجامع الأزهر الأنور الأزهر فصلينا به صلاة الجمعة ونلنا بالحضور في حضرته الفضل أجمعه، ثم شرعنا نجوب بعض مشارعها ونجد أديم جادتها وشارعها فإذا هي أم العجائب ومعجزة كل جائل وجائب حازت كل أعجوبة واتسعت حتى حازت من الأرض ما لا

يقدر أحد أن يجوبه وجمعت أنصاف الخلائق، وتعدد فيها اللائق وغير اللائق فهي أم البلاد شرقاً وغرباً وقاعدة الأمصار بُعداً وقربا فلا يستغرب شيء مما يحكى عنها، ولا يستوفي أحد الغرض منها.

ومصداق ذلك ما حدث به بعض التجار قال لما دخلت مصر في حدود الخمسين سكنت في بعض الوكائل، وكان من قدر الله أن اجتمعنا في محل واحد جماعة منا فلان تاجر وفلان طالب وفلان صوفي وساهم قال فإذا أصبحنا تفرقنا كل واحد يغدو لحاجته فإذا جن الليل جمعنا المنزل فنتحدث بما رأينا فيقول التاجر ما رأيت مثل هذه البلدة في التجارة فأهلها كلهم تجار ويقول كل مثل ذلك، وما ذلك إلا لكثرة أجناس الناس فيها فمن طلب جنساً وجده.

وبالجملة/ ١١٨/ فأهلها لهم عقول راجحة وذكاء زائد فمن استعملها في الخير فاق فيه غيره، ومن استعملها في الغير فكذلك.

وذكر ابن خلدون في كتابه مشهد العبر أن بعض ملوك الغرب سأل بعض العلماء ممن حج عن مصر فقال له أقول لك فيها قولاً واختصر من المعلوم إن دائرة الخيال أوسع من دائرة الحس فغالب ما يتخيله الإنسان قبل رؤيته إذا رآه وجده دون ماتخيل ومصر بخلاف كل ما تخيلت فيها فإذا دخلتها وجدتها أكثر من ذلك.

وسأل آخر عنها فقال كان الناس فيها قد حشروا إلى المحشر لا ترى أحداً يسأل عن أحد كل واحد ساع فيما يرى فيه خلاص نفسه وجميع ما يحتاج إليه من أحوالها مستوفي في تواريخها، وأحسنها (حسن المحاضرة في أخبار مصر، والقاهرة) تاليف الإمام السيوطي (ﷺ) فمن أجاد مطالعته لم يفته من أخبارها إلا المعاينة.

وأصبح السبت فتوجهنا لزيارة الإمام الذي لا ينبغي لأحد دخل مصر أن يهمل زيارته إذ هو صاحب التصرف التام بمصر رئيس الأئمة وشيخ مشايخ الأمة أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (ﷺ) وعليه بناء عظيم ومسجد حافل وقيم المشهد لا يفارقه ليلاً، ولا نهاراً، وهو من المشاهد الكريمة، والمآثر العظيمة له أوقاف عظيمة ويتخذ عند

قبره في كل ليلة سبت مولد يجتمع فيه ناس كثيرون ويضيق بهم المسجد، وأفنية يبيتون طول الليل بين ذكر وقراءة وصلاة مفترقين مجتمعين في ذلك كله لا يفترون إلى طلوع الفجر وذلك دأبهم أبداً في ليلة كل سبت.

وتستمر عمارة الروضة بمن ذكر يوم السبت إلى الزوال، وقد ألفيناها مملوءة بأصناف الناس ما بين شريف ومشروف ومأمور، وأمير ونساء ورجال ونساء، والناس كلهم ينادون في طريقه بالله يا إمام وذلك المجمع لا يخلو من جماعة من الصالحين.

فقد ذكر الإمام الشعراوي (رضي الله عنه) أن جماعة من الأولياء يحضرون كل يوم لزيارة الإمام الشافعي (رضي الله عنه)، وهو حقيق بذلك وجدير بها هنالك فإنه بالمحل الذي لا يدرك علماً وعملا وحالا وحلما وسعة أخلاق وحسن طبيعة وزكاء أعراق ونصرة للدين وحماية باذلاً في ذلك نفسه وماله وجاهه.

فقد اتفق العلماء على أنه ليس في أصحاب الإمام مالك (رضي الله عنه) أثبت/ ١١٩/ ، ولا أعلم، ولا أفقه، ولا أعرف بالحديث من الإمام الشافعي كما اتفقوا على أن ليس في مشايخ الإمام الشافعي أجمع للخصال المذكورة من إمام الأئمة مالك ابن أنس (رضي الله عنه) جميعهم.

وزرنا المشهد العظيم المحتوي على جماعة من أهل البيت رجالاً ونساء أشرفهم السيدة نفيسة الطاهرة وإليها ينسب المشهد وبها يعرف وعليه بناء عظيم وبإزائه مسجد وبيوت تسكن قلما يخلو من زائر وراغب إلى الله في كشف كربه وقبرها معروف بإجابة الدعاء فهو ترياق لنيل كل مراد كقبر ابن عمها موسى الكاظم (رضي الله عنه) جميعهم ببغداد هي السيدة نفيسة بنت الأمير حسن بن زيد بن علي بن الحسن دخلت مصر مع زوجها إسحاق بن جعفر الصادق.

وكان الإمام الشافعي يصلي بها التراويح في رمضان وزرنا مشهد السادات المالكية ابن القاسم، وأشهب وغيرهما ومشهد السادات الوفائية توجهنا لزيارة جميع من بالقرافة بلا تعيين لاشتهار فضلها وفضل ما اشتملت عليه من المزارات.

وقد ورد في الآثار أنها بقعة من الجنة ولذلك أمر عمر بن الخطاب (ﷺ) بجعلها مقبرة للمسلمين قائلاً لا أعلم تربة الجنة إلا مقابر المسلمين (ﷺ) ما أصدق فراسته، ولم نزل مدة إقامتنا بمصر هذه الأيام القليلة نتردد لمشاهدها الجليلة ونزور من أمكننا زيارته من مزاراتها الحفيلة مثل المقام المشهور بالحسين وروضة الإمام الحلواجي وغير ذلك ودار المحل المرة الثانية يوم الاثنين الموفي عشرين من شوال.

وأما المرة الأولى فلم يحضر لها لأن العادة عندهم إدارته مرتين فالمرة الأولى تكون في نحو النصف من شوال وصفة ذلك أنه يؤتى في ذلك اليوم بكسوة الكعبة المشرفة من دار الصناعة فتضرب سحابة على باب القلعة فيحضر الصناجق كلهم، والولاة، والأمراء، والحكام، والقاضي كل واحد مع أتباعه ولكل واحد مجلس معلوم في السحابة المضروبة ومجلس الباشا في الوسط وعن يمينه مجلس القاضي وكلما أتى واحد من الأمراء، وأرباب الدولة جلس في مجلسه المعهود له وقربهم من الباشا بحسب قربهم في مناصبهم فإذا تكاملوا كلهم، وأخذوا مجالسهم وصفت الخيل عن يمين صفاً كل طائفة مع جنسها إلى أن تحيط بالميدان الذي هو أمام مجلس الباشا، وهو ميدان كبير يسع الآلاف من الخيل/ ١٢٠/ وآخر من يخرج الباش فتخرج أمامه طائفة من عسكره بعضهم أثر بعض على ترتيب معلوم وقانون مضبوط وآخر من يخرج مع طائفة الشاوشية على أرجلهم عليهم جلود النمر وعلى رؤوسهم طراطير طويلة من اللمط له ذيول معكوفة بين أكتافهم.

وعلى جباههم صفائح من الفضة مستطيلة مع الطراطير إلى فوق مموهة بالذهب تلمع لمعانا فإذا خرج هؤلاء خرج الباش بأثرهم راكباً فإذا وصل إلى السحابة قام الكل له واضعين أيديهم على صدورهم حتى يجلس وكذلك يفعل من تقدم للجلوس من الأمراء مع من يأتي بعده فإذا جلس الباشا جيء بالجمل الذي يحمل المحمل.

وعليه المحمل، وهو قبة من خشب رائقة الصنع بديعة الإتقان لها شبابيك ملونة بأنواع الأصباغ وعليها كسوة من رفيع الديباج المخوص بالذهب ورقبة الجمل ورأسه

وسائر أعضائه محلاة بجواهر منظمة نظماً رائقاً بديعاً، وفي رأسه وسن محلاً بمثل ذلك ولاجمل في غاية ما يكون من السمن، والضخامة وعظم الجثة وحسن الخلقة وجلده كله مخضب الحناء يقوده سائس لطيف وعن يمينه آخر وعن شماله آخر يحفظونه ويتبعه جمل آخر على مثل صفته، ثم يؤتى بالكسوة المشرفة ملفوفة قطعاً قطعاً كل قطعة منها على أعواد شبه السلاليم معدة لذلك يحملها رجال على رؤوسهم، والناس يتمسحون بها ويتبركون.

ويؤتى بكسوة باب الكعبة يظهر فيها خيط واحد بصنعة فائقة وكتابة رائقة، ثم يمر بكل ذلك بين يدي الباشا، والأمراء ويقومون لها إذا مرت بهم تعظيماً، ثم يخلع على الذين يصنعوها بمحضر ذلك الجمع، ثم يذهب بها كذلك حملتها ويمرون بها في وسط السوق، والناس يتمسحون بها حتى يبلغوها إلى المشهد الحسيني فتنشر في صحن المسجد، وتخاط هناك.

فإذا كان اليوم التاسع عشر، والعشرون، أو الحادي، والعشرون خرج المحمل الشريف من القاهرة، وهذا اليوم هو المشهور المعلوم المتداول بدوران المحمل لأنه من أيام الزينة التي يجتمع لها الناس من أطراف البلاد المصرية، وأقصاها ويؤتى بكسوة البيت من موضع خياطتها، وتجعل في المحال التي تحمل فيها ويجتمع الأمراء، والصناجق، والجند جميعاً على الهيئة المتقدمة/ ١٢١/ في الخروج الأول إلا أن هذا تم احتفالاً، وأكثر جمعاً فإذا تكامل جمع الأمراء على الوجه المتقدم وصفت الخيل، والرماة وخرج الباش جيء بجميع ما يحتاج إليه أمير الحج من إبل وقرب، وأواني النحاس وخيل ورماة وغير ذلك من الأسباب التي تخرج من بيت المال فيحضر جميع ذلك في ذلك الميدان كل طائفة لها أمير مقدم عليها حتى الطباخين، والفراشين، والسقائين، ثم يؤتى بالمحمل الشريف على جمله المذكور أولاً يقوده سائسه حتى يناول رسن الجمل للباشا فيأخذه بيده ويناوله لأمير الحج بمحضر القاضي، والأمراء ومعانيتهم، ثم يناوله

أمير الحاج لسائسه فيذهب به وذلك كل كالشهادة على الباشا بأنه يكن لأمير الحج المحمل وكل ما يحتاج إليه أمير الحج من ذهابه إلى إيابه.

وعلى أمير الحج بأنه تسلم ذلك ويشهد على ذلك القاضي، والأمراء ويكتب بذلك إلى السلطان فإذا مر المحمل بين يدي الباشا وذهب جيء بالإبل يمر بها بين يديه بما عليها من القرب، والأواني، والأدوات كل طائفة بمقدمتها فإذا أمرت الإبل كل جيء بالمدافع، وهي ثلاثة، أو خمس تجرها البغال، والجمال، ثم جاء الرماة الرجالة من ورائها فيمرون، ثم تأتي الخيل فتمر فإذا مر جميع ذلك بين يدي الباشا جاء أرباب الطوائف كل طائفة من مشايخ الصوفية بشيخهم ولوائهم رافعين أصواتهم بالذكر كالقادرية، والرفاعية، والبدوية، والدسوقية حتى السعاة يأتون بشيخهم فيمرون بين يدي الباشا ويعطيهم ما تيسر فإذا لم يبق أحد ممن يمر بين يديه خلع الباشا على أمير الحاج خلعة وعلى أمرائه الذاهبين معه كلهم الكيخيا، والدويدار وغيرهما.

فإذا خلع عليهم بأجمعهم ودعهم وانصرف، ثم يمر بالمحمل وسائر الإبل، والعسكر وسط المدينة، والناس مشرفون من الديار، والمساجد التي تلي الشوارع ويتعطل جل الأسواق، أو كله في ذلك اليوم.

وقد تقرر لدينا عن الموثوق بهم أن بعض تلك الديار المشرفة على الشارع قد تكرى من أول السنة، ولا يسكنها مكتريها، ولا ينزلها إلا في ذلك اليوم قصد التفرج وفيما سواه من الأيام تبقى معطلة، أو يسكنها غيره.

وبالجملة فهذا اليوم عندهم من أعظم أيام السنة، ولا ثاني له إلا يوم كسر النيل عند وفائه ويقرب منه أيضاً يوم قدوم الحاج ويوم تبديل الباشا، وتجديده.

فهذه الأيام/ ١٢٢/ الأربعة هي التي يحتفل بها عندهم غاية الاحتفال ويهتبل أتم الاهتبال حتى لقد أخبرت أن نساء مصر يشترطن على أزواجهن التفرج في هذا اليوم دون معتبة، ولا لوم فإذا خرج المحمل من الميدان الذي على باب القلعة إلى فضاء الرملة

بقي الكثير من الخيل هنالك للمسابقة، واللعب، ولا يذهب مع أمير الحاج إلا المعينون للسفر معه فيتقدمون في أبهة عظيمة على خيل مسومة وعدد مقومة.

ولا يبالون بلبس الذهب، والفضة استعمال السلاح المحلاة بأنواع الحلى المطرز بالجواهر النفيسة لأنفسهم وخيولهم.

وأما أنواع الحرير، والديباج فهو مما يكمل به رفعهم عند انتصابهم وجر ذيولهم فيا له من يوم عظيم يجب له الإجلال، والتعظيم لولا ما اشتمل عليه من المناكير البادية التي تمنع من له اعتناء بالسنة أن يحضر ناديه فنسأل مولانا سبحانه أن يتجاوز عن هذه الأمة المحمدية في مثل هذا اليوم من أنواع البدع، والمناكر الموجبة للانتقام وللوم كرامة لمولانا محمد (ﷺ) العين الذي تكرم لأجلها ألف عين بل لأجله يكرم جميع القوم.

ولما دار المحمل أخذ الناس في التهيئة للسفر، والاستعداد، والإستعانة عليه، والاستمداد فطفقنا نقضي معهم الأوطار لجوبان ما في الحجاز من الأقطار فلما لقتنا أن تغيرت الحال، وتبدلت الأخصاب بالإمحال إن أصبح رفقنا أبو عبد الله نفس المصاب قد وخزه سهم الطاعون في أصل فخذه وصاب فضاقت علينا لأجل ذلك الأرض بما رحبت، وتحيرت أفكارنا، وتعبت وكلما رجونا قيامه اشتد به المرض ومهما راودناه على السفر لم يكن له فيه غرض فبقيت أقدم رجلاً، وأؤخر أخرى، وأتخير الله تعالى، وأسأله أن يقدر لي ما يراه لي خيراً.

وكلما اشتد به الألم نزل بي أشد منه، وألم إذ هو الذي كان يأخذ بيدي في الأمور كلها ويريحني من كد المشقات وكنها، وما زلت سائراً مع الأقدار صابراً على تحمل ما طبعت عليه هذه الدار من الأقذار، والأكدار لا أحير جواباً، ولا أميز من خطأ صوابا، ولا أحس بشيء عني صدر، ولا أعرف من ورد ممن صدر فكان من حسن شيمة رفيقي أبي عبد الله الذي أولاه الله من كرم الأخلاق ما أولاه أن ألح علي في السفر دون الإقامة وذكرني أن لا فائدة في التخلف/ ١٢٣/ عن فداء بيت الكرامة فتأهب السفر ونفرت مع من نفر وفارقت أبا عبد الله الذي هو لدي شقيق الروح، وقد كادت النفس أن تروح:

وَسرتُ وقلبي محرق بلظى النوا ... لبين الذي بين الجوانح قد ثوى
وقد ما نوى أن لا يفارقني كما ... نويتُ فَحيلَ بين مرء، وما نَوَى

ذكر خروجنا من مصر إلى الحجاز وتحقيق القول في حقيقة ذلك المجاز:

وافق خروجنا من مصر وقت الزوال من يوم الاثنين السادس، والعشرين من شوال، وكان خروجنا على باب النصر وسرنا، والطريق كلها أسواق واحدة من كثرة الباعة، والذاهب، والجائي من البركة إلى مصر ونزلنا بالبركة التي هي محل نزول الركاب مع العصر، والبركة اسم لفسيح من الأرض على شط بركة واسعة مد البصر يتموج فيها ماء النيل العذب الفرات على الأطراف تنصب الأسواق الحافلة بشط البركة، والقهاوي المزخرفة المونقة القساطيط الموشاة المرونقة فلا تسل عما يوجد في تلك الأسواق من مهيجات الأشواق طعام وشراب وقرب وقراب وحوافر، وأخفاف وجوارب وخفاف ومحارة على جمل، وأنواع الجدى، والحمل وسمن وعسل وسيف، وأسل، وتمر وزبيب، وتين وحليب وغير ذلك من أنواع السلع، والبضائع التي لست أحصيها، وأجناس الأثاث، والحيوانات التي لا أكاد أستقصيها.

فقضى الناس من الأغراض ما كان لهم عنه في المدينة أعراض وبتنا هنالك في عيش أرغد تنال البقية من ماء النيل ونتفكه بفواكهه إلى الغد، ولما غاب الشفق وغرب وسكن الناس، ولم يبق لهم في الحركة إرب أخذ أهل الركب المصري في إيقاد الثريا ومصابيح الإشارات، وأخرجوا من المدافع، والمحاريق ما يدل على تمام الاقتدار وعظم الشارات حتى طاولت هاتيك الأرض سمواتها وطربت لقيام نارها وإنارة منارها مقام شموسها، وأقمارها جميع جماداتها وعجماواتها وقضينا من عجب مخترعاتهم وغريب متبدعاتهم العجب العجاب.

ورأينا من صور الحيوانات البديعة في تلك الإشارات ما لم يره من جال غير تلك الأرض، ولا من جاب، وتلك عادتهم في كل بندر من البنادر يخرجون من المدافع،

والمحاريق يعد من غريب النوادر ولما / ١٢٤/ أشرق الصباح، ولا إشراق الوجوه الصباح أخذ المشيعون في الارتجاع وإنشاد ما رق وراق من الإشعار، والاهجاع فمن منشد عند مفارقة أحبابه ومباعدته عن نيل ماء النيل وحبابه قول البدر الذهبي:

وبمهجتي المتحملون عشية والركب بين تلازم وَعِنَاقِ
وَحُداتهم غَنَّتْ حجازاً بعدما غَنَّتْ وراء الركب في عشاقِ

ومن آخر استولى عليه ظمأ الحب، وأخجله فأنشد قول الشهاب أحمد بن أبي حجلة:

ولما اعتنقنا للوداع عَشية على بُركة الحُجاجِ، والدمعُ يُسكبُ
فَرحنا، وقد جُزنا البويبَ لأنه إلى وَصْلِ مَنْ نَهواه باب مجربُ

وَمن آخرغلب عليه الهيام فأنشد قول الزين بن الحسام:

ولما اعتنقنا للوداعَ عشية وفي القلبِ نيرانٌ لفرط غَليلهِ
بكيتُ وَهَلْ يُغني لبكاء عِنْدَ هَائم وقد غابَ عَنْ عينيه وَجه خَليلهِ

ومن آخر بدى وداع حليلته فأنشد قول من قال عند فراق خليلته:

ولما اعتقنا للوداع ودمعها على خدها يُغشي الصبابة، والوجدا
بَكيتُ لؤلؤاً رطباً فغاضت مدامعي عَقيقاً فَصَار الكل في نَحْرِهَا عِقْدا

وقال الصلاح الصفدي في مثل هذا اليوم عند مفارقة من وادعه من القوم:

لما اعتنقنا لوداع النوى وَكِدْتُ مِنْ حَرِّ الجوى أحرقهْ
رَأيتُ قلبي سار قدامه وأدمعي تجري، ولا تلحقه

وله أيضاً:

وَقَدْ فاضت دموعة لما بانت هُجوعه فيضا
ولم أنسَ إذ ودعوني ضُحى وقد مطرتنا غيوث البُكَا
وَبِتُّ بحال يسراً بعداً أمامي وفاي وعيني ورائي

وقال آخر:

لا تحسبوا أني تجلست بمدمع يجري دما يوم الفِراق حَقيقاً

ما إنْ بخلت وكأن دُراً قبل إذا أيجوز بُخلي حين صار عَقيقاً

وقال آخر:

فوا عجباً ممن يمد يمينه إلى ألفه عند الوداع فيسرعُ

ضعفت عن التوديع حين أدته ودعته بالقلب، والعين تدمعُ

وطفق الباعة أيضاً في الرجوع عن الحاج إذ لم يبق لهم في البركة حاج وآب بعدهم من خرج بقصده التنزه، والتفرج وخفضوا رفع فساطيطهم المنصوبة، ولم يبق لها تبرج وبقي الحجاج يتمتعون بماء/ ١٢٥/ النيل العذب الفرات المزري بدجلة، والفرات ويتضلعون من شربه ويشتاقون للري منه على قربه ويستقون الروايا، والقِرب ويعدون إدخاره لعجرود من أعظم القِرَب.

فيا سعادة من ساعده الجمال، وأكثر له الإجمال وساعفه على حمل الماء زيادة على الأحمال إذ بسهولة الجمال يسهل ما في الحجاز من الأثقال ومعه در الصلاح الصفدي إذ قال:

دَربُ الحجاز مشقة لكن إذا الجمالُ هان تساهلت أهوالهْ

أصبحتُ في تصريف جِمالي على ما يشتهي فكأنني جمالهْ

قَدْ كان خَفَّ على فؤادي لو غدا من فوق ظهري في الثرا أجمالهْ

ويكون طوعي في الذي اختاره لكن قَسَى، وتضاعفت أثقالهْ

وله في معناه:

دَربُ الحجاز مُباركٌ لكنه يحتاج صبراً زائداً الأَحْمَالِ

وَغُبونه شتى، ولا مِثْلَ الذي أصبحت ألقاه من الجمالِ

وقد مَرَّ في المقدمة الرابعة بعض ما للحمالين من آفات، الرابعة:

وإن تبتغي معهم سعة الأخلاق وإعطائهم من المجاملة وافر الحظ، وأحسن الأخلاق إلى مساعفة ومساعدة وعدم مجافاة ومباعدة لأن مدار السفر كله عليهم ومآل حمل الأثقال إليهم فلا يخفى عن كل امرئ عاقل أنه لا تقطع إلا بالجمال، والجِمال هاتيك المعاقل فيكثر له من الإحسان وحلاوة اللسان.

وكان ابن المبارك (ﷺ) يكثر المشي راجلاً حتى تخبرني قال فدعني حتى أخبرك أليس يقال في حسن الصحبة قلت بلى فهذا من حسن الصحبة مع الجمال أليس يقال قد اغبرت قدماه في سبيل الله ونحن نمشي فيه اليس يقال إدخال السرور على المسلم صدقة قلت بلى قال فهذا الجمال كلما مشينا سر قال السائل هذا أحب إلي من ألف درهم غير أنه لا ينبغي للإنسان أن يستمر معهم على لين الجانب وإدامة الإحسان بل يغلظ عليهم غلظة ماء ويجفوهم بالفعل، واللسان فان الجمالين، ولا سيما جمالة الحجاز موصوفون بالظلم، والبغي ومجاوزة الحد في الفساد، والغي لا يلحق لهم غرض، وهم الذين يغضبون/ ١٢٦/ إذا عن الذباب وعرض فإذا رأى الإنسان منهم ذلك الضرب فيهتم إلى السبقية بالشتم، والضرب فقد مر عن الأعمش، وهو ماهو في العلم، والكمال إن من تمام الإحرام شج الجمال.

وقال ابن أبي حجلة التلمساني:

لجمالنا في الليلِ مشى لأجله ... أرى ضَربه في الحج ضَربة لازبِ

عديمُ ضياء الحس يمشي بجمله ... كَحَاطبِ ليلٍ فِي طريق المُحاطبِ

وقال الصلاح الصفدي:

غداً سفر الحجاز كما تراه ... لا خَلاقَ الرجال بدا محكا

فَكَمْ مِنْ صَاحبٍ أَمْسَى عدواً ... به وصحيحُ وُدٌّ قَدْ تَشكى

وجمالُ جميل لا تراه ... وَعكام أتى من أرض عَكا

كَمـا أن المقـوم في أعوجـاج ... وحـين تقيمـه نبـدك دكـاً

وله:

كَـمْ جَمـل تَنتصـب للشـقا ... مـا جـره الجـمال إلا انـكسرْ

وكـان في الركـب يـرى مبتـدا ... فـما لـه مـن بعـد هـذا خـبرْ

وغالب خدمة الحجاز موصوفون بهذه الأوصاف وقلما نجد أحداً منهم تجمل بالإسعاف، أو الانصاف فلا ترى من مشاعلي، أو عكام، أو سقاء، أو طباخ، أو فراش إلا، وقد سدد سهام أخلاقه الصعبة الشرسة لمن أخدمه وراش.

وأما حسن الصورة فغريب في هاتيك الأجناس وقبح السيرة تابع لقبح الصورة كما هو مقرر بين الناس غير أني رأيت بعض من استعبده الغرام واستخدمه أبدى غزلاً لطيفاً في أنواع هؤلاء الخدمة فمن ذلك قول الشهاب ابن حجر في جمال موصوف بالجمال:

وسـيروان قـاد قلبـي وقـد ... قطـر دمعـي هجـره كـالجمان

وله فيه:

فـلا تشـق بوعـده ... قطـر دمعـي إذ قطـر

ولآخر فيه:

وسـيروان كالشـمس وجنتـه ... قطـر دمعـي، ولـيس ذا عَجـبْ

مـا زلـت أهـوى مناخـه زمنـا ... فضـاع رحـلي و-ـنـي القتـبْ

ولابن أبي حجلة التلمساني:

كَـمْ قُلـتُ للجـمال يـا سـعادة ... إن كنت تبغي للكرى زيادة/ ١٢٧/

فـدق المضـيق جمـلي، ولا تخـف ... وفي الفـلا أمسـى بـلا قيـادة

وقال الصلاح يوري بهجان عد من الملاح:

يـــا حُســـن هجـــان رأيـــت قوامـــه ... منـــه تعـــار معـــاطف الأغصـــانِ

أبصرتُ خَـــطّ عـــذاره في خـــده ... فقرأتـــه يـــا ليتـــه هجـــاني

وقال ابن أبي حجلة فيه:

كَـــمْ قلـــت للهَجّـــان أنـــت الـــذي ... قطـــرت دمـــع العـــين الرانـــا

بـــالله هـــل هجـــاك هجـــوى امـــرئ ... فـــال مـــذ أحببـــت هجانـــا

ولآخر في مليح سقاء:

لله سَـــقاءٌ لـــه طلعـــةٌ ... لنيـــل حُســـن قَـــدْ غَـــدت حاويـــة

أروم أن يســـكب لي قربـــة ... وعـــبرتي عـــن صـــبوتي راويـــة

وفي مليح فراش:

فُتنـــتُ بِحُســـنِ فَـــرَّاشٍ بَـــديعٍ ... بـــه قـــد همـــت مـــن فـــرط المحبـــة

كـــأن الـــردف، والســـاقية منـــه ... إذا مـــا مـــاس أعمـــدة وقبـــة

وفيه لآخر:

رُبَّ فَـــراشٍ لـــه وجنـــةٌ ... تفـــوق لـــون الـــورد بـــالحمرة

منبســـط الـــنَّفس ســـخي إذا ... حيـــا محبـــا قـــدم الســـفرة

وفي مليح طباخ:

فضـــح الوجـــد بطبـــاخ بـــه ... أضرمـــت نـــار غرامـــي يـــا أخـــي

وعـــدت نـــفسي بـــه مغمومـــة ... مـــذ قـــلاني في الهـــوى مـــن غـــير شيء

وفي مليح خباز:

رغيـــف ذا الخبـــاز لطفـــا حكـــى ... مـــن وجهـــه التـــدوير، والجمـــرة

إذا رأى ميزانـــه المشـــتري ... قـــال هنـــا الميـــزان، والزهـــرة

وللمجد عبد الوهاب في مشاعلي:

بأبي غزا لألاء يحمل مشعلا ... يكسو الدما بملاء ثوب أصفر
فكأن غصن عليه باقة ... من نرجس، أو زهرة من نوفر

وفي مليح طست داري، وهو الذي يحمل الطاس، والإبريق ويترك مبصره يغص بالريق:

أضنى فؤادي طشت دار له ... وجه كبدر، أو كشمس النهار/ ١٢٨/
وكلما أسأله دورة ... يوما إلى نحري بالوصل دار

وفي ساع بين يدي الأمير ملازم لركابه كالسمير:

بالروح أفدي ساعياً ... جماله يضني الورى
لا بد لي من وصله ... ولو جرى لي ما جرى

وفي قوّاس أبدى من حاجبيه موتر الأقواس:

رأيت قواساً كبدر الدجا ... يرمي بقوس حسن المنظر
فقلت ذا القوس لمن يا فتى ... فقال إن القوس للمشتري

وفي سائس الخيل، وقد أبى وجها أزها من القمر في جنح الليل:

وَسَائسٍ هَام قلبي بحسنه، والكياسة ... بالشرع ما نلت منه شيئاً، ولا بالسياسة

وفي بيطار سار صيت حسنه في الأقطار واشتهر وطار:

يا حسن بيطار أقول له وقد ... أصبحت في بحر الدموع غريقا
لو أن قلبي من حديد لم يكن ... في مثل حبك يحمل التطريقا

وفي بخار:

بروحي بخار حكى الغصن قده ... رشيق التثني أور الطرف وسنان
يميل على الأعواد قطعاً بها خبت ... وما سرقت من قده، وهي

[مابين حاصرتين فراغ في الأصل]

ارتفاع النهار بآبار نبط المزرية بفائض الأنهار، وهو منهل من المناهل المشهورة، والمياه المذكورة وفيه آبار أربعة محكمة البناء بالحجر المنحوت، وألفينا ماءها في غاية الغزارة لقرب عهده بالأمطار لأن غزارة مياه أودية الدرب إنما تكون بحسب كثرة المطر وقلته فإذا حمل الوادي ولو مرة بالسنة غزر الماء سائر السنة وماؤه من أعذب المياه، وأحلاها، وأجلها، وأصفاها، وأجلاها فيكون للحجاج رفق عظيم، ولا سيما إذا لم يكن بالوجه كثير ماء فإن الماء لا يرد على ماء حلو طيب من مغارة شعيب إلى نبط.

وأنشد الزين للشهاب ابن أبي حجلة:

مَغارةُ نبط أخصب الله أرضها ... ولا زال يهمي بالمياه بها الجو

يقال هلا بحر الحجاز لأنها ... بها الماء مثل البحر لكنه حلو

وله:

جئنا مغارة نبط، والمياه ممدا ... في الدرب حتى بدا في ينبع الماء

ولأبي عبد الله الفيومي:

رَوِّ من نَبطٍ مطيتي ... واستن، ثم توجه

وَدَعِ الحوراء فإني ... صرت أثناها، وأكره

ولغيره في معناه، وهو الفارضي:

أستثني من ماء نبط لو يكن في العمر مرة ... وَدَعِ الحُور أقاني صرت أشنأها، وأكره

وتسمية هذا المهل بنبط كما في الغالب الرهل هو المتداول المشهور الجاري على الألسنة، والأقدمون يسمونه مغيرة، وهو الذي في ملأ الصيبة.

قال ابن رشد:

ووافينا من ينبع المغيرة ... ماء يحتضر في إحساء

قال وضبط هذا الأسم مفعلة بفتح الغين من التعيير قال أبو سالم، والماء المذكور يسمى في هذه الأزمان نبط، وما ذكر في ضبطه إن كان من التغيير كما قال فيكون مفعلة

بفتح الغين المعجمة، وتشديد الياء اسم معفول، والذي ينطق به الكافة في أمثالها، وهي كثيرة مغيرة بفتح الغين المعجمة وياء ساكنة خفيفة تصغير مغارة من الفور، وهو الأنسب بالأمكنة المسماة بهذا الاسم، والله أعلم.

وارتحلنا من نبط وسرنا على طراطر الراعي بين جبال ليس فيها مرعى وبعضهم يسمى المنزلة طرطور الراعي وبعضهم بالأباطح جمع الأبطح، وهو المنبطح من الأرض، ثم مررنا بوادي النار الذي وافق اسمه مسماه إذ هواؤه أشد حرارة من النار، وهو واد مغبر طبق بين جبلين لا سعة فيه من نبط إلى الخضيراء فإذا امتد النهار واشتد الحر حجبت/ ١٣١/ الجبال عنه الهواء البحري فيعكس غربيا، أو شرقيا صاعداً مع الوادي، أو منحدراً فيصير سموما محرقاً.

قلة الماء بهذه المفازة فربما هلك المار فيه وربما أحدث مسية في الأبدان بقبح الهواء وحرارته فيموت المؤون، والألوف في صرعة في ساعة واحدة ويكون في الإياب أكثر.

وقد لحق الناس في هذه السنة طرف من ذلك فأصبح كثير من الناس في الهوالك واشتد على الناس حره في الليل غاية الشدة فتوجهوا إلى الله تعالى يسألونه الفرج قارعين بابه الذي هو أعظم بيده فنظر بعين رحمته إليهم، وأدرك نسماتهم بهبوب النسمات عليهم، وما أحسن قول الشهاب لمن لقلبه في المحبة التهاب:

مَـررتُ بـوادي النـار، والليـل مقبـل ... وقد مال جفن المليل، والغمض للصبح
فلما اختفـى طرطـور راعيـه في الـدجا ... توليـت رعـي الـنجم عنـه إلى الصبح

وله:

أسير بـوادي النـار، والقلـب في الحشـا ... يكـاد لـريح هبـت فيـه يـذوب
ولـولا نسـيم هبـت مـن نحـو طيبـة ... لمـا كـان عـيشي في هـواه يطيـب

وأصبحنا مع ارتفاع النهار في الخضيراء مصفراً ويقال الخضراء، وهو أخبث فكان على وجه الخضراء وربما سماه بعضهم الخضيرة فأبدى ضرره، وأظهر ضيره وهبت فيه

على الحجاج سموم أنقع من الشموم فلا تمر بعده بشجرة إلا ألفيت تحتها ميتاً قد اتخذها قبراً وبيتاً وارتحلنا من الخضيراء بعد الظهر في تعب عظيم ومشقة فادحة وحر شديد وقيلولة فاضحة وخلفنا فيها من الأموات ما ملأ في جوانبها من الأشجار، والفلوات، وتذكرت قول الصلاح لأموات ظهر شخصهم تحت شجر أم غيلان ولاح:

أقــولُ لمــن بــدا في الكــرب ملقــى　　بقارعــــة الطريــــق مــــن المنايـــا
خَرجــــتُ بغــــير مركــــوب وزاد　　فنفســــك لمْ، ولا تلـــم المطايـــا

أفاض الله تعالى سجال رحمته على وفده، وأباح لهم بحبوحة جنانه بفضلة ورفده ومررنا نقطع الرحلة المعروفة بالسبع وعرات في مضائق وحجارة وحدرات وعرات وثلاث منها أعظم من أربعة، وهي رحلة متعبة تحتاج إلى أعمال الديداء، والربعة وبعدما قطعنا هاتيك الأوعار/ ١٣٢/ خرجنا لأرض رملها من النبات عار.

ووصلنا البندر الينبع مع طلوع الشمس اغتناماً لراحة النفس لأني تقدمت قبل الركب خشية ما يحدثه الحر في تلك الأرض من الكرب وبقيت أمام البندر متظللاً بفنائه ممتعا بما أسدى إلي بعض من سخره الله إلي من رطبه ومائه، وما زال الركب يمتد دخوله على النوال حتى فات وقت الزوال.

ودخل أمير الركب المصري في هيئة عظيمة الضخامة دالة على علو القدر وسعة الفخامة ونشر من الرايات، والأعلام ما لا تحيط بوصفه ألسنة الأقلام وقدم أمامه من العسكر جملة وافرة حازوا مديد الحزم ووافره، وأظهروا من السلاح الفائق، والملابس الفاخرة ما أبدى مآثر كبيرهم ومفاخره وكسوا المحمل الشريف بها علم من لباسه المعظم وحلوا جملة بما أشرنا إليه من جوهر الجمال المنتظم.

وجعل الأمير حوله من الأطبال ماحرك تلك الجبال، ومن الغيطان، والأبواق ما هيج كامن الأشواق وخرج لملاقاته أشراف تلك الأرض في أبهة عظيمة، وأظهروا بتبجيله، وتعظيمه ومعهم من الأعراب مالا يعبر عنهم أعراب عد الحصاؤون

إحصائهم واستقصاء الشهب أسهل من استقصائهم، وأمامهم أطبال ليس لها بالنسبة لهيئة بال.

وقامت سوق جامعة لكل ما يحتاج إليه ومشتملة على كل ما يتوقف الإنسان عليه من أنواع الأطعمة، والفواكه التي ليس لها مشاكة وخصوصاً الرطب، والليم ففي الينبع منها ما لا يوجد في إقليم، وتحرك هنالك شوم عظيم سكنت لحركته الأرواح وراحت دون تعويل على الرواح فمات من الخلائق ما لا يعد، ولا يحصر، ولا يجد عهدك بالرجل يتكلم فإذا بأجله قد ألم، وما توجع، ولا تألم وبالآخر يتناول الحوائج من الخيمة للبيت فإذا هو منذ زمان ميت وبالآخر يطوف من خلف، وأمام فإذا نشره قد طواه الحمام فالله الأمر من قبل، ومن بعد في القرب، والبعد.

وأما البهائم، والخيل، والجمال فلا تسل عما بقي منها ملقى بين تلك الرمال تقبل الله ذلك وسلك بنا أوضح المسالك.

وقال الزين الحنبلي الينبع منقول من مضارع تبع الماء كنصر إذا ظهر، وهي على أربعة أيام من نواحي المدينة سميت ينبعاً لكثرة ينابيعها/ ١٣٣/ قال بعضهم بها مائة وسبعون عينا.

قال السيد السمهودي وسكانها جهينة وبنو ليث الأنصار، وهي في زمننا لبني حسن العلويين.

قال ومسجد العشيرة معروف ببطن ينبع، وهو مسجد القرية التي نزلها الحاج المصري في وروده وصدوره، والعين اليوم جارية عنده لكن لا يعرف بهذا الاسم.

قال المجد، وهذا المسجد اليوم من المساجد المشهورة، والمعابد المشهودة المذكورة تحمل إليه النذور ويتقرب إلى الله تعالى بالزيارة له، والحضور، ولا يخفى على النفس المؤمنة روح ظاهر على ذلك المكان، وأنس يشهد له بأنه حضره سيد الأنس، والجان وبها مياه عديدة أشهرها الآن عين البركة وعين علي (رضي الله عنه).

وقال صاحب تقويم البلدان، والينبع مدينة بالقرب من المدينة.

وورد ذكرها في الحديث قال ابن سعيد، والينبع بها عيون وحفير وحصن، وهي منازل بني الحسن (ﷺ).

وقال ابن حوقل وينبع حصن به نخيل وماء وزرع وبه وقف لعلي بن أبي طالب (ﷺ) يتولاه أولاده وبقرب ينبع جبل رضوى مطل عليها من شرقيه، ومن رضوى يحمل حجر المسن إلى سائر الأقطار وبينه وبين المدينة سبع مراحل.

ورضوى جبل منيف ذو شعاب، وأودية وينبع مياه جارية ونخيل وزروع وبها جامعان معطلان من الخطبة وغالب أهله على مذهب الزيدية يستبيحون دماء الشافعية، وأذانهم حي على خير العمل وبها الحدائق، والخانات، والأفران، والبيوت، وقد خربت ودثرت منها أماكن كثيرة جداً، وتنصب به سوق عظيمة لبيع القماش وغيره من المأكولات، والدقيق، والفول، والغنم.

وعلى مرحلة منه البندر الذي بساحل البحر الملح غربا وبه خان وحصار ونوباجية وجماعة الشريف يأخذون المؤن من أهل المراكب المارة بهذا البندر، وهي عادة لأمير الينبع يستعين بها على مصروف أمرته وعلى أمير الينبع عوائد ومصاريف لجماعة أمير الحاج بطريق المكارمة وحسن القيام بخدمة السلطنة.

والينبع من المناهل الكبار ويوجد فيه من المأكولات، والأغنام، والسمن، والعسل، والتمر، والرطب الذي لا نظير له، والدجاج، والإوز، والملوخية، والباذنجان، والليمون، والفجل، والكراث، وأنواع المخللات وغير ذلك ما لا يوجد/ ١٣٤/ في قواعد الأمصار وبه عدة خيوف يقال أنها نحو الستين خيفا ذكرها صاحب الدرر الفرائد المنظمة، والمجد، والسيد وغيرهم.

وما قدمناه عن الزين من أن الينبع منقول من المضارع هو المصرح به في الدواوين التي رأيناها في جمعها وعليه جماعة المحققين.

ولذلك قال العلامة أبو عبد الله السوسي فأجاد ما شاء في التوريات وغيرها:

إن كان مذ قضى الفراق وصدني عنكم حِجازٌ من نوى لا يرفعُ

فأنـا الـذي دمعـي العتيـق ونـاظري يـا بـدر بعـد البعـد عـنكم ينبـعُ

وعلى ذلك جرى الراجز في قوله:

وأدخـل إلى جزيـرة منبسـطاً يأتيـك أهـل ينبـع لمـن سـطا

وقال ابن جماعة:

وفي ينبـع كـان المقـام فحبـذا ديـار لعمـري لا أحـب سـواها

وجماعة من العلماء يعبرون بالينبوع بزيادة الواو ظناً أنه منقول من ينبوع الماء الذي هو عنصره، وأصل خروجه وعليه درج الشيخ البكري في رحلته، والشرف البوصيري في الهمزية حيث قال:

حاورتهـا الحـوراء شـوقاً فينبـوع فـرق الينبـوع، والحـوراء

وأقره جميع شروحها، وهو مخالف لما في أمهات الأقدمين فليتأمل.

وفي قرية الينبع تنشرح الصدور، وتقر العيون، وتظهر آثار الرسول عليه السلام الذي هو صدر الصدور وعين العيون، وتنبسط النفس لما في نواحيها من الينابيع، والعيون ويستبشر واردها بلقاء الأحباب ودنوا شرف المنازل، وأرفع القباب ويتأنسون عند تلك العيون، والحدائق بكل أمر لائق.

ويا ما أحسن قول الشهاب ابن أبي حجلة:

وَفِتيـان صـدق مـا البـدر سـواهم قطعـت بهـم كالبـدر أفـق المناهـل

ووأخيـتهم في الـزاد، وفي أخـوة وراضـعتهم في المـاء ثـدي المناهـل

وقد تذكرت عند ورودنا منهل الينبع، وتلقانا أهله بنغمات يطرب له وعر ذلك القطر وسهله ما قاله الشيخ المحدث أبو عبد الله محمد بن رشيد السبتي الفهري في رحلته الجامعة قال، ولا وافينا ينبع خرج مغنون بأصوات طيبة عذبة يرددون هذه الأبيات ويحيون بها القادمين ويحيون نفسهم الميتة بطيب تلك النغمات/ ١٣٥/

أيهـا القـادمون أهـلاً وسـهلاً كيـف نجد وكيـف بـان المصلى

كيــف خَلفــتم العقيــق وســلعاً وقبــاء، والنقــا، ومــن، ثــم حــلا

فأجــابوا الله مــا كــان أهنــا زمــن الملتقــى، ومــا كــان أحــلا

قال ابن رشيد لله درهم جادوا عن الجواب لما رأوا أنهم لا عذر لهم في الإياب قال وينبع عن يمين رضوى لمن كان منحدراً من المدينة على البحر وروى أن رسول الله (ﷺ) صلى في مسجد ينبع، وهو من حديث محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب انتهى.

قال أبو سالم يفهم من قول ابن رشيد لله درهم إلى آخره أن كيف في كلام السائل للإنكار، والتوبيخ عن الرجوع من تلك الأماكن وكيف طابت نفوسهم حتى خلفوها، وليس في الكلام ما يدل على ذلك بل يمكن أن تكون للسؤال حقيقة عن تلك الأماكن على وجه التحسر، والتحزن، والاشتياق إليها كالتي قبلها وإذا كان كذلك فالجواب مطابق لأنه أخبار بما يزيد في شوق السائل وحنينه إلى تلك المعاهد.

قلت هو كلام صحيح في غاية الحسن، والتوضيح، وأما مسجد ينبع فقد مر عن السمهودي أنه من المساجد التي صلى فيها النبي (ﷺ)، وأنه مسجد القرية التي ينزلها الحاج.

وقد ذكر أهل السير أن النبي (ﷺ) وصل إليها في إحدى غزواته، وهي الغزوة المشهورة بغزوة العشيرة وكذلك المسجد يعرف بمسجد العشيرة كما في السمهودي.

وأما الأبيات فقد اشتهرت بين أدباء المغرب في قرب ذلك العصر، وأكثروا من معارضتها، وتذييلها وممن ذيل عليها الأديب البارع أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف بن الحسن بن حبيش اللخمي الزاهد نزيل تونس المتوفي بها سنة سبع وثمانين وستمائة قال العربي بعد التعريف به وذكر جملة مستكثرة من نظمه ما نصه، وأنشد بعض حجاج المغاربة هذه الأبيات فذكرها وذكر له أن سمعها بالينبع وسأله أن يزيد عليها فقال رحمه الله تعالى:

حيــث روض النعــيم بــالأنس يجنــى وعــروس السرور بالســعد تجــلا

حيث دار الحبيب تدعى سماء | والذي حجبت من الشمس أعلا
وحلا حمده من البدر أبهى | وعلا مجده من الصبح أجلا
من رأى ذلك المحل المحاد | كيف بالصبر بعده يتخلا/ ١٣٦/
كيف يدفق إلى دنية دنيا | من له ذلك الجلال تجلا
أجميل ينسى بثينة، أو ير | ضى بذاك الجمال وعداً وجملا
أو أنيس لبانة غير لبنى | أو يرى عروة لعفراء مثلا
أو مريد سوى حبابة يهوى | أو كثير عن عزة يتسلا
ويح صاد أبيح ورداً بصدي | إن حلا فهو بالفراق يحلا
أصعب الهجر في المحبة هجر | ذاقه الصب عدما ذات وصلا
يا أحبتنا وللعذر يعزى | من تعزى على النوى، أو تسلى
طيبة الطيبين قدس منها | منزل هيئت به انحاز نزلا
ضاع ريا وضاء رؤيا فقلنا | زهر طل، أو صباح أطلا
بد وادي العقيق لا شهد يحلو | لا، ولا مشهد بعيني يحلا
نهلا كان رشفه أودى | وظمائي يزيد لو كان علا
ليس لي غير حب أحمد ذخر | ليس يبلى إذا السرائر تبلى
هو لي في قبري وحشري كما قد | همت فيه هما زنهلا وطفلا
ليس إلا محمد قيل فيه | سيد الخلق وحده ليس إلا
مصطفاه أحبه وحباه | بخصال حازت من السبق خصلا
ما عسى ينتهي له كل متن | والمثاني بوصف علياه تتلى
ما تنسمت بعد ذكراه مسكاً | ما تعرضت بعد جدواه وبلا

قلبـــوا القلـــب تـــبصروا فيــــه للروضـــة وإلا قـــبر الثلاثـــة شـــكلا

وأقـــروا اللهـــوى نجـــدي طرســـا كتـب الـدمع فهـي مـا الشـوق أمـلي

يـــا محـــب الرســـول هـــذا ثـــراه عفـــر الخـــد حيـــث أوطـــأ فعـــلا

وقبـــول الصـــلاة، والصـــوم إن رمـت فحاولـه حيـث صـام وصـلى

هـــاك يـــا أربـــع الأحبـــة منـــي أربعـــاً أمنـــت بحبـــك محـــلا

مقلتـــي مزنـــة وحبـــي روضـــاً وقـــريضي ورقـــا وصـــدري ظـــلا

وهي طويلة جداً وكلها سلسلة غريبة المباني رائقة الألفاظ عذبة المعاني لا يعانيها معاني، وقد ألفيناه عامراً بالأعراب القاطنين بها حواليه من المداشر، وهم أقوام لا يحصرهم حشر حاشر فقد قيل إن متصل العمارة نحو ثلاثة أيام كلها قرى كثيرة ومزارع ونخيل وعيون جارية/ ١٣٧/ .

وفيها عامل لأمير مكة، وهي أمل بلاد الحجاز العامرة، والقرية التي نزل بها الركب هي آخر القرى التي من ناحية البحر، وليس بعدها إلا ينبع البحر الذي هو المرسى غالب أهل القرى يأتون إلى هذه القرية التي ينزل بها الحاج للتسوق، وتنصب فيها سوق كبيرة عظيمة يوجد فيها غالب المحتاج إليه من البضائع، والسلع.

وأما الثمار، والفواكه، والحبوب، والفول فقد مر أنه لا يعادلها في ذلك إقليم ووجدنا بالينبع أخبار الحرمين الشريفين وسائر بلاد الحجاز، وتعرفنا خبر رخصها وغلائها وخصبها وجدبها، ومنه تجلب الميرة إلى المدينة فإن السفن الجالبة للطعام من مصر ما كان منها إلى المدينة يرسى بينبع البحر، وما كان منها لمكة يتجاوز إلى جدة فإذا وصل الطعام إلى الينبع حمل منه إلى المدينة تحمله أعراب تلك الناحية من بني سالم وجهينة ويتدركون بالطريق من هناك إلى المدينة.

وقد أقمنا فيه يومين ريثما قضينا الغرض من كل أمر عرض وخزن الناس شيئاً أزوادهم في حواصل البندر ليدوا جدواه في الرجعة إذا قل الزاد، وتعذر، وفي الليلة

الثانية أخرج المصريون على عادتهم المحاريق، والمدافع وبالغوا في ذلك كعادتهم في غيره لما لهم فيه من الأبهة وكثير المنافع.

وارتحلنا من ينبع وسرنا في رمال، وأشجار قليلة فأصبحنا بالسقايف وآخر الركب لأوله قائف قال أبو سالم ويقال للسقايف دار الوقدة لأنهم يقدون فيه الشمع الكثير يستصحبه الناس معهم من مصر لذلك ويبيعونه في الركب ويجعلونه على أقتاب الجمال بالليل فترى الركب كله كأنه من أعظم المساجد المسرجة مصابيحها في أحد المواسم وشاع عندهم إن الصحابة في غزوة بدر أوقدوا هنا نيراناً كثيرة فنحن نتشبه بهم، وتلك غفلة منهم وخطات من وجهين أحدها أن وقوع الأمر بإيقاد النيران الكثيرة إنما هو في غزوة الفتح بمر الظهران كما هو معروف في كتب السير.

وأما بدر فلم يقل فيها أحد ذلك وثانيها لو سلم ذلك وقع فيها فقد كان لإرهاب العدو وإظهار قوة المسلمين وكثرة عددهم فحيث لا عدو فلا معنى له، ولا شك أن الفرح بنصر الله أولياءه على أعدائه، والاستبشار بالأماكن التي أعز الله فيها الإسلام أمر مطلوب/ ١٣٨/ مستحسن ما لم يؤد ذل إلى محظور كاعتقاد أن الوقود سنة متبعة بل ربما ظن بعضهم أنها من أفعال الحج فتعظم بغير ذلك من الفرح، والسرور، والصدقة، والعبادة، والإعلان بالكشر.

قال، وقد جاءني كثير ممن لا سمع عنده يستفتون ويقولون لا شمع عندنا فهل يلزمنا شراؤه ظانين أن ذلك من مناسك حجهم وشعائرهم وكم مثلها من بدعة محدثة يرى الناس أنها من أعظم القربات نسأل الله أن يثبتنا على سنة النبي المستقيمة لا نرى فيها عوجاً، ولا أمتى.

قلت هو كلام لا بأس به وذلك الأمر الثاني الذي يعد به الإيقاد لا يخفى ما فيه من التأمل فكم من سنة ذهب سببها وبقي السلف يرتكبونها اغتناماً لبركتها وكون دار الوقد هي السقايف كما قال الظاهر أنه كان على وقته عند المغاربة.

وأما اليوم فإن دار الوقدة هي بدر نفسها وفيها أسرجوا كل شيء كما سيأتي في اعتقاد البعض أن ذلك من المناسك هو صحيح كما قال فقد وردت علينا جماعات يستفتون في شراء الشمع وهل يكفيهم منه القليل وغير ذلك مما تقتضيه عجمة العامة، وتعمقهم في الجهل.

وارتحلنا من السقائف، ولم نمر بالدهناء لأن مكانها انجرف عن صوب الطريق وناء مع كون بنيانها اندثر، ولم يبق منها إلا قليل الأثر.

قال الزين الحنبلي الدهناء بلد سيدي أحمد البدوي، وكانت قرية عامرة يسكنها بنوا إبراهيم قديماً، وكان بها بيوت ومساجد وحدائق، وأشجار وعيون جارية حلوة فلما سعوا في الأرض الفساد وبالغوا في الغي، والعناد جهز السلطان الغوري من يقطع دابرهم وقطعت رؤوسهم، وتوالى عليهم المحل فخربت وغارت عيونها وجفت أشجارها وصارت مثلاً، وكانت أحق بقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا﴾ [النحل: ١١٢] الآية.

وبها الآن أشجار ومحاطب وسرنا في فضاء ومضيق رمل، ثم وعر بين جبلين الشرقي رمل، والغربي مختلط حجر ورمل يسميان بالأبرقين وهما مشرفان.

ثم انحدرنا في جسر طويل كان حداً بين المسلمين، والكفار في غزاة بدر ووصلنا إلى بدر الذي هو أحد المناهل الحجازية ضحى ويقال لها بدر وحنين، وهو الجاري على ألسنة الحجاج في هذه الأزمان.

قال الزين/ ١٣٩/ الحنبلي: وحنين أمامها، وليس المرادة في الآية وكذلك أوردها الشيخ البكري في رحلته، وقد ألفينا الركب الشامي نازلاً هنالك، وقد نصبوا من الفساطيط المرفوعة في خفض العيش وسعة النعمة غير ذلك مالا يعبر عنه بلسان، ولا يكفيه إنسان، وهم ناس ألبسوا جلابيب الزانة، وتحلى كل منهم بما ألبسته حسناً وزانة فوسع علينا بعد العصر بالارتحال واتسعت علينا الحال.

وبتنا نقد الشموع في جميع المحال ونعم بها أعناق الإبل وجميع أعضائها فضلاً عن الاقتاب، والرحال وهنا في بدر جرت عادة الحجاج بإيقاد الشموع الزاهية على الشمس، والبدر، وما مر بتسمية السقايف بدار الوقدة للإيقاد فيها عن أبي سالم ليس بخال عن التأمل، ولا سالم، ولا سيما، وهم يزعمون أن سبب ذلك كون الصحابة أوقدوا النيران في غزاة بدر فهم يتشبهون بهم في هذا القدر، ولم يذكر أحد للسقائف وقده فإني لأبي سالم هذه الرقدة، ولما بالغوا في الإيقاد ومنعهم السرور، والفرح من الرقاد أخذوا يذيبون الرؤوس السكرية في الماء ويطوفون بها على جميع البهائم حتى شرب من ذلك جميع الناس وحصل لهم بنزل تلك الدار ما لا يكيف من السرور، والإيناس وبقيت الإشارات تدل على عظم الشارات وصوروا صور الحيوانات في المصابيح، وأبدوا من هيئات الطيور وغيرها كل شكل غريب وشخص صبيح وببدر مسجد الغمامة، وهو موضع الأريكة التي كان رسول الله (ﷺ) جالساً عليها يشرف على القتال، والغمامة مظللة عليه.

وقال السيد السمهودي أنه كان العريش الذي بُني لرسول الله (ﷺ) يوم بدر عنده بقرب بطن الوادي بين النخيل، والعين قريبة منه.

وبقربه في جهة القبلة مسجداً آخر يسميه أهل بدر مسجداً لنصر.

وأما محطة الركب ففيها نخل وبيوت وعين ماء تجري، والفسقية التي بها عظيمة تروى منها لاأركاب كلها ويفضل فيها الماء وبالجملة فبدر من البقاع المشرفة بالآثار النبوية ومنها لاتزود، والمرور إلى المدينة المصطفوية وبها كانت نصرة النبي (ﷺ) على الكفار وإمداده بالملائكة على الخيول البلق مسومين بالعمائم وبها البقعة التي ضمت الشهداء الذين شهد لهم النبي بالجنة.

قال السيد السمهودي وبدر/ ١٤٠/ بئر حفرها رجل من غفار واسمه بدر بن قريش بن خلد بن النَّضر بن كنانة.

وقيل بدر رجل من بني ضمرة سكن ذلك الموضع فنسب إليه، ثم غلب اسمه عليه ويقال بدر التم البئر التي بها سميت بذلك لاستدارتها، أو صفاء مائها.

وحكي الواقدي إنكار ذلك كله عن غير واحد من شيوخ بني غفار قالوا إنما هي ماؤنا ومنازلنا، وما ملكها أحد قط يقال له بدر وإنما هو علم عليها كغيرها من البلاد.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الشعبي قال: كانت بدر بئراً لرجل من جهينة يقال له بدر فسميت به، وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال بدر ماء عن يمين طريق مكة بين مكة، والمدينة.

ويا ما أحسن قول الصلاح الصفدي:

أتينـا إلى البـدر المنـير محمـد	نَجُـدُّ السُّرَى حتـى نزلنـا علـى بـدرِ
فهـذا بـدي لـيس في اللفـظ مثلـه	وهـذا جنـاس لـيس في الـنظم، والنثـرِ

قال الزين الحنبلي وببدر أمران مستمران لا يعلم سببها الأول لا يزال يسمع عند مرور الركب بين الأبرقين ونزوله من الحدرة في الغاب وخصوصاً ليلة الجمعة صوتاً غريباً كالطبل قال وسمعته مراراً عديدة، وفي بعضها أشد من بعض، ولم أر في الأثر ما يدل على ذلك إلا ما نقله السيد السمهودي عن المرجاني أن رسول الله (ﷺ) شهد بدراً بسيفه الذي يدعى العضب وضرب فيها طبل خانة النصر فهي تضرب إلى قيام الساعة.

قلت ما ذكره من سماع الطبل صرح به ابن مرزوق أيضاً في شرح البردة فقال، ومن الآيات الباقة ببدر ما كنت أسمعه من غير واحد من الحجاج أنهم إذا اجتازوا بذلك الموضع يسمعون كهيئة طبل ملوك الوقت ويرون أن ذلك تنصر أهل الإيمان قال وربما أنكرت ذلك وربما ناولته بأن الموضع لعله صلب فيستجيب فيه حوافر الدواب.

وكان يقال لي أنه رمس رجل غير صلب وغالب ما يسير هناك الإبل، وأخفافها لا تصوت في الأرض الصلبة فكيف بالرمال قال، ثم لما مَنَّ الله تعالى بالوصول إلى ذلك الموضع المشرف نزلت عن الراحلة أمشي وبيدي عود طويل من شجر السعدان المسمى

بأم غيلان، وقد نسيت ذلك الخبر الذي كنت أسمع فما راعني، وأنا أسير في الهاجرة إلا واحد من عبيد الأعراب/ ١٤١/ الجمالين يقول تسمعون الطبل فأخذتني لما سمعت كلامه قشعريرة بينة، وتذكرت ما كنت أخبرت به، وكان في الجو بعض ريح فسمعت صوت الطبل، وأنا دهش مما أصابني من الفرح، أو الهيبة، أو ما الله أعلم به فشككت وقلت لعل الريح سكنت في هذا الذي في يدي وحدث قبل هذا الصوت، وأنا حريص على طلب التحقيق بهذه الآية العظيمة فألقيت العود من يدي وجلست إلى الأرض، أو وثبت قائماً، أو فعلت جميع ذلك فسمعت صوت الطبل سماعاً محققاً، أو صوتاً لا أشك أنه صوت طبل، ثم نزلنا ببدر فظللت أسمع ذلك الصوت يومي أجمع المرة بعد المرة قال، ولقد أخبرت أن ذلك الصوت لا يسمعه جميع الناس انتهى.

قلت، وهذه المسالة مما كثر فيه كلام الناس وطال وإذا صرح الموثوق بهم كابن مرزوق، والزين وغيرهما أنهم سمعوه فالصحيح أن بعض الناس يسمعه دون بعض في تلك الرمال فما سمعت شيئاً، والله أعلم بحقيقة ذلك الأمر.

الثاني من الأمرين اللذين ذكرهما الزين أنه كان في كل سنة في الغالب يقدر الله تعالى بغرق نفر من الحاج إما من المصري، أو من الشامي في الذهاب، أو في الإياب، وقد يتفق الغرق بعد الإيذان بالرحيل فيقال إن البركة بها سكان من الجن يحصل منهم ذلك ويكون سبباً للغرق ويقال غير ذلك، والله أعلم بحقيقة ذلك قلت، وهذا الأمر لا شعور به للمغاربة فلعله مختص بركبان المشارقة، والله أعلم.

وبتنا ببدر، وأصبحنا نسير في أزقتها وبين بساتينها المشرفة ونخيلها الشديد الخضرة، والنعومة المشرقة العراجين وكثيراً ما ترددنا في أرضها المباركة عسى أن نمر بموطئ قدم أحد من أصحاب الرسول ولو علمنا قدم واحد منهم لكان تعفير الوجه فيه غاية المنى، والسؤال وعلى هذه القرية أنوار النبوة تلوح ونشر النصر يغدو ويروح ينشرح في نواحيها الصدر تنبسط الروح، وتطمئن النفس عند تجلي الله بصفة الجمال لكل صدر مشروح.

وقد ظهرت على أهل هذا البلد بركة الرسول معلنين بذلك، وأسعارها في الغالب أرخص من غيرها مع صغرها وانقطاعها عن البلاد، وأهلها محفوظون آمنون مطمئنون/ ١٤٢/ مع سوء أخلاق عرب صبح المجاورين لهم، وقد زرنا فيها محل الشهداء وعليهم جدار قصير محيط بقبورهم وبالقرب منهم قبور السادات الأشراف الردينية من أهل اليمن نزل أسلافهم بهذا البلد ولهم أتباع في طريق القوم ومجلس ذكر.

وتوجهنا لزيارة المسجد النبوي الذي هنالك الموسوم بمسجد العريش ومسجد الغمامة وسقى الناس ما احتاجوا إليه من ذلك الماء العذب الزلال الذي لا نظير له في تلك التلال وارتحلنا من بدر بعد الظهر، وتركنا تجاهه وادي الصفراء وسرنا بمضيق وعر ورمل بعده فضاء واسع لا يكاد يعالج سورة حياته معالج ويتصل بذلك الفضاء رملة عالج التي قال الصلاح في حياتها التي تؤنس النفس من حياتها:

في وسط رمل عالج	عجيبة أبينها
حياتها التبر غدا	بياضها يشينها
رأيت فيها حية	أشبه لي تكوينها
مفتاح عالج أبيض	أسنانه قرونها

وأصبحنا ضحى بقاع البزوة، والإبل من النشاط تنزوا نزة أي نزة، وأخذ هنيئة في سبيلها الأول لما رأيت الركب عزم على النزول به وعول.

قال الزين، والقاع اسم لكل مكان واسع مستو من الأرض قال في القاموس القاع أرض سهلة مطمئنة قد أنفرجت عنها الجبال، والأكام ويسمى طرف الجنحا، والجبت، وأنشد للصلاح:

قد سلكنا القاع المديد الذي	أضحى مضافا دون البقاع لبزوه
فهو قاع لا نبت فيه تراه	عين ساروكم لنا فيه سروه

وله أيضاً:

مررنـــا بقـــاع البـــزة الأفـــيح الـــذي ... عليـــه صريـــح الـــذم زاع حبيســـا

وكـــان بـــه للـــماء قـــدر وعـــزة ... وكـــان بـــه قـــدر الحشـــيش خيســـا

فسرنـــا بـــه يـــومين، والثالـــث انـــقضى ... وقـــد أذهبـــت فيـــه النفـــوس نفيســـا

وكـــم زيلـــع وافي وموســـى بكفـــه ... يســـخر في وســـط المفـــازة عيســـا

وما ذكرناه من تسمية هذا المكان بقاع البزوة مؤنثا بالهاء هو الذي في جل الرحل، أو كلها ولكنه لا وجود له في أمهات اللغويين، ولا في الكتب/ ١٤٣/ المصنفة في ضبط أسماء المواضع بل الموجود فيها البزواء ممدود كحمراء.

قال السيد السمهودي البزواء بالزاي كالحلواء بلدة بيضاء مرتفعة من الساحل بين الجارود، إن، وأنشد قول كثير:

ولا بـــأس بـــالبزواء أرضـــاً لـــو أنهـــا ... تطهـــر مـــن آثـــارهم فتطيـــب

وعلى ذلك اقتصر المجد في القاموس كغير، والله أعلم، وقد جاءنا أعراب فيها بالحشيش، والماء وارتحلنا وسرنا على حدرة، ثم مررنا ببئر الشريف، ثم الحنبلي، ثم مررنا بالحدرة المعروفة بعقبة ودان.

قال السيد السمهودي وُدَّان بالفتح ودال مهملة مشدودة آخره نون قرية على مرحلة من الجحفة بينها وبين الأبواء ستة أميال، أو ثمانية، وقد أكثر نصيب من ذكرها في أشعار كقوله:

أقـــول لركـــب قـــافلين عشـــية ... قفـــا ذات، أو شـــال و...ولاك قـــارب

قفـــوا أخـــبروني عـــن سـليمان إنـــني ... لمعروفـــة مـــن أهـــل ودان راغـــب

فعـــاجوا فـــاثنوا بالـــذي أنـــت أهلـــه ... ولـــو سـكتوا أثنيـــت عليـــك الحقائـــب

وفي أثناء هذه الليلة مررنا بمستورة ويقال مسيرة بالتصغير بعد العشاء فرأينا فيها عمارة وقهاوي وسرجا موقودة وروضة يتبرك بها، وتزار قيل إن بها قبر رجل من شرفاء اليمن يقال له الشيخ يحيى فزرناه بحسن النية، وأصبحنا بعد ارتفاع النهار برابغ في

عيش رابغ مستبشرين بالإحرام ومسرورين بالقرب للبيت الحرام ورابغ قرية عظيمة جامعة لأنواع المحتاج إليه وماؤها عذب في الغالب.

قال الزين الحنبلي رابغ لجانب البحر به حائف تعذب بتوالي الأمطار، وتعتريها ملوحة ما إذا قلت وبها قرية حسنة جامعة لها مزارع وفواكه يأتي أهلها بالحشيش، والأغنام، والحطب، والبطيخ وغير ذلك قال ومحل الإحرام الجحفة، وهي تقابلها يساراً صوب الجبل، وهي ميقات أهل مصر، والشام إذا جاؤوا من تبوك.

وقال صاحب المطالع الجحفة قرية جامعة بمنبر على طريق المدينة من مكة، وهي مهيعة وإنما سميت الجحفة لأن السيل أجحفها، وهي على ستة أميال من البحر وثماني مراحل من المدينة، وقيل سبع مراحل من المدينة/ ١٤٤/ وثلاث من مكة.

وقال السيد السمهودي: الجُحفة بالضم وسكون الحاء المهملة أحد المواقيت قرية كبيرة ذات منبر على نحو خمس مراحل وثلثي مرحلة من المدينة وعلى نحو أربع مراحل ونصف من مكة، وكانت تسمى أولا مهيعة كمعيشة ويقال لها مهيعة كمرحلة اسم للجحفة.

وقال عياض سميت الجحفة لأن السيول أجحفتها وحملت أهلها، وقيل إنما سميت بذلك من سنة سيل الجحاف سنة ثمانين الذهاب السيل بالحاج، وأمتعتهم.

وقال الحافظ المنذري لما أخرج العماليق بني عميل أخوة عاد من يثرب نزلاها فجاءهم سيل الجحاف فجحفهم وذهب بهم فسميت حينئذ الجحاف.

واستبعد ذلك كله العبدري فقال كانت تسمى الجحفة قبل الإسلام وإلى الآن وجاء ذكرها في الأحاديث الصحيحة، والأخبار الثابتة، وكان سيل الجحاف في إمارة عبد الملك بن مروان فكيف سميت به قبل وجوده، وأغرب من ذلك أن سيل الجحاف كان بمكة واجتحف الحجاج، والمحصب وذهب بهم وبأمتعتهم وهدم بمكة دوراً كثيرة ودخل المسجد الحرام، وأحاط بالكعبة.

وكان ذلك سحر يوم التروية من عام ثمانين فما شأنه، والجحفة حتى سميت به هذا مما لا يكون، وأنشد الزين لأبي عبد الله الفيومي:

لم أنــــسَ بالجحفــــة يومــــا غـــدا عقــــلي مــــن أهوالــــه رائـــغُ

يَـــومٌ لحـــوم الخلـــق فيـــه اســـتوت مــــن حــــره وانقلبــــت رابــــغُ

وكون رابغ بالغين المعجمة هو المصرح به في جميع الرحل وكتب الفقه ودواوين اللغة، وأغرب العبدري فقال إنه رابخ بالخاء المعجمة بدل ألفين مقتصراً عليه مع كونه لم يقله أحد.

وإنما في القاموس رابخ موضع بنجد من غير تعيين، وأما رابغ فعرفه بأنه ميقات كما في كتب الفقه، والوفاد خلاصته وغير ذلك فليحرر وقامت لنا فيها سوق، وأية سوق قام الناس له على سوق جمعت من أنواع الأطعمة، والأشربة، والبضائع، والعلف، والمحابر، والشقاذف وغير ذلك من كل ما يحتاج إليه مالا يصل التعبير عليه، وكانت هنالك حوانيت تخصف فيها النعال المعدة للإحرام يشتريها كل من طلبها ورام وسقى الناس من حفائرها الغزيرة الماء ما رأوه شافياً من الظلماء وبالغوا في غسل الثياب، والأبدان، وتوجه كل منهم إلى الله / ١٤٥/ تعالى ودان واغتسلنا للإحرام وبالغنا في الثناء على الله تعالى إذ بلغنا المرام، وتجردنا من ثيابنا وصلينا ركعتين الإحرام بعد صلاة الظهر ونوينا الإحرام بحجة الإسلام المفترضة على أنه الرسول عليه الصلاة، والسلام ورفعنا الأصوات بالتلبية ملازمين لما يناسب المقام من الأحوال الأدبية خاضعين لله تعالى حامدين له على ما أولادنا من الأنعام ووالى إذ هو الميقات المعروف عند الفقهاء لمقابلته للجحفة.

وارتحلنا منه وسرنا مطمئنين مسرورين فرحين مبرورين مديمين على التلبية من غير تفريط، ولا إفراط مستقبلين ما يرجى لمدير دنانير هاتيك الأجور من أنواع القيراط ومورنا ببطن هرشي، وهي كما قال السيد السمهودي هضبة ململة بأرض مستوية

أسفلها ودان على ميلين مما يلي مغيب الشمس ويتصل بها عن يمينها بينها وبين البحر خب ينسب إليها ثنية هرشي ويقال عقبة هرشي ودونها بميل منتصف طريق مكة ولها طريقان.

وكل من سلك واحد منها أفضى به إلى موضع واحد ولذا قيل خذا بطن هرشا، أو قفاها فإنما كلا جانبي هرشي لهن طريق ونزلنا قديد بالتصغير ذات الفواكه الكثيرة، والماء الذي لا يغيض، ولا يغير وبالقرب منها طارق قديد، وهو اسم جبل بالقرب من قديد وقديد كزبير قرية جامعة بين مكة، والمدينة كثيرة المياه قاله البكري وغيره لكنا لم نجد في المحل المع لنزول الحاج ماء بل الماء عنها بعيد وكذلك خبر عنها أبو سالم فقال، وهي قرية غالب أبنيتها حيشان وفيها قهاوي كثيرة المياه التي في نواحها، وقد ورد علينا جماعة من نواحيها بالحشيش، والدلاع الجيد، وهم يسمونه حبحب بلغتهم واشترينا ذلك منهم بأرخص ثمن.

وارتحلنا من قديد ظهراً فمرزنا مع غروب الشمس بعقبة الكسر، والأقدمون يعبرون عنها بعقبة السويق.

قال في الدرر الفرائد المنظمة، ومن العوائد المتقدمة إن أمراء الحاج يبادرون بتجهيز السقائين لنصب الأحواض أسفل الحدرة الكبار ويملؤوها من السكر المذاب لساقية الحاج فيعمون بذلك الكبير، والصغير، والغني، والفقير/ ١٤٦/ ويعدون ذلك من مكارم الأخلاق وسعة الإنفاق ويعدونه فرحا بالقرب لأم القرى، والاستبشار بمعاهدها فكانوا يفرقون المثين من رؤوس السكر المذاب، والآن إذا ملؤها بالماء عدوا ذلك أمراً عظيماً.

قال، وهذه العقبة معترضة في الجبل كثيرة الرمال، والأوعار سموها بذلك لما يقع فيها من سقي السويق وغيره.

وذكر أبو سالم أنهم يذكرون في ذلك أثراً عن النبي (ﷺ) وعبارته، وأكثر الناس خصوصاً المصارية يجلبون السكر من مصر بالقصد ليشربوه بعقبة السكر ويأثرون في

ذلك أثراً لا أصل له يزعمون أن رمل ذلك المحل قد انقلب للصحابة سكراً فشربوه.

قال، وهي عقبة في جبل صغير فيها رمل يتعب الإبل، وقد سوي البناء في جانبها، والتقطت الحجارة وبني مسجد صغير في أحد جانبيها قلت، وأثر ذلك المسجد باق إلى الآن، وقد رأيت مكتوباً على بعض جدرانه:

نزلنـــا هاهنـــا، ثـــم ارتحلنـــا ... كـــذا الـــدنيا نـــزول وارتحـــالُ

يظـــن العبـــد في الـــدنيا خلـــوداً ... خلـــود المـــرء في الـــدنيا محـــالُ

وانحدرنا من عقبة الكسر قرب العشاء، وقد تناولنا في أولها العشاء ومررنا بخليص ليلاً، وقد قاسينا في وصلته ما لا يقاس بعضه بمقاساة قيس ليلى فألفينا مياهه سائلة وفواكهه مبذولة لكل سائل وسائلة، وهو له من المزارع ما يستغني ولو بريته الزارع فاستقى الناس من تساقيه، وتنعم بفواكهه وارده وساقيه.

واشترى الناس من دلاعه الشديد الحلاوة أكثر ما سقوا من مائه الذي لا نظير له في العذوبة، واللذة، والطلاوة، وقد أكثر الرحالون من وصفه، وما بلغوا معشار ما اشتمل عليه فضلاً عن نصفه.

قال الزين الحنبلي خليص فضاء واسع كثير الأنس وبه حصن على جبل، ومن مزروعات وخضر وبطيخ وكروم وسمون، وأغنام.

وقال الأسدي: خليص عين غزيرة كثيرة الماء وعليها نخل كثير وبركة مشارع ومسجد لرسول الله (ﷺ) قال وعند الخرة مسجد لرسول الله (ﷺ) فيكون لرسول الله في تلك المسافة مسجدان عند حرة عقبة خليص مسجد وعند العين المسماة بخليص مسجد.

وقد ذكرهما/ ١٤٧/ السيد السمهودي رضي الله عه قال أبو سالم، وفي خليص عين تجري، وأبنية وقهاوي وسور، وقد سيق الماء في قنوات محكمة من العين يفجر عنها في مواضع للسقي، والوضوء إلى أن أخرج الماء إلى بركة عظيمة تحت القرية لم أر أحلا منها

ماء، ولا أعظم يغرق فيها من لا يحسن العوم ويخرج الماء من البركة إلى مزارع قريبة من البلد.

قال الزين الحنبلي، وفي خليص يستبشر الركب بالخلاص من التعب، والإعياء، والنجاة من المشاق الفادحة.

وأنشد للصلاح:

يقول سابق ركبي	ولات حين مَناصِ
لقد بلينا ببدر	بطول يوم القصاصِ
فقلت جيء به خليصاً	وأبشر بحسن الخلاصِ

وله: ومرت به ظباء هو محرم:

مرت ظباء القاع قدامنا	ونحن بالإحرام في هجعةْ
حتى نجت سالمة في الفلا	ولم يكن فيها لنا نجعةْ
قلت لهم قولوا لها إن تكن	ناشطة تلبث إلى الرجعةْ

وأنشد للشهاب أحمد بن أبي حجلة:

حثثنا المطايا من خليص عشية	وطرفي إلى أفق السماء ترددا
ولما بدا فيه الهلال لناظري	ذكرت حنين العامرية إذ بدا

وسرنا من خليص في أمن، وأمان ومررنا بالموضع المعروف بمدر عثمان، والعامة تنسبه إلى علي رضي الله عنهما، وهو كثير الوعر صعب المسلك.

ومن خليص إلى عسفان غيضة كبيرة ذات أشجار ملتفة من أثل وغيره، وفي خلالها فدادين يزرع فيها المقاثي، والدخن وغير ذلك.

وانحدرت في الثنية التي يهبط منها إلى عسفان، والطريق فيها مبنية ملتقطة أحجارها كعقبة السكر إلا أن هذه أطول منها، وأسهل وبأحد جانبيها مسجد هذا المحل هو المسمى بمدرج عثمان.

قال الزين الحنبلي ويجب على الأمير أن لا يمر بوفد الله تعالى في مدرج عثمان ذهاباً وإياباً ما لاح نهار الماء فيه من كثرة الأوعار وصعوبتها، وتعاريج الطرف، وأنشد للصلاح:

طوين الفلا نبغي الوصول لمكة فناحت علينا الوِرْقُ من عَذْبِ البانِ

وَكَمْ مدرج قد لاح في كفن الفلا ليوم التلاقي في مدرج عُثمانِ

ولما خرجنا من أوعار تلك العقاب التي طرقاتها على شفا جرف هار/ ١٤٨/ وصلنا منزلة عسفان بعد ارتفاع النهار فتفرق الناس يسقون من آبارها وورد علينا جماعة من صغار أعرابها وكبارها وقامت هناك سوق جامعة لأنواع اللحوم، والخضر، والحشيش وغير ذلك مما يستبعد وجوده هنالك وشربنا من البئر التي يقال أن النبي (ﷺ) تفل فيها، أو شرب منها إذ لم يكن له مندوحة عنها اغتناماً لبركة آثار الرسول لأنها لدينا غاية المنى، والسؤال فما شربت أعذب من مائها، ولا أحلا كما أنه لا يكون أجل منه، ولا أحلا.

وما زال الناس يتزودون من ماء هذه البئر ويكثرون من شربه ويسمون المنزلة كلها به فيقولون نزلنا بئر التفلة كما أومأ إليه الزين وغيره.

وقد ذكر هذه البئر جماعة من أهل الرحل وماء الآبار الآخر عذب سائغ شرابه أيضاً ولكن حلاوة هذه البئر خرقت المعتاد ببركة ريق سيد العباد.

وعُسفان بالضم كانت قرية جامعة بين مكة، والمدينة على نحو يومين من مكة سميت بذلك لعسف السيول فيها.

قال الأسدي وفيها آبار وبرك قال الزين وبعدها منزلة العقلة التي صلى بها النبي (ﷺ) صلاة الخوف حين كان العدو في جهة القبلة وبعُسفان أشجار الآراك وغيره من أشجار الحجاز وبه شجر البلسان البري وبعضهم يسميه البشام وكثيراً ما يوجد في رؤوس تلك الجبال وارتحلنا منه ومررنا بالأرض المسماة برقة، وهي أرض طيبة فيها

مزارع ومقاهي، ثم بوادي العميان سمي بذلك لأن الفقراء يتعرضون فيه للركاب طلبا للصدقة.

وفي أثناء ذلك مررنا بفضاء نير كثير الأنوار، والأشجار وربما مررنا بمضيق وعر بين جبلين بعد ذلك الفضاء ومررنا على طائف المنحنى بعده أتينا جبل المنحنى كما نبه على ذلك الزين الحنبلي، وأنشد لابن أبي حجلة لما مر بتلك الجبال وبدا له معالم مكة العظيمة العذر، والبال:

أسير ولي شوق إلى أرض مكة	له في الحشا، والقلب مرسى ومرسخُ
إذا ما بدت إلي شامخات جبالها	فإني على أهل البسيطة أشمخُ

وقد ذكر المنحنى في هذا الموضع صاحب الرجز أيضاً فقال:

وفي خليص سر، ولا تعرج	من بعدها تأتي إلى المدرج/ ١٤٩/
منه إلى عسفان، ثم المنحنى	وبطن مر بعدها نيل المنى

وزعم بعضهم أن المنحنى إنما هو مذكور في أماكن المدينة فقط، ولا ذكر له في أماكن مكة، وهو قصور فقد ذكره غير واحد على المنحنى المذكور في مواضع المدينة لم يعين مكانه بل في الوفاء وخلاصته وغيرهما من مؤلفات السيد السمهودي: المنحنى: بالضم، ثم السكون وفتح الحاء، والنون له ذكر في الغزل بأماكن المدينة، وهو عند أهلها اليوم بقرب المصلى في القبلة شرقي بطحان ولذا قال الشمس الذهبي:

تولى شباب كَأنْ لم يكن	وأقبل شيبٌ علينا تولى
ومن عاين المنحنى، والنقا	فما بعد هذين إلا المصلى

ففي كلامه الأول ما يدل على أنه غير معين عند الأقدمين، وأن أهل عصره أطلقوه على ذلك المكان الذي أومأ إليه، وهو لا يعين أن لا يكون منحنى آخر في هذا المحل كما لا يخفى، والله أعلم.

وأصبحنا في القرية الناعمة المعروفة بوادي فاطمة، وهو المعروف بين الفقهاء، وأهل السير بمر الظهران وبعضهم يستوي عنده في التسمية الأمران وربما يسمى ببطن مر.

قال الزين الحنبلي بطن مر قرية ذات حدائق وعيون وبنيان ومسجد وعين ويسمى وادي مر ووادي فاطمة عند أهل الحجاز.

وقال أبو سالم إنه يسمى وادي الشريف قال، وهو واد كبير فيه قرى متعددة ذات نخيل وبساتين وعيون تجري، وأعظمها القرية التي ينزل بها الحاج وفيها سوق وعين كبيرة وبساتين مؤنقة.

وقد ألفينا الثمار بها مزهوة فكانت النفوس بأنواع الرطب، والبطيخ فيها مزهوة فأسرع الركب المصري في التوجه إلى مكة المشرفة، وتأخرنا عنه خشية الازدحام الذي يكون في تلك المضائق على كل شرفة فأنخنا في الوادي ريثما يعدي الناس وكثر الإيناس وانقضت الزحمة.

وأخذنا في التوجه لمنازل الرحمة ورحلنا من الوادي ولاحت من أعلام القرب البوادي.

ومررنا بسرف وبه قبر أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها لأنها توفيت في هذا المحل ودفنت فيه.

ومن غريب الاتفاق أن النبي (ﷺ) بنى بها بهذا الوادي، وكان تزوجها بمكة، وهو محرم بعمرة القضية وبنى بها بسرف في رجوعه وعلى/ ١٥٠/ قبرها بناء ومسجد تهدمت جوانبه فزرناها، وتجاوزنا إلى التنعيم حيث المسجد المنسوب لعائشة رضي الله عنها بني في المكان الذي أحرمت منه بالعمرة مع أخيها عبد الرحمن بأمر النبي في حجة الوداع، ومن ذلك الموضع يحرم الناس بالعمرة في المواسم وغيرها، وهو أدنى في الحل حتى صار يطلق على المكان اسم العمرة تسمية للشيء باسم ما يقع فيه، ثم تجاوزناه ومررنا بسبيل الجوخي، وقد جمع هذه المنازل أيضاً الراجز في قوله:

تسير تلقي مسجد الميمونة   خير النساء أمنا المصونة

وبعـــــده المســـــاجد المشـــــهورة　　لآمنــــا عائشـــــة المــــبرورة

فطـــب إذاً نفســـاً وقـــر يـــا أخـــي　　عينــا، وتـــأتى في ســـبيل الجـــوخي

وسرنا في مضيق الثنية إلى وادي الزاهر ويسمى جنان مكة وبه آبار، وأشجار وخضر وبه قبر يذكر أنه قبر الصحابي المشهور عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

فقد صح أنه مات بمكة بعد الحج فقيل أنه دفن خارجها بوصية من كراهية أن يدفن في البلد الذي هاجر منه فمن قائل إن بهذا الوادي، ومن قائل أنه بالوادي الذي بطرف المحصب، وهو الذي شهره كثيرون إلا أنه ليس هناك قبر ينسب إليه، وأكثر الناس يقول بالاغتسال في هذا الموضع اقتداء بمن قال إن هذا هو ذو طوى الذي بات به النبي (ﷺ) واغتسل فيه واستحب أكثر العلماء الاغتسال فيه، والتحقيق ما عليه كثير من المؤرخين إن ذا طوى أمام هذا، وليس بينه وبين مكة واد آخر، وهو الوادي الذي وراء قعيقعان وبأسفله الموضع المسمى بالشبيكة حيث الثنية السفلى التي يخرج منها الحاج بأعلا هذا الوادي هو ذو طوى، وأسفله هو الشبيكة، ولم نغتسل نحن، ولا بأحد منها لعدم تيسر ذلك بل سرنا عامدين إلى الثنية العليا لأن مكة لها طريقان طريق باب الشبيكة بالجادة وطريق باب المعلاة من الثنية العليا التي قصدناها لأنها الطريق التي دخل منها (ﷺ) المسماة بكذا بالفتح.

وقد بالغ الولاة في حفر هذه الثنية، وتنقيتها من الأحجار حتى صارت كأحد الأزقة ومع ذلك ففيها صعوبة ومنها يشرف على مقبرة مكة المسماة بالحجون، وهي إحدى المقابر التي تضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض/ ١٥١/ كما ورد في الأحاديث، ولما انحدرت من تل الثنية انحاز معنا بعض أصحابنا إلى بعض الأشجار وجلوا لنا حائلاً عليها للتستر واغتسلنا هنالك، وأشرقت علينا أنوار الحرم الشريف ضاعف الله له التعظيم، والتشريف ولاح لنا شعب أبي طالب الجامع لجميع المطالب، وتذكرت قول ابن أبي حجلة في ذلك لما وصل لهنالك:

ولم أنس إذ وافيت مكة بكرة ودمعي من المعلا بها يتحدرُ
طويت إليها شقة البيد في السرى وأنوارها من ذي طوى لي تنشرُ
بذل كنوز الدمع في مكة يغلب بذل المال في الغالب
فكيف أخشى في الورى مهلكا ومطلبي شعب أبي طالب

وكنت لما انحدرت إلى الحجون ودنت لي مكة، وأشرفت عليها واشتدت بي الأشواق إليها قلت قصيدة أولها:

لقد فُزنا ولله الثناء وأدركنا من المولى العطاءُ
وأشرفنا على حرم أمين له من كل ناحية يجاءُ

وكانت أزيد من ثلاثين بيتاً اختطفتها يد السارق، وترك القلب من أجلها في محارق.

ذكر دخولنا لمكة المشرفة وحلولنا حول البيت الذي عظمه الله وشرفه:

دخلنا مكة المعظمة في عصر سادس الحجة الحرام، ولم يسعنا أن نقدم شيئاً قبل التوجه إلى بيت الله الحرام إذ ذاك هو منتهى الشوق وغاية المرام فجئنا نؤم البيت الحرام واثقين بنيل المنى وبلوغ المرام وكادت أن تطير من شدة الفرح القلوب وفازت بما هو إليها المأمول، والمطلوب ودخلنا البيت من باب السلام اقتفاء لأثر النبي عليه الصلاة، والسلام داعين للبيت العظيم بزيادة التشريف، والتعظيم.

قال التقي الفاسي: باب السلام هو ذكر من باب في الجنب الشرقي وعليه منارة المسجد الحرام قال فإذا دخل القادم من باب بني شيبة ورأى البيت رفع يديه وكبر وقال: اللهم زد هذا البيت تعظيماً، وتكريما، وتشريفا ومهابة وبراً وزد في عظمه وحجمه تعظيماً، وتكريما، وتشريفاً ومهابة وبرا الحمد لله اللهم إنك دعوت إلى حج بيتك الحرام، وقد جئتك له فتقبل مني، وأصلح لي شأني كله.

وأشرفنا منه على ذلك البيت الشريف/ ١٥٢/ الغني عن التعريف، وقد تبدت أنواره، وتدلت أستاره وبرقعه مشمر عن الأسافل حتى لا يكاد يناله علي، ولا سافل إذ

عادتهم أن يفعلوا ذلك به من أول ما تقدم الوفود، ولا تطلق أستاره حتى تؤدب، وتعود.

وقد قال أبو سالم في هذا المعنى، وأبدى فيه تشبيهاً غريب المعنى:

فكـــأن لـمـــا بـــدا متشـــمراً والطـــائفون بـــه جميعـــاً أحـــدقوا
ملـــك همـــام نـــاهض للقـــاء مـــن قـــد زاره، ولـــه إليـــه تشـــوق
فتبـــادر الغلـــمان رفـــع ذيولـــه حتـــى إذا رجعـــوا جميعـــاً أطلقـــوا

قال، ومن رأى أكابر الملوك عند قيامهم، وتشمر الغلمان لفاضل الذيول عن يمينهم وشمالهم علم غرابة هذا التشبيه وحسن موقعه وإنه واقع في موضعه وعلم ما بينه وبين من شبهه بهند وليلى وإنه لم يجد وصفاً، ولم يحسن قولاً فلما وقعت عليه الأبصار تحير النظر، والأبصار واقشعرت الجلود وذهلت العقول وشاهدنا من الهيبة، والعظمة ما ليس بمعروف في غير ذلك المكان، ولا معقول:

بـــدا لـــك الحـــق فـــاقطع ظهـــر بيـــداء واهجـــر مقالـــة أحبـــاب، وأعـــداء
واقصد على عزمة أرض الحجاز تجد بعـــداً عـــن الحـــظ في نـــزل الأدواء
وقـــل إذا نلـــت مـــن أم القـــرى إربـــاً وهـــو الوصـــول بـــأسرار وإبـــداء
يـــا مكـــة الله قـــد مكنـــت لي حرمـــا مؤمنـــا لســـت أشـــكو فيـــه مـــن داء
فمـــذ رأى النـــازح المسكين مســـكنه في قطـــرك الرحـــب لم ينكـــب بإيـــذاء
شـــوق الفـــؤاد إلى مغنـــاك متصـــل ســـوق الريـــاض إلى طـــل وإنـــداء

ولما ضج الضجيج وارتفعت أصوات الحجيج ذكرت قول القائل في مثل هذا الموقف الهائل:

وافى الحجـيجُ إلى البيـت العتيـق وقـد سَـجَا الـدجى فبـدا نـور بـه بزغـا
عَجُّـوا عَجيجـاً وقـالوا الله أكـبر مـا للجـو مؤتلـق بـالنور قـد صـبغا

نـادوا عـلى العـيس بـالأقران وانتحبـوا ... وود كـل فـؤاد نحـوه وصـغا

وكـل مـن ذم فعـلا نـال محمـدة ... في مكـة ومحـا مـا قـد جنـى وبغـا

وكلما جددت النظر في محاسن البيت الشريف كدت أغيب عن الوجود/ ١٥٣/ واستشعرت قول العارف الشبلي لما وفد على حضرة الجود:

قلـتُ للقلـب إذا ترائـى لعينـي ... رسـم دار لهـم فهـاج اشـتياقي

هـذه دارهـم، وأنـت محـب ... مـا احتبـاس الـدموع في الأمـاق

والمغـاني للصـب فيهـا معـان ... فهـي تـدعى مصـارع العشـاق

حـل عقـد الـدموع، وأحلـل رباهـا ... واهجـر الصـبر وارع حـق الفـراق

وكلما نظرت يميناً وشمالاً وهبت علي من نفحات البيت صباً، أو شمالاً أنشدت، وقد ملت من الوجد مالا:

هـذي أبـاطحُ مكـةَ حـولي ومـا ... جمعـت مشـاعرها مـن الحرمـاتِ

أدعـو بهـا لبيـك تلبيـة امـرئ ... يرجـو الخـلاص بهـا مـن الأزمـاتِ

قلـت المنـى بمنـى لـو أني لم أخـف ... بـالخيف مـن ذنـب أحـال سـماتِ

وعرفـت في عرفـات أني ناشـق ... للعفـو عرفـا عـاطر النسـماتِ

ثم تجاوزت باب بني شيبه، وفي قلبي مالا أكيفه من الهيبة، وتيممت الحجر الأسود وجنبت كل أحمر، وأسود وكبرت وقبلت وجعلت البيت عن يساري وشرعت في الطواف، وأقبلت حتى فرغت من طواف القدوم واستشعرت الوجود، وقد كنت من الذهول في حيز المعدوم وربما كنت أتمثل في المطاف، وقد ألبست جلابيب الألطاف الدانية القطاف بقول ابن رشد البغدادي تقوية لا مرادي:

عـلى ربعهـم لله بيـت مبـارك ... إليـه قلـوب النـاس تهـوي، وتهـواه

يطـوف بـه الجـاني فيغفـر ذنبـه ... ويسـقط عنـه جرمـه وخطايـاه

وكـــم لـــذة، أو فرحـــة لطوافـــه   فللـــه مـــا أحـــلا الطـــواف، وأهنـــاه

وربما أتوجه إلى الله في نيل الأوطار التي جبت لها الأقطار، وأحمده على أن سكن القلب في حرمه وطالما إليه طار، وألجأ إليه فيما ارتكبته من الأخطار طوبى لمن طاف بالبيت العتيق، وقد لجأ إلى الله في سر واجهار:

فكـل مـن طـاف بالبيـت العتيـق بخـا   حقـا، وقـد راح معتوقـاً مـن النـار

وربما تأملت حسن جمال الكعبة الباهرة فأنشدتها قول من أقبل عليها بالنداء الظاهر:

ياكعبـة الله كـم مـن عاشـق قـتلا   شوقاً إليك ورام الوصل ما وصلا/ ١٥٤/

يـمسي ويصـبح محزونـاً ومكتئبـاً   ويهجـر الأهـل، والأوطـان، والطـلا

لـولاك مـا سرت الركبـان مـن طـرب   كـلا، ولا قطعـت سـهلاً، ولا جـبلا

ولا رأت كـل ضـيق فبـك متسـعاً   كـلا، ولا خـف عنهـا كـل مـا ثقـلا

بـاعوا النفـوس رخيصـاً في هـواك ومـا   تغلـو النفـوس بوصـل منـك إن حصـلا

فيا ما أطيب هذه الأوقات المباركة التي لا تعدل بمقاومة، ولا مشاركة ويا ما ألذ ما لقيناه عند تقبيل الحجر من الازدحام، والمنهل العذب كثير الزحام ويا ما أقصر الوقوف وإن طال بالملتزم ويا ما ألذ الورود من ماء زمزم ويا ما أحسن التمتع في الحجر بلا حجر ويا أكمل الأماني بالوقوف حول الركن اليماني ويا ما أقرب الدعاء في تلك الأماكن للإجابة ويا ما أسعد من أكرمه مولاه فجاءه إلى بيته الحرام ولبى دعاءه، وأجابه، ولما غربت الشمس وطابت النفس أدينا صلاة المغرب وقدمناها على ركعتي الطواف تحريا للخروج عن وقت النهي مع قلة الفصل.

ثم صلينا ركعتي الطواف خلف المقام وقبلنا الحجر وخرنا لقضاء شعيرة السعي من باب الصفا وبدأنا بها بدأ الله تعالى به فوقفنا على الصفا وارتقينا على مدارجها حتى قابلنا البيت وبالغنا في الدعاء لله تعالى لنا ولوالدينا ولأشياخنا، وأحبابنا ولعامة المسلمين

وخاصتهم، والرُّقَى على المدارج مما ينبغي أن يتفطن له فإن كثيراً من الحجاج يقف في الدرجة الأولى، ولا يرتقي لغيرها فيخل بكيفية الرقى عليها.

ثم أتينا المروة في زحام كثير من أخلاط الناس الواردين وغيرهم من أهل البلد لأن المسعى سوق من أسواق مكة العظيمة ولو وفق الله الأمراء لمنع الناس من التسوق فيه أيام الموسم لكان له في ذلك خير كثير لكثرة ما يحصل للساعين من التضرر بكثرة الازدحام.

وما فرغنا من السعي حتى قربت العشاء فدخلنا المسجد وصلينا العشاء وخرجنا ننظر محلاً ننزل فيه فما ألفيناه حتى مضى ربع من الليل بقرب المدعى فأنزلنا فيه أمتعتنا وبتنا به حتى طلع الفجر، وتوضأنا وجئنا لصلاة الصبح بالمسجد الحرام فطفنا لأن تحيته الطواف ويتأد في حق المسافر كما قر بر في الفقه وصلينا فيه وبقينا حتى أشرقت الشمس وكمل لنا الأنس وظللنا في ذلك/ ١٥٥/ اليوم نردد العبادة ما بين صلاة وطواف، وتمتع بالنظر في الكعبة، والطواف، وتضلع بماء زمزم، وتذلل بين الركن، والمقام، والحجر، والملتزم ومع ذلك نبالغ في اللجأ إلى مولانا ونسأله الزيادة على ما أولانا، ولما قبلت الحجر الأسود الذي لا أشرف منه، ولا أسود قلت:

حَصلتُ على المجد، والمسؤدد ... وأمنت من سالخ أسود
وصليت ما شئت خلف المقام ... وقبلت فالحجر الأسود

وقلت في الملتزم، وقد التصق به الجسم، والتزم:

يا إلهي قد أتى الملتزما ... عبدكم يرثي لذنب أزما
هذيا ربي قواه وبرا ... جسمه مولاي حتى عزما
فاخفض بالفضل ربي نصبه ... واجعل الملتزم الملتزما

وقلت في الحجر، والحطيم، وقد ضاعت أعرافها، ولا ضوع المسك اللطيم:

هديت إلى الصراط المستقيم ... فجئت لحجة البيت العظيم

وعنـد الحجـر قـال الحجـر أبشر فقـد حطمـت ذنوبـك بـالحطيم

وقلت لما بلغت الأماني بالطواف حول الركن اليماني:

حصـلت عـلى الـذخائر، والأمـاني وبـدل كـل خـوف بالأمـان

أمـا قـد طفـت حـول البيـت سـبعاً ولامسـت اليـد الـركن الـيماني

وقلت لما خلص القلب وصفا وسعيت بين المروءة، والصفا:

صفا القلب مني إذ وقفت على الصفا فللـه ربـع فيـه كـل امـرئ صـفا

وأمسـى فـؤادي لبنـا ذا سـهولة وقد كان قدما، وهو أقسى من الصفا

وفي المـروة الغـراء زادت مـروتي كـما لا، ولم لا، وهـي منزلـة الوفـا

وخرجت بعدما ارتفع النهار لأدبر الخروج إلى عرفات، وأصلح الأواني مما أصابها من الآفات واستعداد الزاد، وأنظر ما نقص وزاد فظللت أسعى تحصيل لك الغرض وكلما عَنَّ وقت من أوقات الصلاة آتي المسجد الحرام فأصلي فيه الوقت الذي عرض وبتنا بمكة أيضاً، وقد فاضت علينا أنوارها فيضاً، وأصبحنا يوم الأحد جادين في الرحيل لعرفات إذ لم يتأخر عنه في ذلك اليوم أحد، وهو ثامن الحجة الذي يتعين فيه الخروج لعرفات تكميلاً للحجة، وهو المعروف بيوم التروية/ ١٥٦/

وكان آخر العهد بالبيت الطواف به لأنه مشروع عند الخروج لمنى وعرفات كما نص عليه الشيخ أبو الحسن، والشيخ خليل وابن هلال وغير واحد من أرباب المناسك فنزلنا بمنى فوق مسجد الخيف بسفح ثبير.

وبتنا في تلك الليلة بمنى إذا المبيت بها هو السنة كما في دواوين الفقه، وقد مَنَّ الله علينا بإحياء هذه السنة التي أميتت منذ أزمان فقد قال الحطاب، وهذه السنة أعني المبيت بمنى هذه الليلة قد أميتت منذ أزمان ونبه على ذلك غيره من الفقهاء أيضاً.

وذكره كثير من الرحالين كابن رشيد، والعبدري وغيرهما وذكروا أن الخوف يمنع من المبيت هناك بعد ذهاب الأركاب.

ولما رأينا ذلك طلبنا من الشيخ أن يبيت هناك إحياء لتلك السنة فساعفنا بذلك وبتنا هنالك، وقد صدق القائلون بأن الموضع مخوف فقد سرقت في هذه الليلة جماعات كثيرة من ركبنا وذهبت بغال، وأموال عريضة حتى لم يبق لنا ما نسد به الرمق هنالك تقبل الله جميعه منا وجعله سبب رضاه عنا.

فإن المصيبة في مثل هذا المقام لا تخلو عن ألطاف خفيته يتعذر حصولها لمن قعد، أو قام، وأصبحنا مسرورين بقبول ذلك القربان ظهر علينا فضل الله تعالى في ذلك وبان.

وارتحلنا من هنالك بعد طلوع الشمس قاصدين لعرفات التي عرف فيها من كل وحشة الأنس وفاضت فيها غرفات رحمة الله على الجن، والأنس.

وليس عندنا قلامة ظفر نقضي بها أدنى غرض بين أهل الوفر ومع ذلك لا أبالي، ولا يخطر أسف على ما تلف ببالي فقيض الله جماعة الركب وقاهم الله كل كرب أن تعرضوا لي في الطرقات لما سمعوا أني من عمته السرقات ونوعوا لنا أنواع المطاعم، وأظهروا كل نوع ناعم وبالغوا في الإكرام، وأنالوا غاية المرام جزاهم الله خيراً ووقاهم ضيراً، وأكثروا من التردد إلينا، والورود علينا، وتأنيسنا بالكلام اللين، وتذكيرنا بأن ما سرق سهل في جنب ما نلناه من الأماني وهين، وما علموا أن ذلك عندنا هو المطلوب، وأنه راحة الأجسام، والقلوب إذ هو علامة/ ١٥٧/ القبول، والإقبال فأنى يخطر لي التغير عليه ببال.

ولم نزل في الخيام التي ضربناها للقيلولة إقامة للسنة، والناس ينوعون الأطعمة، والأشربة فرحا بهذا اليوم العظيم الجدير بالتبجيل، والتعظيم ويأتوننا بذلك، أو يطلبون منا التوجه معهم لخيامهم جبراً لخوطرنا، وتأنيساً لنا بذلك لأن عادة أهل الدنيا أنهم يبالغون في الأسف على ما فاتهم منها، أو سرق لهم فيقيسون الناس على أنفسهم وكنا نساعفهم بالأكل، والطعام الوارد، والذهاب مع من طلبه جبراً لخواطرهم ورغبة في استئناسهم حتى زالت الشمس، وأتانا بعض أصحابنا بكوب من ماء فاغتسلنا الاغتسال الثالث من اغتسالات الحاج وصلينا الظهر، والعصر جمعاً.

وارتحلنا لقضاء الركن الذي لا أعظم منه، وهو الوقوف بعرفات الذي قال فيه النبي عليه السلام: «**الحج عرفات**» أي معظم أركانها كما قرر في الفقه، ومن الله علينا بأن جعله يوم الاثنين فقد صرحوا بأفضليته من وجوه مذكورة في المنابر وغيرها حتى جعلوه قريباً من الجمعة، أو مساوياً لها وصعدنا الجبل ووقفنا شامي القبة التي على الجبل وحشر الناس في نواحي الجبل أفواجاً أفواجاً ودفعا في أرجائه وحُرماته وجهاته أمواجاً أمواجاً، وأخذنا في الانتقال من موضع إلى موضع رجاء أن تحصل لنا من الوقفين بركة بسبب هاتيك الحركة.

وكثيراً ما حرصنا على سماع الخطيب وقربنا من موضعه لاستماعها فلم نتمكن من سماع حرف واحد منها لكثرة الأصوات واختلافها وازدحام الناس على ارتضاع أخلافها مع اختلاف لغاتها ومطالبها، وتباين مقادها ومآربها.

ولم نبرح واقفين متذللين خاضعين لله تعالى سائلين طالبين راغبين راهبين باكين داعين نبالغ في الدعاء ونسأل الله تعالى من فضله أن يمن علينا بخيرات الدنيا، والآخرة العاجلة، والآجلة لنا ولوالدينا ولأشياخنا، وأصحابنا وإخواننا، ومن سألنا الدعاء ولجميع المسلمين وعلى الله تعالى البلاغ.

حتى غربت الشمس، وتحقق غروبها ونفرنا من هنالك، ثم وقعت فتنة بين أمير الركب الشامي، وأمير الركب المصري حتى عزما على القتال، وتقابلا للاقتتال فحال بينهما أمير مكة وفصل بين الأميرين ودخل بينهما جزاه الله خيراً وصرنا في الأخريات، ولم نر/ ١٥٨/ بفضل الله زحاما، ولا ضيقا حتى خرجنا من بين المازمين بعد مغيب الشفق وعدلنا يمينا واستندنا للجبل ونزلنا وجمعنا بين الصلاتين وبتنا بخيمة محبنا التاجر الفاضل الحاج محمد بن عبد الحميد المراكشي لأنه كان يحاذينا في نورنا إلى أن وصلنا لهذا المحل حرصا على مبيتنا عنده جزاه الله خيراً.

ولما نزلنا أكرمنا وسقى بغلتنا وعلفها وبتنا عنده في أرغد عيش وجلب لنا من عرفات أنواع الفواكه، والأرز غير ذلك تقبل الله عمله مع كونه سرقت له بغلة جيدة

يوم سرقنا نحن بمنى تقبلها الله منه، والتقطنا الجمار من مزدلفة وقمنا حتى طلع الفجر وجاءنا السيد الحاج محمد بالماء فتوضأنا وصلينا.

وارتحلنا مغلسين إلى المشعر الحرام فوقفنا حوله داعين. مكبرين داعين. مبالغين في الدعاء، والتطفل على الله تعالى لنا ولأحبتنا ولجميع المسلمين إلى الأسفار، ثم سرنا قاصدين منى، وأسرعنا في بطن محسر المعروف بوادي النار، وهو من أول ما تحاذى البركة الحربة التي هي على يسار أن مررت بطريق الأكارب وافت ذاهب إلى منى حتى تأخذ في الطلوع إلى منى، وترتفع بك الأرض وبهذا عرفه أهل عصره بالمناسك الشيخ خليل المكي حسبما نقله عن البلدي في رحلته إذ سأله عن حده.

وسرنا راكبين على هيئتنا حتى رمينا جمرة العقبة من أسفلها بالسبع الحصيات التي التقطناها من مزدلفة وملنا إلى الحلاقين الذين هنالك فألفيناهم في شغل شاغل من كثرة الزحام، وأكثر الناس كي تفي بحلق ناحية من رأسه ويغتر بقولهم له يكفيك هذا فقد أحللت طلبا للتفرغ لآخر استكثاراً في الأجرة فيصدقهم كثير ممن لا علم عنده في الاكتفاء بذلك وإذا حلقوا لأحد الرأس كله فإنهم لا يستوعبون، وقد مَنَّ الله علينا برجل عرفه بعض من حضر بحالنا ووقع له أجرة زائدة على ما يعتاد فحلق لنا كما ينبغي مستوعبا ذلك على المراد، ثم ذهبنا كذلك لنغنم طواف الإفاضة ونغترف بالدخول للبيت من بحر مولانا الذي أفاضه فبادرنا لدخول المسجد الحرام.

ووافينا الحجر الأسعد فأقبلنا عليه بالتقبيل، والالتثام وشرعنا في طواف الإفاضة مغترفين من فضل الإحسان الذي أجراه الله تعالى على عباده، وأفضاه وكملناه بالصلاة/ ١٥٩/ خلف لمقام بعدما قمنا في الملتزم مع من حوله قام، ولم نجدد السعي لأن كنا سعينا أثر الطواف القدوم كما هو السنة في ذلك.

تنبيه:

كثير من العوام يظن أنه يلزمه سعي آخر أثر الإفاضة وبعض المتفقهة فتى من لم ينو فرضية طواف القدوم بإعادة السعي اقتداء بظاهر قول المختصر ونوى فرضية،

والإقدام، والتحقيق الذي يعول عليه هو أن شروط السعي وقوعه أثر طواف أي طواف وكونه فرضا إنما هو واجب يجبر بالدم، ولا يلزم منه بطلان السعي ومعنى الفرضية كونه يتوقف عليه صحة السعي لا كونه فرضا في نفسه.

وهذا القدر يعمله كل من له أدنى معرفة بالمناسك وإذا كان كذلك فلا إعادة على من سعى أثر طواف القدوم ولو لم يستحضر نية فرضيته إذا كان عالماً بذلك فإن نية الإحرام كافية في الحج لأنه عبادة واحدة، ولا يشترط فيه إفراد نية لكل جزء منه كالصلاة، وتمييزاً لفرائض من غيرها أمر مختلف من كونه شرطاً في صحة الصلاة أم لا.

والحج أوسع من الصلاة، ولا إعادة عليه أيضاً لو جهل فرضية طواف القدوم لأن الشرط كما تقدم هو وقوعه أثر طواف، وهذا واقع أثر طواف فإن كان عالماً بالتلازم بينهما فلا دم أيضاً إذ ذلك العذر هو المعبر عنه بالفرضية وإلا قدم هذا هو التحقيق الذي حرره جماعة من المشايخ وسلمه أبو سالم وغيره.

وأدلة ذلك يطول سردها وكثير من المتفقهة لا يحقق المسألة هذا التحقيق ويشغب على الناس إلزامهم الإعادة ويقول لا بد من إفراد نية لطواف القدوم إنه فرض وإلا بطل السعي.

والعجب كيف يجعلون نية الفريضة شرطا في صحية السعي، ولا يجعلونه شرطا في صحة الطواف ذي النية فتكون نية الفرض في ركن شرطاً لركن آخر أوله.

والشرط إذا لم يؤثر عدمه في محله كيف يؤثر في محل آخر فَشُدْ يَدَكَ على ما ذكرنا من التحقيق الأول، ولا تلتفت إلى من طريقه التقيد بظواهر ألفاظ المختصرين إذ ليس عليه معول، والله تعالى أعلم.

ولما فرغنا من الطواف، وتابعه ألفينا البيت مفتوحاً فأخذنا في معاطاة أسباب الوصول إليه، وتفرقنا للقيم عليه فيسر الله علينا أمره وهدى بعض ولاة تلك الأمرة وارتفعنا للدخول/ ١٦٠/ إليه راغبين فيما أعد من الثواب من الثواب عليه، ولم أشعر حتى وجدت جسمي ملقى في داخل البيت وكأني أفقت من هيئة ميت، ولم أدر كيف

وصلت لذلك، ولا بماذا نلت الوصول لهنا لك فأخذتني قشعريرة واعتراني ما يعتري الموصل من ذهوب الوصول.

وأخذنا في الصلاة إلى أركان البيت الأربعة، وأطلنا في الصلاة وبالغنا في الدعاء لنا ولأهلينا، وأحبائنا، وأشياخنا ولجميع المسلمين مما نسأل الله تعالى ثواب داخله وقاصده.

وأخذنا نذكر هؤلاء الخدمة الذين يمنعون من رام دخوله لنيل مقاصده.

فقد ذكر المحب الطبري: أنه لا يحل منع دخول البيت قال ودخول الكعبة مثاب عليه.

ففي سنن البيهقي، والأوسط من طريق عبد الله بن الحومل عن أبي محيص عن عطاء عن ابن عباس يرفعه: «**من دخل البيت دخل في حسنة وخرج من سيئة وخرج مغفوراً له**».

وعد الزين الحنبلي لدخوله آداباً أكدها كف البصر وإظهار الخضوع، والخشوع وداخل الكعبة كله مرم برخام ملون مجزع.

قال العلامة الفاسي أول من رخم ذلك الوليد بن عبد الملك بن مروان في ما ذكره الأزرقي وفيها ثلاث دعائم من ساج مصطفة في وسطه ما بين اليمين، والشمال وكل دعامة منها قد سمرت عليها ألواح من عود من أسفله مقدار وقفة وداخل الكعبة وسقفها.

كل مكسو بكسوة على هيئة الكسوة الخارجة في الصنعة، والكبابة مخالفة لها في اللون.

فلون الخارجة سوداء كلها، والداخلة بياض في حمرة وفيه مصابيح كبيرة معلقة بعضها من الذهب وبعضها من البلار الأبيض الصافي المكتوب بلون أزوردي.

وتأملنا هذه الأشياء وإن كان إمعان النظر فيه سوء أدب لما رأينا أنه يغتفر في حق من أراد تحقيق الأمور، والله أعلم.

ثم نزلنا منه مسرورين فرحين بنيل هذه البغية، ولم تطل مدة فتحه بعد نزولنا لأنهم إنما يفتحونه في هذا اليوم لتعليق الكسوة الجديدة وإزالة العتيقة.

وليس بدخول عام بل إنما يدخل القيم، وأمير الحاج المصري، وأتباعهما المتعينين في ذلك، ولا ينصب سلم للدخول وإنما يدخل من تكلف الصعود بمعين/ ١٦١/ ، أو خفة أعضاء وعلى الباب أحد خدام الأمير يمنع الناس من الدخول إلا أن الناس يكاثرون فإن منع من جانب دخلوا من الجانب الآخر وربما يتعامى عن البعض ويحصل لكثير من الناس في ذلك المكان سوء أدب من ضرب وشتم بألفاظ ينزه المكان عنها.

فالأولى عدم الدخول إلا لمن يتيسر له ذلك عفواً صفواً من غير إيلام، ولا ملام كما مَنَّ علينا بذلك دون كلفة، ولا مشقة، ولا سوء أدب هنالك لله الحمد سبحانه.

وبعد نزولنا من البيت جلسنا أمامه فتأمل الناس وننظر ما يحصل لهم من الإيناس، وهم مجدون في الطواف، وأحوالهم في غاية الاختلاف فمن مزهو بوصاله متبختر في طوافه يتمايل بجميع أوصاله منشد بلسان حاله:

لا تنكروا حال الطواف تبختري ... وتمايلي سكراً بغير شرابِ
قد كنتُ بالذكرى أهيم فيكف لا ... عند الوقوف بمرتع الأحبابِ

ومن متعلق بأستار الكعبة مردد قول من سأل فيها ربه:

أَستارُ بيتك أمن المستجير وقد ... علقتها طامعاً في العفو يا باري
وقد نزلت ببيت قد أمرت بأن ... نأتيه للأمن في العقبى من النارِ
وإنني جَارُ بيت أنت حافظه ... فاحرم جواري كما أوصيت بالجارِ

ومن آخر أدركته من ذنوبه خجله فأخذ ينشد قول الشهاب ابن أبي حجلة:

سَألتكَ كَشْفَ الضر في السر، والجهر ... بحرمة هذا البيت يا مُسبلَ السترِ
فَحرمته أنت العلم بقدرها ... ونحن مع الآباء في عالم الذرِ

وتركنا الناس قائمين هنالك على اختلاف أحوالهم واختلاط أقوالهم ورجعنا إلى منى ليكمل لنا بالأماني فيها المنى فكان نزولنا عند محبنا الرجل الخير الفاضل الحاج محمد الرسموكي فكان كثيراً ما يبرنا ويوسع لنا في الإكرام وينوع الأرز، واللحم أنواعاً وغالب إقامتنا أيام منى كان في خيمته جزاه الله خيراً.

وفي عشية النهار ذهب بعض أصحابنا ببغلتنا فسقاها لنا من ماء قرب مزدلفة وعلفها لنا صاحبنا ومحبنا الطالب الألمعي الفاضل السيد سالم الصيد القروي وبالغ في تكثير الشعير لها جزاه الله خيراً.

وفي الليل أوقدت الأركاب الإشارات، وأظهروا ما لا يمكن تصوره في المغرب من الشارات وكل ركب من الأركاب يعارض غيره/ ١٦٢/ ، وتأخذه على ما يبديه صاحبه غيره، ولا سيما المصري، والشامي فقد جاوز الحد في التسامي.

وكذلك ركب أمير مكة المشرفة وقابله ركب جدة بما أجده في العيون شرفه، وأبدوا في المصابيح من أنواع الصور التي لا يقدر عليها من تصور في المغرب، ولا من صور.

وأخرجوا المدافع، والمحارق، وأظهروا من أنواع العجائب، والغرائب ما لا يمكن جمعه من أقصى المغارب، والمشارق فيا ما أطيب هاتيك الليالي التي نظمت هذه الأركاب في لبة هذا المنزل أنظام اللآلي ويا ما أجمل هذا الزمان الذي هو في لبة الدهر قلادة جمان.

وأقمنا يومنا، والذي بعده سائلين من الله تعالى ما عنده وكل يوم نرمي الجمار الثلاث على سنتها نبتدئ الأولى التي تلي مسجد الخيف، ثم الوسطى، ثم ذات العقبة.

وفي كل واحدة نقف جهدنا نستعطف ونسأل ونستلطف، وفي أثناء هذه الأيام كنت قلت أبياتاً علق منها بالبال:

قد عرفنا الخيرات في عرفات	وضمنا من سائر الآفاتِ
وظفرنا بما أردنا وفزنا	بعلي القصور، والغرفاتِ
وازدلفنا لربنا وجمعنا	كل خير بجمع مزدلفاتِ

ولـدى المشعر الحرام بثغرنا   بقبول الأعمال، والدعواتِ

وأربنا المنى منى ولدى الخيف   أمنا من سائر الخوفاتِ

ورمينا الجمار نطفئ جمار الذ   نب فأعجب لضد في الجمراتِ

وحلقنا فحلقت حولنا كم   حلقات من أضرب الخيراتِ

ثم طُفنا إفاضة حول بيت   الله جعل سبعاً من الطوفاتِ

وركعنا خلف المقام فيا حسن   الركوع هناك، والسجداتِ

ورجعنا إلى منى لستيام الأ   منيات هناك، والنياتِ

منزل لحماة تجتمع الأركا   ب طراً من سائر الساحاتِ

قد زها وازدها فليس له شبه   وما أن لحسنه من مواتِ

وتشابهت السماء مع الأر   ض لديه في غاسق الظلماتِ

فالسماء بشهبها قد أضاءت   والثرى بشموعها الزاهراتِ

وكانت طويلة جداً فَجَذَّ السارق حسنها جَذاً، ومن الغد استضافنا/ ١٦٣/ الحاج حمودة العرياني، والحاج بو عزة بن حميد المراكشي، وأكرمونا بأنواع غريبة من الطعام جمعت مالا جزاء له إلا الشكر من الأنعام، والإنعام.

ولما زالت الشمس خرجنا لرمي الجمار على الهيئة التي أشرنا إليها من الابتداء بالأولى التي تلي مسجد الخيف، ثم بالوسطى، ثم ذات أعقبة ومررنا في ذهابنا للرمي وإيابنا بالموضع المعد لذبح الهدايا فرأينا فيه من البقر، والغنم، والإبل مذبوحاً ما أوسع الغني، والفقير ونال منه الجليل، والحقير حتى كان لبعض الفقراء يأخذ العشر من الغنم، وأكثر.

وأما الجلد، والساقط فلا يلقطها لاقط بل رأيت كثيراً من الغنم غير مسلوخ حتى رحل الناس وبقيت لاستغناء الناس عنها وقيلهم فوق الحاجة منها.

وكان الفقراء يبيعون ما أخذوه بأبخس ثمن ومع ذلك فضل عنهم ما أعجز الوحش، والطير، والهوام وعم الخواص، والعوام ضيافة الله الملك الحق الذي لا يقدر أحد على كفاية خلقه سواه.

فقد اجتمع من آفاق الأرض أصناف من الخلق لا تكاد تحصى أغنياء وفقراء فأكل الكل من ضيافة مالكهم، وتزودوا ما قدروا وفضل من ذلك ما ملأ الطرقات، والمرجو منه سبحانه بل المحقق من كرمه تعالى كما عم وفده بالضيافة المحسوسة التي سرت بين الفقير، والغني أيام الضيافة كذلك، أو أعظم يعم عبيده بالضيافة المعنوية ويقابلهم بالمغفرة، والعفو، والقبول حتى يسوي بين المسيء، والحسن ويعطي كلا من عباده فوق ما يخطر بالبال ويجبر بالستر كل عظم بال بمنه وكرمه.

فما أسعدنا به تعالى من رب جواد محسن متفضل لا إله إلا هو ملك الملوك ورب الأرباب وطرقت سوقاً يقصر القلم دون وصفها، ولا يبلغ معشارها فضلاً عن نصفها جمعت من أنواع البضائع ما ليس بضائع، والناس يتزاحمون فيها على البيع، والشراء ومعاطاة التجارة رجاء بركة ذلك المكان ويحصلون ما أمكن، وما جاز حداً لإمكان بركته وظهرت له ثمرته.

وذلك غير مستبعد فإنه موسم شريف ومحل بركة يأتيه الناس من كل فج عميق يشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

ومولانا سبحانه يعمنا وإياهم/ ١٦٤/ فيه من أمر الدين، والدنيا، والآخرة بغاية الإنعام، ومن السوق قصدنا مسجد الخيف لنرفع الصلاة فيه ونتبرك به ونزور القبة التي في وسطه التي يقال أنها محل خيمة رسول الله (ﷺ) فإنه يسمى مسجد الخيف.

ويقال له مسجد على قيل إن علي بن أبي طالب (ﷺ) أول من بناه وصرحوا بأنه موضع منزل رسول الله (ﷺ)، وأصحابه في حجة الوداع.

وكنت أتردد إلى هذا المسجد طول إقامتنا بمنى.

وقد ذكروا أن بمنى آيات كثيرة منها رفع ما تقبل من الجمال ولولا ذلك لسد ما بين الجبلين.

وقد روى عن الشيخ أبي النعمان التبريزي شيخ الحرم ومفتيه أنه شاهد حصى الجمار، وهي ترتفع ومنها اتساعها للحجاج مع كونها ضيقة في الأعين.

ومنها كون الحدأة لا تخطف اللحم بمنى أيام التشريق مع اعتيادها الخطف ومنها أن الذباب لا يقع في الطعام بها مع عدم انفكاكه عنه ومنها قلة البعوض أيام الحج، وفي الحلول بمنى قال الشهاب ابن أبي حجلة، وقد ظفر بالمنى:

شَكرتُ إلهي بعد حلقي في منى ... بيوم حمدنا في صبيحته القرا
ولو أن في كل منبت شعرة ... لسانا يبث الحمد كله مقصرا

وله:

بَلغتُ مناي في منى من الهنا ... ولم أخش من قرع الذنوب بها أصلا
وَنِلتُ مع التقصير، والحق عفوه ... كأني بالتقصير أستوجب الفضلا

وقال الصلاح، وقد ظفر عند رمي الجمار بغاية الصلاح:

قد رميتُ الشيطانَ في يوم حجي ... بجمار في طاعة الرحمنِ
وعجبت إن لم يكن قد تلظى ... وهي سبعون جمرة في العيان

وكنت قلت في ذلك لما حللت هنالك:

بلغنا المنى لما بلغنا إلى منى ... وزال العنا عنا فلم نعن بالعنا
وحصبت الآثام عند محصب ... وبالخيف زال الخوف عن كل من عنا

ثم رجعت إلى الخيام لأوقظ من قصد القيلولة بالنوم من النيام فألفيتهم هبوا من النوم وخرجوا بأداء الواجب من اللوم فتغدينا، وأدينا من الواجبات ما أدينا وبعثنا بغلتنا لتشفى من الظمأ إذا وردت الماء وبعث لنا علقها في تلك الليلة صاحبنا ومحبنا التاجر/ ١٦٥/ الفاضل المحيي بكثرة ما يحب مكارم الأخلاق وسنن الأفاضل أبو

العباس الحاج الشامري التازي فإنه رعاه الله أكثر لها في تلك الليلة من العلف وزادها على المعتاد فيما سلف.

وبتنا في تلك الليلة في عيش أرغد وباتت ليلة ساهرة إلى الغد وبالغ أهل مصر، وأهل الشام في إيقاد المصابيح واتخاذ المصانع منها وصور الأشجار، والأخبية، والوحوش، والطيور.

وأكثروا الرمي بالمدافع، والبنادق، والمحارق المرتفعة في الجو وفعل مثل ذلك سلطان مكة وقابلة أمير جدة، وأبدوا في المعارضات، والمقابلات، وهم يتجاوبون بتلك الآلات ما فيه نزهة للأبصار وحيرة للإبصار، وتسلية للأفكار ومجال للاتعاظ، والأذكار، والتبدل، والإنكار.

وبالجملة فلبا في منى غرر في أوجه الزمان ومواسم فرح وسرور لأهل الإيمان ومجال بركة وعافية، وأمان يتجلى فيها الحق لوفده بصفة الجمال جزاء على رضاهم قبل ذلك بتجلي الجلال، والكمال.

فهناك يستصغر المرء ما قاسى في طريقه من الشدائد ف يجنب ما حصل له من النعم، والفوائد، ومن الغد أصبح الناس متأهبين في الارتحال حاملين الاقتاب، والأرحال وبقينا هنالك حتى لم يبق في ذلك المنزل بعد عمارته، وال وفات وقت الزوال.

وارتحلنا متعجلين ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٠٣] إذ لم نجد من يعيننا على الإتمام وطرقنا الجمار فرميناها على الكمال، والتمام وسرنا نؤم البيت الحرام دون تحصيب إذ لم نجد من سهمه لغرضه مصيب، والخوف مانع من ذلك لكثرة اللصوص، والحرامية هنالك فتركنا البغلة في الموضع الذي أكتريناه، وتوجهنا للبيت الحرام نغنم بعض ما فاتنا في المدة التي ما أتيناه فيها، ولا رأيناه فإن القلب ما زال يتشوق إليه من منى ويتشوق له على قربه إذ هو المنى.

فالقلوب مجبولة على الميل إليه لا تكاد تصبر ساعة عليه، وهذا من خصائص هذا البيت المعظم الذي شرفه الله وعظم.

فقد قال العلامة الفاسي رحمه الله في كتابه العقد الثمين وللكعبة آيات بينات منها بقية بناء الموجود الآن وهؤلاء يقتضي أن يبقى هذه المدة وعد آيات كثيرة نقلها الزين الحنبلي وغيره وعدد منها أنه يحن/ ١٦٦/ إليه كل واحد ويعطف إليه الأفئدة، والقلوب دون غيره من البلاد فهو للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، وفي كل وقت لا يزال شوقه على بلاد الزمان جديد:

محاسنه هيولى كل حسن	ومغناطيس أفئدة الرجال

قيل وسبب الشوق إليه دعاء الخليل في: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] الآية فكلما غاب الإنسان عن محاسن البيت لحظة زاد إليه شوقاً وقصر عليه لحظه فهو لا يزال مشوقاً إليه مع القرب منه، والتعريج عليه:

لا يرجعُ الطرف عنها حين يبصرها	حتى يعود إليها الطرف مشتاقا
بل يشتاق القلب إليه وصاحبه به طائف	رغبة وهل بعد الطواف تداني
والشم منه الركن لطلب بردها	بقلبي من شوق، ومن هيمان
فوالله ما ازداد إلا صبابة	ولا القلبُ إلا أثرة الخفقان
فيا جنة المأوى ويا غاية المنى	ويا منيتي من دون كل أماني
أبت غليان الشوق إلا تقربا	إليك فما لي في البعاد يدان
وما كان صبري عنك صد ملالة	ولي شاهد من مقلتي ولساني
دعوت اصطباري عنك من بعد، والبكاء	فلبي البكاء، والصبر عنك عصاني
وقد زعموا أن المحب إذ تأتى	سيبلى هواه بعد طول زمان
ولو كان هذا الزعم حقا لكان ذا	دواء الهوى في الناس كل أوان
بلى إنه يبلى التصبر، والهوى	على حاله لم يبله الملوان
وهذا محب قاده الشوق، والهوى	بغير زمام قائد وعنان

نـــاك عـــلى بعـــد المسار ولـــو دنـــت مطيتـــــه جـــاءت بـــه القـــــدمان

قال الزين الحنبلي إن قيل ما الحكمة في ميل الخلق إلى الكعبة الشريفة قيل إنه لما خلق الله الأرواح، وتكاثرت عليها العلوم غاشها الماء الكوني للراحة من تزايد تلك العلوم فكان أصل الكعبة طائفاً على الماء كالخشبة تجرمت مع ذوت الأرواح فكانت الأرواح معها تلك النسبة من القدس، وأنشد:

محبــة مـــا عرفـــت الـــدهر ســـلوتها تجـري مـع الـروح، أو تسري مـع الـنفس

ومـــا لهـــا آخـــر لكـــن أولهـــا تعـــارف ســـابق في حضرة القـــدس

في عـــالم الـــذر ناجـــاني البشـــير بهـــا أهـــلا بمثبتهـــا طهـــرا مـــن الـــدنس

أشـهى إلى الـنفس مـن أمـن عـلى وجـل ومـن مجـال الكـرى في الأعـين الـنفس

قال، ثم استمر على القدسية لأنها من عالم الريحان فالأرواح تشتاقها لذلك، وأنشد:

يـا كعبـة ملأتنـا شـوقاً يسـوق العـزائم كـم ذا قلـوب إليهـا مثـل الطيـور حـوائم

وأنشد أيضاً:

قـــد أودعـــت بـــه أسرار الهـــوى فلـــذا تـــراه يلـــــثم أركانـــــاً ويعتنـــــق

قال فهي تكاد تفضل الحجر لأنها تجرمت من الماء قبل الجنة، والحجر من الجنة وإنما أعني عرصتها وهواءها، وأما أحجارها فحادثة قال وسئل بعضهم ما الحكمة في أن المشاهد للكعبة المعظمة إذا فارقها يزداد شوقاً وكذلك كل مواصل إذ فارق محبوبه ازداد شوقاً فأجاب بأنه لما فارق صار يشاهد بالروح بعد أن كان يشاهد بالعين.

وشهادة الأرواح أقوى من مشاهدة الأجرام فيقوي حبه بقدر شهوده، وهذا كلام بديع في معناه دال على أن قائله قصده مولاه بالعناية وعناه.

فدخلت على باب السلام وبادرت للطواف في سكينة ووقار كما اشترطه علماؤنا الأعلام إذ عدوا من جملة خصائص البيت أنه لا يدخله أحد إلا متواضع عاري

الأطراف مقبل على رغبة مولاه فيما صدر منه من الإسراف إذ لا يحسن الإعراض في مثل هذا المقام، والاشتغال بما لا يعني من موجبات الانتقام:

يا من يطوف ببيت الله في الجسد والجسم في بلد، والروح في بلد
ماذا فعلت وماذا أنت فاعله مبرح في التقى للواحد الصمد
إن الطواف بلا قلب، ولا بصر على الحقيقة لا يشفي من الكمد

ولذلك كرهت الإقامة في الحرمين مع اشتغال البال بغيرهما، والتشوق للبلدان، والإعراض عن خيرهما كما قاله الشيخ خليل في مناسكه وغيره من الأئمة لأن اشتياق الإنسان من الحرمين، وهو في بلده يثاب عليه بخلاف إقامته في الحرمين وقلبه متعلق ببلده ومشتاق إليه.

وقد ذكر الغزالي/ ١٦٨/ في الإحياء في فضل الإقامة بمكة وكراهتها عن وهيب عن الورد المكي قال كنت ذات ليلة عند الكعبة في الحجر أصلي فسمعت كلا ما بين الكعبة، والأستار يقول: إلى الله أشكو، ثم إليك يا جبريل ما ألقى من الطائفين حولي من إفكهم في الحديث ولغوهم ولهوهم لئن لم ينتهوا عن ذلك لا تنفضن انتفاضة يرجع كل حجر مني إلى الجبل الذي قلع منه وقيل:

يطوفون بالبيت العتيق تقربا إليك، وهم أقسى قلوباً من الصخر

فالواجب على الإنسان في حالة الطواف القيام على حد الأدب ولزوم السكينة، والوقار واجتلابها في ذلك الوقت من كل حدب.

ويعلم أنه في عداد من تباهى به الملائكة ويتسبب فيما عُلي له عند الله منزلته في الجنة، والملائكة فقد ورد عن النبي (ﷺ): «**أن الله ليباهي بالطائفين الملائكة**».

وكنا نكثر من الطواف مدة الإقامة رغبة في دار المقامة وجرياً على ما اختاره أئمتنا من أن كثرة الطواف للغرباء أفضل من الصلاة كما صرح به الرازي وغيره في تفسير قوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝﴾ [البقرة: ١٢٥].

قال في هذه الآية دلالة على أن الطواف للغرباء أفضل، والصلاة للمقيمين أفضل.

وأنشد الزين الحنبلي للشريف موسى الخطاب:

ظفـرت مـن الطـواف ببيـت رب ... بأوقـات لهـا في القلـب حظـوه

فمـن لي بـالخلاص ولـو بشـوط ... ومـن لي بـالقبول ولـو بخطـوه

وكنت أطوف عند نزول المطر رغبة في نيل الوطر وجمعاً للبركات في تلك الحركات فقد قال الرسول (ﷺ): «**من طاف أسبوعاً في المطر غفر له ما سلف من ذنوبه**».

وعند نزول المطر في حالة المطاف كنت كثيراً ما أقرأ القرآن رغبة لما فيه من خفي الألطاف لأجمع البركات المنصوص عليها في كتاب الله تعالى الداني القطاف.

فقد قال العلامة المحدث الرحالة أبو عبد الله ابن رشيد الفهري رحمه الله تعالى في رحلته: يستحب تلاوة القرآن في الطواف عند نزول المطر لما يرجى من اجتماع البركات التي وردت في الآيات الثلاث، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦].

وقوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقوله: ﴿وأنزلنا من السماء مباركا﴾/ ١٦٩/ ومع ذلك استشعر الذلة، والصغار، ولا أنظر في تلك الحضرة العظيمة كبير الآن الأكابر فيها كلهم صغار:

ونحـن المـوالي في الـبلاد جميعهـا ... وفي حـي لـيلى مـن أقـل عبيـدها

وكنا إذا اشتد الحر وحمي الوطيس وحر ملنا للإكثار من تقبيل الحجر الذي قصر الله تعالى الحسن عليه وحجر فإن لتقبيله فضائل أثبتها الأواخر، والأوائل، وأعظمها أنه يكفر خطايا من يلتمسه ويشهد له يوم القيامة كما وردت الأحاديث صريحة في ذلك في الأمهات الحديثية كصحيح ابن حِبَّان، والترمذي وغيرهما:

أقـول، وقـد زوحمت عـن لـثم أسـود ... مـن السران يحجـب فـما البيـت يحجـبْ

فإنـك منـي بالمحـل الـذي بـه ... محـل سـواد العـين، أو أنـت أقـربْ

وقال الصلاح:

إلى سيد الأحجار في الحرم الذي ... قضى الخالق الباري بتعظيم شأنه

حثتنا مطايا الشوق، والسوق في الفلا ... فجاءت بنا إنسان عين زمانه

وقال أيضاً:

تقبيلُ ذاك الحجر الأسود ... يصد عني حَرَّ قلبي الصدى

في الكعبة الغراء خال من الند ... على صفحة خد ندى

وقال أيضاً: وقد فاضت عليه بحار المعاني فيضاً فاستطرد بعض علاماته وآياته ونشر على الأدباء بذلك راياته وصدر بذكر الكعبة وجمالها، وما حازت بتسويد الكسوة من كمالها:

إذا لاحت لنا ذات الستور ... فأهون بالشمس وبالبدورِ

لأن جمالها في العين أحلا ... وأعلقُ بالقلوب وبالصدورِ

سواد ستورها يحكي سناها ... كليل زين بالشعرى العبورِ

وما للصب إن وافى حماها ... سوى حسن التأدب من ظهيرِ

وتعفير الخدود على ثراها ... وإسبال الدموع على النحورِ

وإدمان الخضوع بلا فلال ... بقلب من خطاياه كسيرِ

وتكرار التملي بالتجلي ... ليرجع، وهو ذو بصر حسيرِ

ألم تر خالها السود أضحى ... يفوق على الصباح المستطيرِ

تقبله الطوائف طافات ... فيا شرق المباسم، والثغورِ

تكون درة بيضاء لكن ... تسود من ذنوب أولى القصورِ/ ١٧٠/

فيا ويح القرامطة الذين ... استطالوا بالعتو، والفجورِ

لقد نقلوه عدوانا وظلماً ... إلى هجر وجدوا في المنيرِ

أتــوا أمــراً عظـيماً فاســتحلوا | بــذلك حرمــة الأمــر الخطــيرِ
تَغَــرَّبَ عنــدهم عشريــن عامــاً | تلــت عــامين مــن بعــد الكســورِ
ولكـــن المطيـــع شراهُ مــنهم | بخمســـين ألـــف دينـار نضــيرِ
وجــاء لأخــذه ابــن بجكسـم[1] | وكــان بــأمره عــين البصــيرِ
وَمِــنْ خُبــث ومكــر شــبهوه | بـــآخر فعـــل بهتــان وزورِ
وجــاءوا، والعبــير يضــوع منــه | وقــد لفــوه في خِــرق الحريــرِ
فــردوه إلى أن كــان حقــاً | وأوضـــح ذاك بـــالعلم الضروري
وقــال لنــا أمــا يــر فيــه جــاءت | رويناهـــا باســـناد شـــهيرِ
عَلامتــهُ عــلى الأمــواه يطفــو | ولا يشــتط مــن نــار السـعيرِ
ويحكـــى أن أجمـــالاً ثلاثــا | تنحـــى عنـــده تحـــت المسـرورِ
وحــين أعيــد جــاء عــلى بعــير | ضــعيف طــاب هــذا مــن بعــيرِ
أُقبلــهُ لعـــل فمـــي يلاقـــي | مكانـــا فـــاز بالهـــادي البشــيرِ
محمـــد الـــذي ســـاد البرايـــا | وأخجـــل طلعـــة القمـــر المنـيرِ
تقـــدم أنبيـــاء الله طـــراً | وإن يـــك في الـــزمن الأخــيرِ
فكـــل في الســـيادة قـــد باعـــا | ولكـــن ضـــاق فـــترعن مســيرِ
وجـــاء بشرعـــه عمـــت وطمـــت | أياديهـــا بتضـــعيف الأجـــورِ
فـــراح فقـــير أمتـــه يســـاوي | بفعـــل الـــبر أصـــحاب الـــدثورِ
ونـــال المؤمنـــون علـــو مجـــد | وأهـــل الكفـــر خصـــوا بالـــدخورِ

(١) في الأصل: الحكيم، لا معنى لها، وهو أحد قواد المطيع.

وذكر أبو عبيد البكري في كتابه المسالك، والممالك[1]: إن الله عز وجل رمى القرمطي بعلة في جسده فطال عذابه حتى تقطعت أوصاله، وأراه الله عز وجل في نفسه عبرة.

ومن فضائل الحجر الأسود أن النبي (ﷺ) لما قبله فاضت عيناه وقال: «**ههنا تسكب العبرات يا عمر ليس معناه كما تفهم وإنما معناه أن الحجر يمين الله في الأرض وضع لمبايعة الخلق مع الله تعالى فمن بايعه مبايعة صحيحة كان شاهداً له يوم القيامة**».

فهو كالشجرة في مبايعتهم مع النبي (ﷺ)، وهو أفضل من الحجر بالإجماع لأنه أفضل/ ١٧١/ عالم الحضرة القدسية فضلاً عن الكونية فلما قبله النبي (ﷺ) بذل العبودية، وقال ههنا تسكب العبرات أي عبرات ذل العبودية حتى تخضع لمن دونها:

وضعتُ خدي لأدنى من لطيفكم وضع احتقار، وما مثلي يحتقر

ومثله:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإن أشرف أسمائي

فلهذا فهمها عمر فقال عند تقبيله أعلم أنك حجر لا تضر، ولا تنفع ولولا أني رأيت محمداً يقبلك لما قبلتك:

في الحجر الأسود أودعت أسرار أنس من علوم الغيوبِ

تزدحم الأفواه في لثمه كأنما تلقط قوت القلوبِ

وفي معناه:

للحجر الأسود كم لاثم وساجد مرغ فيه الجباه

تزدحم الأفواه في ورده كأنه ينبع ماء الحياه

وفي معناه:

للحجر الأسود سر خفا وقد بدا للعين من شهود

---

(١) هو كتاب معجم ما استعجم.

عليـه قـد ضـمت قلـوب الـورى لأنـه أسـود قلـب الوجـود

قال الزين الحنبلي، والحكمة في تسويده دون غيره العهد الذي فيه، والميثاق، وهي الفطرة التي فطر الناس عليها (وكل مولود يولد على الفطرة، وأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه).

فقلبه الذي كان أبيض، وهو على العهد، والميثاق الذي فطره الله عليه اسود بالشرك فناسب سواد الحجر ذلك فإن قيل لم لا يبيضه توحيد أهل الإيمان قبل أنه لو بيضته حسنات المؤمنين لبقي على أصله، ولم يتحمل عنا خطايانا، ولم يكن له فضل علينا بالتحمل ولأمنة ودفع المفاسد عنا أقوى من جلب المصالح له إذ لا حاجة له بمنتنا لأنه لما كان الله تعالى منزها عن الجارحة نزل الحجر الأسود منزلة يمينه وصار استلامه كتقبيل يد الملك المنعم بالقرب منه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ﴾ [الحجرات: ١٧] الآية.

قلت، وأصل هذا الكلام الأخير للشيخ أبي المودة خليل في مناسكه، وأومأ إليه جماعات كما سبق إيماء إليه وقيل: إن السواد صار كالحجاب فالسواد يصبغ، ولا ينصبغ، والبياض ينصبغ، ولا يصبغ وبقاء سواده فيه إشارة إلى العلم بأن الخطايا إذا كان لها هذا التأثير في مثل هذا الحجر خصوصاً، وهو ليس من أحجار هذه الدنيا فتأثيرها في القلوب أعظم ويشهد لذلك قوله/ ١٧٢/ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤] الآية.

وأحاديث في معناها مذكورة في التفاسير أوردها السيوطي وغيره، والله أعلم.

وإذا تمتعت من الحجر الأسود بالتقبيل ملت إلى الركن، والمقام في أوضح سبيل لأغنم بعض أجور ذلك إذا وقفت هنالك فقد خرج أئمة الحديث رضي الله عنهم.

عن مجاهد مرفوعا: «يأتي الركن، والمقام يوم القيامة كل منهما مثل أبي قبيس يشهدان لمن وافاهما بالموافاة» الشهاب أبن أبي حجلة:

يا سائلي عن مقامي بالمقام عسى ... جلوت كأس مدام عند مغتبق

لله بـرب بـه أمسـت أرمقـه ... لم يبق في، ولا فيه سوى الرعق

وأميل إلى الحجر فيحجر على محاسنه مني اللب، والحجر، وأشرع أملأ من الصلاة فيه الأكمام، والحجر، ولم لا أفعل ذلك وغفران الذنوب مضمون بالصلاة هنالك.

فقد خرج أئمة الحديث رضي الله عنهم عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال لأبي هريرة: «**يا أبا هريرة إن على باب الحجر ملكاً يقول لمن دخل فصلى ركعتين مغفور لك فامض فاستأنف العمل**».

طوى في طوافي الله منه لـذة ... إذا نشرت بشرت عسري بـاليسر

وكم حسنات فاض في الحجر درها ... وسال بها الميزاب حتى امتلأ حجري

وكم مرة ملأت حجري بماء الميزاب حول الحجر، وتلقيته بالفم، والأكف، والحجر وربما حدا بي حادي الشوق وزمزم إلى التضلع من شرب ماء زمزم فإن الماء الشريف الغني بمزاياه الشهيرة عن التعريف، وقد ذكر، والبئر زمزم فضائل عديدة ومآثر مديدة مروية عن النبي (ﷺ) مجربة بين الإسلام فمن ذلك ما ورد من قوله (ﷺ): «**خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم**».

أخرجه ابن حبان، والطبراني وغيرهما.

ومنها ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً أن النبي (ﷺ) أنه قال: «**ماء زمزم لما شرب له**».

وأنشد الزين الحنبلي لبعض الأدباء:

وَلَيلٍ ببطحاء الحمى قد غنمته ... وطائر أُنسٍ بالهنا قد ترنما

وطاف بكاسات الأماني ودنها ... فطيب عيشي في المقام وزمزما/ ١٧٣/

وأنشد:

غنمنا عند بيت الله عيشاً ... وقمنا في مقام هنا آمنين

ودار بـــــماء زمـــــزم لي نــــــديم وطـــاف لنـــا بكـــأس مـــن معـــين

وأنشد:

لزمـــــزم نَفْـــعٌ في المــــزاج وقـــوة يزيـد عـلى مـاء الشباب لـذي فتـك

وزمـــزم فاقـــت كـــل مـــاء بطيبهـــا ولـو أن مـاء النيـل يجـري عـلى المسـك

وروى بعضهم أنها تقوم مقام الطعام، والشفاء ولذلك قال بعض من صدق لـه بها الاستشفاء:

شَـــفيتِ يـــا زمـــزمُ دَاء الســـقيم وأنـــتِ أصـــفى مـــا تعـــاطيى النـــديمُ

وَكَـــــمْ رضي لــــــك أشـــــواقه إليــك بعــد الشــيب مثــل الفطــيمُ

وقال بعض من أطراها، وأكثرها إن ماءها يفضـل مـاء الكوثر ولـذا قـال مـن سـوى بينهما في المقال:

يـــا زَمـــــزمُ الطيبـــــة المخـــــبر يـــا مَـــنْ عَلَـــتْ قـــدراً عـــلى المشـــتري

رَضـــيعُ أخلافـــــك لا يشـــتهى فِطامـــــه إلا لـــــذي الكـــــوثرِ

وقد ذكروا لزمزم أسماء تنيف على خمس وعشرين نبه عليها الزين الحنبلي، وأومأ إلى بعضها التقي الفاسي وغيره وكل من شرب منه اشتاق له، ولم يستغن عنه:

بــــــالله قولــــــوا لنيـــــل مصر بــــــأنني عنـــــــه في غنـــــــاء

بزمــــــزم العـــــذب عنـــــد بيـــــت محــــــق الســـــتر بالوفـــــــاء

وعدد الزين الحنبلي وغيره لبئر زمزم آيات بينات غنية عن إقامة الحج وإثبات البينات منها إن ماءها يقوم مقام القوت ولذلك عدوه طعاماً وعليه بنى جماعة من علماء المذاهب فمنعوا الوضوء به، والاستنجاء غير ذلك مما يؤدي لاستعماله في القذرات كما صرح به في أمهات الفروع.

ومنها أنه لما شرب له كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة فمن شربه ناوياً بن مطلبا من المطالب فإنه يناله على كل حال ذلك الأمر الذي هو له طالب ومنها أن الله

خصه بالملوحة ليكون الباعث عليه الملح الأماني ولو جعله عذباً لغلب الطبع البشري ولهذا يرد على أبي العلا قوله:

نَـلكِ الحمـدُ أفـواه البلاد بأسرهـا عَـذَابٌ وخصت بالملوحة زمـزمُ

ومنها: إن ماءها يعظم في الموسم ويكثر جداً كما هو مشاهد بالعيان ومنها: أن المياه العذبة ترفع قبل يوم القيامة غير زمزم الشهاب ابن أبي حجلة:/ ١٧٤/

لزمـزم بئـر غـدا مـاؤه بـبرده يطفـئ حـر الأوام

تـزدحم النـاس علـى شربـه والمنهـل العـذب كثـير الزحـام

وقال غيره، وقد فاض عليه من زمزم خيره:

حمـدت إلهـي إذ بلغـت مـرادي بـأم القـرى مستمسـكاً بعـماد

وقـد رويـت مـن مـاء زمـزم غلتـي فلسـت بمحتـاج المـاء ثـماد

وربما اشتد حراً لقيلولة فعمت الشمس جوانب البيت وطلوله وحمى الوطيس في المطاف فعسر المطاف فأميل إلى أساطير السقائف المحيطة بالبيت المشرف، وأخذ في تأمل ذلك الجمال الذي عظمه مولاه وشرف لا حصل ما أعد الله للناظر إلى الكعبة من جزيل الثواب على النظر إلى بديع ذلك المنظر فقد ورد عن النبي (ﷺ) أنه قال: «**النظر إلى الكعبة عبادة**».

وفي رواية: «أنه كعبادة العباد، وأنه أفضل من الصوم، والصلاة، والجهاد».

وورد أيضاً: أن الناظر إلى الكعبة كالمجتهد في العبادة في غير مكة من البلاد».

وروي: «أنه يعدل عبادة سنة».

وروي: «أن من نظر إلى الكعبة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وورد عنه (ﷺ) أنه قال: «تفتح أبواب السماء، وتستجاب دعوة المسلم عند رؤية الكعبة».

قفـوا واجتلـوا مـن كعبـة الله منظـراً فـما لفـوات منـه في الـدهر تعـويض

وقـد لبسـت سـود اللبـاس تواضـعاً وكـل لياليـنـا بأنوارهـا بـيض

لم لا أحصل هذا الأجر الجزيل، ولم يقدر على أن يمنع منه مانع، ولا يزيل عنه مزيل بل ورد فيه أكثر من ذلك ينبغي أن لا تتركه وراء فذالك.

فقد ورد عن عطاء بن رباح (ﷺ) قال سمعت ابن عباس (ﷺ) يقول: النظر إلى الكعبة بمحض الإيمان.

وعنه أيضاً: النظر إلى البيت عبادة، والناظر إلى البيت بمنزلة الصائم القائم الدائم المخبت المجاهد في سبيل الله تعالى.

وعن سعيد بن المسيب (ﷺ) يرفعه: «من نظر إلى الكعبة إيماناً، وتصديقاً خرج من الخطايا كيوم ولدته أمه».

ولله در القائل:

يـا كعبـة الله إن ربي آياتـه فيـك بينـات

وحيـث مـا كنـت يـا منـائي فـلي إلى وجهـك التفـات/ ١٧٥/

لم لا أميل إلى ذلك الوجه الحسن، وقد طال لما فارق عيني شوقاً إليه، والوسن، ولم لا أتمتع بالنظر إليه وجميع الخطايا تعوض بجزيل العطايا عند الورود عليه وحل الأمن، والأمان ونهة أهل الإسلام، والإيمان:

رجوعـا إلى المـولى فهـذا زمانـه وطرحـاً عـلى الأبـواب هـذا مكانـه

وطـف حـول بيـت الله للعفـو راجيـاً وبـت واسـأل الغفـران هـذا أوانـه

فمـن جـاء هـذا البيـت يرجـى قبولـه ومـن خـاف مكروهـاً فضـيه أمانـه

أمـا إن بيـت الكـريم، ومـن أتـى فنـاه كـسريم لم يفتـه حنانـه

نعم هو بيت الكريم الذي اختص بني آدم بالتكريم ونصبه لهم رفعاً لمقدارهم إذا جزموا بالتوجه إليه، وتركوا أخفض عيشهم في دار لهم وفضله على جميع البقاء عدا البقعة التي ضمت أعضاء الرسول عليه السلام فهي بالإجماع أشرف من كل قاع.

وقد ذكر الإمام ابن جماعة لتفضيل البيت على مسجد الرسول عليه الصلاة، والسلام وجوهاً كثيرة تنيف عن اثني عشر.

وأرجحها وجوب قصده للحج، والعمرة دون المدينة النبوية، وأيدوا ذلك بما ورد أن النبي (ﷺ) لما عاد إلى مكة استقبل الكعبة وقال: «**إنك لخير أرض الله، وأحب بلاد الله إلي ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**».

فقد صح جماعة من أئمة الحديث، وأقول أنه لا يعين الأفضلية على المدينة لما روى من فضلها وشرفها أيضاً بسكناه عليه الصلاة، والسلام لا يقال إن ظاهر الحديث العموم فيشمل المدينة وغيرها لأنا نقول ورود الأحاديث في فضل المدينة أيضاً صريح في أفضليتها وعدم التصريح باستثنائها في هذا الحديث يمكن أن يكون النبي عليه السلام تجنبه تواضعاً منه، وتعليماً للأمة بوجوه الأدب، والجواب عنه لا يخفى عمن له أدنى مسكة بالعلم مع الإطلاع على بعض ما شرف الله به نبيه، وليس هذا محل بسطه.

وأنشد الزين الحنبلي عقب ما خاطب به الرسول البيت قول الشاعر:

هذي الديار التي قلب المحب به شوق إليها، وتذكار، وأشجان

وإنة وحنين كما ذكرت ولوعة وشجى منه وآخران/ ١٧٦/

وصرحوا بأن من وجوه أفضلية الكعبة كونها في الفلك في المتوسط من الدنيا ووسط كل شيء أحسنه، وأنشدوا:

لو لم يكن وسط الأشياء أحسنها ما اختارت الشمس في أفلاكها الوسطا

وأقول أنهم إذا أرادوا بالتوسط أنه نقطة الدنيا، وأنها مستوية في جميع جوانبه ففيه نظر غير خاف عن العارف بأمور التعديل كما هو مبسوط مقرر في محله.

وذكروا لمكة أسماء عديدة يكل دونها الحصر فيا ما أحلا النظر في ذلك البيت الشريف ويا ما أحلى جمال تلك الكسوة السوداء الحائزة بسوادها غاية التشريف ويا ما

أحسن الحالة التي يجددون فيها له الكسوة ويا ما أسعد من حصل له فيها بمصطفاه أسوة:

يا حسن بيت الله، وهو مجرد ... ولنا لهيبة نوره إطراق
فكسوة أسود، والقلوب تودلو ... ضمت عليه سوادها الأحداق
ويا ما أحسن الطوائف ... التي تكون عليها طوائفْ
كعبتنا قد أصبحت بنورها مخلقة ... تهب من أركانها رياح عشق عبقةْ
فصيرت قلوبنا بالوجد كالمطوقة ... وغادرت أرواحنا بعرشها معلقةْ
مليكة بجوهر الذكر غدت ممنطقة ... والطائفون حولها جنود تلك الحلقةْ
ويا ما أكثر أمنه للخائف ... إذا كان بنواحيه خير طائفْ
حمانا من مخوف الدهر بيت ... له بالذكر أركان وسقفْ
محوط بالسرور وبالتهاني ... عليه البشر، والإقبال وقفْ
نزلنا في فناء منه رحب ... به الآمال ليس بهن خلفْ
فأرشفنا من الرضوان ماء ... يزيد على المد أطيبا ويصفوْ
وألبسنا من الإكرام ثوبا ... له بالأمن، والإسعاف سجفُ
يصد عدونا الشيطان عنا ... وينحفنا ملائكة تحفُ
ويا ما أمنع حما بيت لا يعلوه الحمام ... وإنما يطير في جوانبه خلف وإمامُ

ويا ما أذهب الورود من سقائه العباس لكل باس ويا ما أشد فوز الوافدين على البيت الحرام بغاية المرام ويا ما أشوقني إلى هذه الأماكن، وأنا بينها متردد وفيها كامن ويا ما أنشدني للأشعار إذا حدا إليها حاد له بالأدب أشعار فأقول له إذا لاحت محاسن / ١٧٧/ الكعبة التي جبت قلوب البشر واطمأن الفؤاد بالإقبال عليها واستبشر:

يا سائقاً عني النياق وزمزما ... أَبْشِرْ فقد جئت المقام وزمزما

كَــمْ كُنــتَ تــذكرني منــازل مكــة وتقــول إن بهــا المنــى، والمغــنما
بــرد بـمــاء ســقاية العبــاس مــا كابدتــه طــول الطريــق مــن الظــما
وانهــض فهــرول بــين مكــة، والصــفا وادخــل إلى الحــج الشريــف مســلما
ومقـــام إبـــراهيم زُره مبـــادراً ولحجــر إســماعيل صَــلِّ معظــما
وانظــر عــروسَ البيــت يجــلى حسـنها للنـــاظرين قلـــد بهـــا مســـتغنما
فهـــي التـــي ظهـــرت فضـــائلها فـــلا تخفــي وهــل يخفــي ســنا قمــر الســما
ومـــن العجائـــب أنهـــا محروســـة والصـــيد فيهـــا لا يـــزال محرمـــا
والطـــير لا يعلـــو عـــلى أركانهـــا إلا ليشـــفى أن غـــدا متســـلما
تختـــال في حلـــل الســـواد وبابهـــا بـــالنور دام مبرقعـــا ملـــثما
هــي كعبــة المــولى الكــريم وكــل مــن وافى إليهـــا حقـــه أن يكرمـــا
مـــا مـــنهم إلا ذليـــل خاضـــع بســـالك عـــلى زلاتـــه متنـــدما
يـــا رب قـــد وقفـــت ببابـــك عصـــبة يرجـــون منـــك تفضـــلاً، وتكرمـــا
ذا طالـــب فضـــلاً وذا متفضـــل ممـــا جنـــاه مـــن الـــذنوب وقـــدما
فـــاقبلهم، وأنلهـــم منـــك الـــرضى وتجـــاوز اللهـــم عمـــن أجرمـــا

لم لا تغفر الذنوب بهذا الحرم: وهو منهل الجود، والكرم ضمن الله تعالى كل من جاء قاصده وبلغه مقاصده فقد خرج أئمة الحديث عن جابر بن عبد الله أن رسول الله (ﷺ) قال: «**إن هذا البيت دعامة الإسلام، ومن خرج يؤم هذا البيت حاج، أو معتمر كان مضموناً على الله عز وجل إن قبضه أن يدخل الجنة وإن رده أن يرده بأجر وغنيمة**».

وقد سبق في المقدمة الأولى من هذا المعنى ما أقنى، وأغنى ما كنا نصنعه غالب مدة الإقامة في هذا البيت الذي أسسه الله تعالى على التقوى وإقامة وبعد رجوعنا من منى أقمنا يومين وخرجنا للعمرة، وأحرمنا لها من التنعيم لتعذر الجعرانة من كثرة الخوف

وقلة الرفيق، وأتيناها ليلا لكثرة ما كان من الحر ومع ذلك باتت الطريق من مكة إلى التنعيم كأنها سوق واحدة.

ولما وصلنا إلى موضع الإحرام اغتسلنا وصلينا ركعتين/ ١٧٨/ في ذلك المسجد الذي يعبر عنه الحجاج بالعمرة، وهو التنعيم، وتوجهنا إلى مكة رافعين الأصوات بالتلبية حتى وصلنا إلى المسجد الحرام فطفنا وسعينا وحلقنا.

وتمت عمرتنا ولله الحمد سبحانه لا رب غيره بعد نحو النصف من الليل وبقينا طول مدة إقامتنا ونحن نكثر الطواب، والنظر إلى الكعبة المنورة ونتمتع بالنظر إلى جمالها الأسنى وبهجتها الحسنى ونتضلع بالشرب من ماء زمزم بل كنا لا نشرب غيره أصلاً رغبة في حصول بعض فوائده ونلازم على جميع ما أشرنا إليه من أنواع العبادات من الصلاة وغيرها.

بل كنا نحافظ على إيقاع الفرائض كلها بل وغالب النوافل أيضاً في البيت، وله الحمد لا رب غيره.

ولقينا هنالك صاحبنا الفقيه العلامة المشارك الحافظ الدراك أبا عبد الله محمد بن عبد الله الفيلالي وولده الأنجب أبا عبد الله السيد محمد جاء بنية الحج، والعمرة من المدينة المنورة فهش لملاقاتنا وبش، وأكرمنا إكراماً زائداً، وكان يتفقدنا ويتعهدنا بالطعام وغيرها مع كونه لا أهل له بمكة جزاه الله خيراً.

وكنا نجول معه في مسائل متنوعة من الفنون العلمية نحواً وفقها وبيانا وحديثاً وغير ذلك.

وألفيت معه جماعة من طلبة الهند فأخذ يثني لهم علينا ويبالغ في الثناء بالسعة في العلوم لإنصافه وإرادته نفعنا وإن كنا لسنا أهلاً لما قال جزاه الله خيراً.

وسألني أن أقرئهم طرفا من تفسير البيضاوي فتعللت له بأني لست بتلك المثابة وبأني لا أكتب لي، ولا حواشي أستعين بها على ذلك، وأنه لا يصاغ أن نتقدم عليه لشهرته

هنالك ومعرفة الناس به فأبى أن يقبل ذلك، وما زاد إلا قراءة، وما قصده إلا انتفاعنا فقط فساعفناه بذلك في تلك الأيام التي انقضت كالأحلام.

وكان يحضر هو وولده وناس كثيرون وذلك كان لنا سبباً في نيل مقضياتنا الدنيوية دون كلفة فبلغه الله ما أراد وإن لم أكن قبل فهمت ذلك المراد وطالع جملة، وأخرى من كتابنا شرح نظم الفصيح فأعجب به إعجاباً كثيراً، وأستغرب فوائده وكتبت لنا عليه نحو من خمس أوراق بالغ فيها بالثناء عليه وعلى مؤلفه بكلام حسن وراق غير أنها كتب إلي ضاع لي مع غيره من الأوراق/ ١٧٩/ وكثيراً ما عز علي.

ولقيت أيضاً بمكة رجلاً مسناً أعمى سماه لنا أصحابه بالشيخ محمد الإسكندراني ورد علينا مراراً واختبرناه فإذا هو رجل شاب فشبت خصلتاه وعمي قلبه لما عميت مقلتاه طال أمله واشتد حرصه ونقص كماله وكمل نقصه إذا تكلم ملأ الدنيا دعوى، وأطال بلا طائل، ولا جدوى يفخر بالذهاب للملوك للأرفاد، ولا يصرف الهمة لمن أفاد، ولا لمن استفاد يكثر النظم في الرجز دون غيره من البحر ويستحضر جملة وافرة من السير، والحديث على ما بها من القصور.

ومع ذلك تجده كثير الجدل، والعناد شديد الغلظة، والغلظ على العباد من غم أنه، وأنه، وما علم أن أمثاله جد يرون أن يثنوا أنة بعد أنة ومولانا سبحانه يجبر كسرنا وكسره ويطلق منها تيك الدعاوى العريضة الكاذبة أمره .

ولقيت من علمائها الشيخ محمد بن محمد قاضي زادة الأنصاري الشهير بالقاضي عيد ورد علينا أولا ودعانا إلى داره فأسعفناه رغبة في ادخار السرور عليه واغتناما لدعوته لأنه رجل ظعن في السن جداً يناهز المائة مع تعلقه بأسباب العلم، وتمسكه بأذيال الحلم وخضنا معه في مسائل علمية متنوعة إلى عربية وحديث، وأدب وغير ذلك.

وقد شاهدنا من أحواله سمة الصلاح لما رأينا من إكثار للذكر وإعلانه بالحمد، والشكر وذكر لنا أن من ذرية أبي أيوب الأنصاري خالد بن زيد صاحب رسول الله (ﷺ)، وأنه لقب القاضي عيد لأنه ولد يوم عيد الفطر.

وأطلعنا على مؤلفات له بديعة في فقه الحنفية منها جاهر المتحلي على منية المصلي تأليف سري الدين الكاشغري، وهو تأليف جامع لجميع ما يتعلق بالصلاة على مذهب النعمان مستوعب لفروعها، وأصولها.

وقد تتبعه القاضي عيد بالشرح وجمع فيه مجلدين كبيرين، ثم اختصره في مجلد كبير سماه حلية المتحلي ومنها تلخيص الحقائق في شرح كنز الدقائق وسماه (حسن السلوك على تحفة الملوك) ومنها (الأحرار في أحكام الخلع، والأبرار) ومنها تأليف في مولد النبي (ﷺ).

ومنها آخر في المعراج.

ومنها آخر في فضائل شعبان ومنها الفيض الصمداني في شرح الكيداني، وهو تأليف في أحكام/ ١٨٠/ الصلاة خاصة على مذهب النعمان.

ومنها نحو العشرة مؤلفات في المناسك الحنفية من مائة كراسة إلى عشرة كراريس وطلب منا أن نكتب له على بعض بقصد التبرك لحسن نيته وإخلاص طويته فساعفناه بذلك وإن لم نكن أهلاً لسلوك تلك المسالك جبراً لخاطره واستدامة لمودته ودعائه، وأحضر لنا ولديه الشيخ حنيف الدين، والشيخ زين العابدين وكلاهما له معرفة وحسن خلق.

والأول هو النائب عن، والده في التدريس بالحرم الشريف ورأينا الشيخ أبا العباس أحمد بن حجر مدرس قبة الشمع من الحرم، وهو رجل لا بأس به له معرفة بالحديث كأسلافه رحمهم الله.

ورأينا الرجل المسن الصالح الشيخ جعفر الفائق بكرم أخلاقه على البحار، وهو جعفر ذهبت إليه إلى داره بناحية باب العمرة أحد أبواب الحرم الشريف فألفيته في سن عالية، وله أخلاق كريمة واسعة وحسن ملاقاة فأكثر من الترحيب بنا، وأظهر من التواضع ما يرفعه الله به وخاطبني مخاطبات لطيفة حسنة.

وله مكاشفات ومعرفة تامة ووجهة ظاهر البشر، والطلاقة وحسن خطاباته كمل أخلاقه وسألناه الدعاء لنا ولأحبائنا ومعارفنا شرقاً وغرباً فبالغ في الدعاء لجميعهم تقبل الله منهم.

ورأينا الشيخ أبا محمد عبد القادر بن يحيى الحنفي اليمني أحد خطباء الحرم، وأئمته، وهو رجل له أخلاق حسنة وسمت حسن مع حسن خطابته ولطافتها وفصاحة لسانه ورقة صوته، وتؤدته، وكان يبدي خطباً محبرة جامعة لا بأس بها مع إتقان الحفظ ومراعاة المعنى، واللفظ.

ورأينا غير هؤلاء ممن لم نعرف أسمائهم، ولم نشرب ماؤهم، وفي أثناء هذه الأيام ورد علينا سؤال قال فيه السائل.

ما يقول مولانا الإمام العلم الهمام شيخ مشايخ الإسلام وحامل شرعة النبي عليه الصلاة، والسلام أستاذ علماء المغرب وشيخ أئمة المشرق ومحلي بفرائد فوائد في جميع الآفاق كل مفرق صاحب العلم الذي طبق الكلا، والمفاصل، والفتاوى الي حكمها بين الحق، والباطل، والتآليف التي وصفها بالإجادة من باب تحصيل الحاصل مولانا شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن الطيب/ ١٨١/ المغربي الرحلة الواصل أبقى الله بركته، وأسعد سكونه وحركته:

في مسألة الشرب من الميزاب فإنه من الذهب فما تقتضيه قواعدكم التي مال إليها رأيكم السديد وهذبت فقد أشكل علينا ذلك، ولم ندر ما نسلكه فيه من المسالك فحققوا لنا فيه القول بينون، وأوضحوه وعينوه؟

من كان يسأل ربه أمنية فالله اسأل أن يديم لك البقا

والسلام عائد على سيادة مولانا ورحمة الله وبركاته وكنت أجبته جواباً يناسب سؤاله في بلاغة الأسجاع ويشفي ببلاغته ما تحدثه أدواء الجهالة من الأوجاع ولكن سرق الجواب في الرحلة وبقي السؤال في بطاقة محفوظة في الجيب لأنه كان عندنا من أنفس نحله وحاصل ما تضمنه الجواب أن الميزاب تجاذبه أمران الجوز بالنسبة لتعظيم البيت

تبجيله إذ ذلك هو المراد منه، ولم يقصد الانتفاع به في شيء من الأشياء، والحرمة بالنسبة لكونه ذهباً واستعماله حرام على ذكور هذه الأمة كما هو مقرر في أمهات الفروع، ثم ملنا إلى جواز مناولة الماء منه لما رأينا من استسهال ذلك وخفته أما، أو لإقامة ليس آنية معدة للاستعمال، وليس له وجه ينتفع الإنسان به منه وإنما هو بمثابة الخشبة التي تجعل على السقوف ينحدر منها ماء المطر لئلا يضر بالسقوف.

وأما ثانياً فإنه قصد منه تعظيم البيت، وتبجيله لا الانتفاع به، والارتفاق في شيء من الأشياء.

وأما ثالثاً فإن الماء لا يتناول منه للفم وإنما يصب على أيدي الناس، وفي ثيابهم ويجمعونه في أيديهم ويشربونه بعد ذلك.

وبالجملة فالأمر فيه خفيف، ثم رأيت بعد ذلك مثل ما قلناه للزين الحنبلي غير أنه ذكر الخلاف كأنه مقرر لأنه قال واختلفوا في الشرب من الميزاب فحمد الله تعالى على ذلك وشكرته.

وورد سؤال آخر يتضمن استشكال اقتداء المالكي بالحنفي الذي يصلي في داخل الحجر في المغرب لأنه أول من يصليها في الحرم واختلف في ذلك رأي المالكية الذين هناك فجلست طائفة بلا صلاة وصلت طائفة بنية النقل وشنعتها بعد سلام الإمام وصلت طائفة أخرى مع إمام الحنفية متقصرة على تلك الصلاة، وأطال في تقرير الأشكال.

وكنت أجبت بصحة تلك/ ١٨٢/ الصلاة، وأنه لا ينبغي التأخير عنها إلى غيرها، ولا إعادتها لأن الاقتداء بالمخالف في الفروع جائز اتفاقاً قابل.

قال المازري: إنه جائز إجماعاً، وهو الذي تقتضيه الفروع، والأصول لأنه يرى جواز الصلاة في الحجر مطلقا، وأطلت في تقرير الجواب مؤيداً بنصوص المذهب لولا أنه سرق وذهب.

ثم بعد ذلك وقفت على استشكال ذلك بين علماء مكة من قديم حتى وقع في النازلة خبط كبير.

وألف فيها أبو سالم (ﷺ) رسالة سماها (رفع الحجر عن الاقتداء بإمام الحجر)، وقد أوضح فيها القول، وأبدى من النصوص ما يشهد له بالطول وحصل فيها أربعة أقوال أشهرها الجواز مطلقها كما هو المشهود المتاول على ما في مختصر ابن الحاجب وخليل وغيرهما.

وحكى عليه المازري الإجماع كما أشرنا إليه، وقال إن الأقوال الثلاثة الأخر كلها تقتضي الجواز في هذه النازلة أيضاً وصرح بأن الصلاة صحيحة على الأقوال الأربعة فليراجعه من رام الوقوف عليه.

ولما رأينا ذلك حمد الله إذ وفقنا لما وفق أبا سالم إليه ووقعت أمور ونوازل غيره لا نستحضرها مستوفاة، وقد ظفرت في هذه الديار المعظمة المسرفة، والأماكن التي عظم الله قدرها وشرفه بالرسالة التي قيدها الشيخ البكري فاستخرت لبي وحيرت فكري، وهو الشيخ محمد بن الشيخ زين العابدين أحد علماء الإسلام وكبراء أفاضل المهتدين الهادين، والشيخ زين العابدين هو أحد أشياخ الإمام أبي سالم المتحلي بعرض مصون وعرض من الشوائب سالم.

وهذه الرسالة ذكر فيها منازل الحاج الحجازية ومناهله وسقى من بحار الآداب الفائضة عللا بعدما كانت ناهلة، وأبدى فيها من الفصاحة، والبلاغة ما لا يستطيع بليغ وصوله، ولا بلوغه ووشح معاطف نثرها البليغ بمطارف أشعار دالة على الأشعار التام، والتبليغ.

وحقق ما في كل مرحلة من الساعات، والأدراج، والدقائق ودقق ما يتعلق بأحوال كل مرحلة من الحقائق.

وقد أثنى عليها الإمام أبو سالم بما هي جديرة به من الثناء ووصف سجاعها ونظامها بما يوجب الالتفات إليها، والانثناء، ولما رأيته أثبت في رحلته منها ما جعله في أذنها شنفاً

وصرح بأن كلامه لا يعد بالنسبة لكلام الشيخ/ ١٨٣/ البكري صنفاً.

وفرق ما أثبته على المراحل، ولم يأت به على نسق واحد، وهو راحل رأيت أن أثبت منها ذلك القدر واختلف على أخلافها لارتضاع ما فيها من خالص الدر، وأقلد هذه الرحلة من حلي بداعتها بفرائد الدرر، ولم أمل إلى افتراقها على مراحل البنادر كما فعل أبو سالم بل جئت بها على نسق من شوب التفريق سالم لأني رأيت ذلك ألقى لرونقها البديع، وأعذب في الأذواق من تفريق نثرها المرزري بتحرير الحريري وإبداع البديع كان أبو سالم لم يعد كلامه منه صنفاً وجعله في أذن رحلته شنفاً، وأبدى ما هو جدير به من الأنصاف، ولم يشمخ آنفا فإني لكلامي أن يمزج بذلك الدر النفيس، وهو أبدر منه، وأنفى، وقد اقتصرت من تلك الرسالة على ما أثبته أبو سالم، وأعرض عن باقيها لأنه من مجال النظر غير سالم.

قال الشيخ محمد البكري فأول المنازل البركة المباركة التي توحدت في مشارق أنوارها ومشارع شوارع أقطارها عن المشاركة وقصرت عن أوصاف محاسنها ذو، واللسن وجمعت بين الماء، والخضرة وقدوم الوجد الحسن فهي مخضرة الأكناف بديعة الأوصاف قد صدحت أطيارها، وتفتحت بالنسائم أزهارها وبها الخيام منصوبة ومرفوعة، والخيرات لا مقطوعة، ولا ممنوعة مع وقوف أشايرها على الإقدام يستدل بضوئها في الليل من له على القدوم إقدام كأنها في جنح الليل نجم الثريا إذا اقترنت بالنثرة، أو الإكليل إذا قارن الزهرة.

وبها سوق يساق إليه بدائع البضائع التي يحتاج إليها المسافر في أكثر الوقائع ما قصد نحوه قاصد إلا وعاد منه موصولاً بالصلة، والعائد، وكان هذا النعيم المقيم سائرنا ومسايرنا في الذهاب، والإياب إلى أن رعنا إلى بكرة الحاج ثانياً ولاقيا الأحباب قال الشاعر:

في بركة الحج ترى نخلا زها لكن عجب

زبرجـــــداً يحكـــــي ومـــــا ثـــــــمـاره إلا ذهـــــــب

فيهـــــا نســـــيم رائـــــق بلطفـــــه يشـــــفي الصـــــوب

والطـــــير فـــــوق مائهـــــا يشـــــدو بـــــأنواع الطـــــرب

أفيافهـــــا مـــــن بركـــــة تبلـــــغ القلـــــب الـــــورب

عودتهـــــا مـــــن طـــــارق وغاســـــق إذا وقـــــب

وبعد ما كملت الركائب واجتمع بعد التفريق نجابة النجائب وانقضى مقام/ ١٨٤/ المقيل نودي في ذلك المكان الرحب بالرحيل وحمل المحمل الشريف وفارق المربع، والظل الوريف وسار الركب سير السيل، وتسابقت العيس لجهة الخير كأنها الخيل حتى وصلت إلى قرب البويب المعروف بالتصغير، وفي الحقيقة هو باب الدرب ومفتاح السير فاجتمع شمل الركاب في ذلك المكان ورجع المودع في خبر كان فاستراح الناس، والبهائم واستيقظ بسهر الليل كل نائم.

ثم أطعمت الجمال بعلائق وقطع الحجاج من تلك المحطة الغلائق ومدة السير إلى تلك الرحلة ثلاث ساعات مكملة.

ثم نادى منادي الرحيل فسار الركب إلى أن أصبح مقارباً للبئر الطوي، وهو المكان المعروف بالمصانع ومطلب راحة الناس في الإقامة ولولا الموانع وبه تقطير الجمال وضبطها في سير الركب واحتياج الماشي من تعبه إلى الراحة، والركوب فيا له من يوم تقطر فيه الدموع ويطول فيه الوقوف، والوقوع، وتشرب فيه الفقراء كاسات الردى لشدة ما يحصل لها من جور الجند واعتداء الاعتداء فما من فقير إلا ويحتاج إلى غني يسعفه وإلى عادل من ظلامته ينصفه قال الشاعر:

قـــد أتينـــا إلى محـــل المصـــانع فاصـــنع الخـــير فيـــه إن كنـــت صـــانع

وانفـــعِ النـــاسَ في كَثـــيرٍ جَميـــلٍ عَـــلَّ تلقـــي خـــيراً كثـــيراً ونـــافع

واعلم أن عدة درج المسير إلى هذه المنزلة ست ساعات على التحرير، ثم قام دليل الركب للمسير، وأمر الناس من تقطيع أزمة الجمال بالتقطير فسرنا طول ليلنا إلى الأسفار واسترحنا بالوصول إلى عجرود من مشقة الأسفار فوصلنا إلى بندر عجرود وماؤه ملح أجاج غير مورود فأتانا أهل بندر السويس وعطفوا علينا انعطاف الأغصان في الميل، والميس، وأهدوا إلينا الأحطاب لمشاعل، والأغنام للمآكل وعدة درج هذه المرحلة المبهجة سبعة وثمانون درجة، ثم سرنا إلى النواظر ورأس الوادي المنصرف، وهو واد بكثرة الرمال، والكثبان قد عرف ليس به ماء، ولا مرعى وإنما عيون الناس لمضيق أرجائه ترعى قال الشاعر:

نزل الركب بوادي المنصرف وعلى لقياه كم مال صرف

نحمدُ الله الذي جئنا له وجميع الهم عنا منصرف/ ١٨٥/

ثم سرنا إلى وادي القباب، وهو واد فسيح الرحاب تهيم به قلوب الأقباب ويتذكر به عهد زينب، والرباب لا سيما اجتماع الأصحاب في مواطن البعد، والاغتراب قال الشاعر:

شاقنا وادي القباب المرتقى في اسمه، وهو فسيح في الربا

فوصلناه، وقد قلنا عسى بعده نأتي إلى وادي قُبا

وميقات السير إليه عشر ساعات على التمام وبعد إقامتنا به إلى وسط النهار تهيأنا للقيام، ثم نادى المنادي بالرحيل فسرنا إلى رأس وادي تيه بني إسرائيل، وهو واد واسع الفضاء يعتبر فيه بأحوال من مضى ليس فيه ماء ترده الأنام، ولا ظل سوى ظلل بني إسرائيل من الغمام قال الشاعر:

لا تسكنن بوادي التيه منفردا بلا دليلٍ ترى وقع الردا فيه

فما سَمعتُ كلاما من أخي ثقة في الناس إلا، وقال احذر من التيه

ومدة السير إليه عشر ساعات حررها أهل الميقات، ثم سرنا إلى قلعة نخل المحمية، وتعجبنا من كثرة الفواكه الشامية من سفرجل ورمان وعنب على اختلاف الألوان، والخيرات الكثيرة، وما يحتاج إليه الحج من الذخيرة، والفساقي المملوءة بالماء البارد المعدة للغدي، والوارد قال الشاعر:

إلى نخل الحصينة سر حميداً ... ترى فيها المنى، والخير باق

ولا تشك الظمأ لفقد ماء ... فساقيها مقيم بالفساقي

مدة المسي إليه ست ساعات محررة وخمس من الدرج مقدرة، ثم سرنا من النخل إلى وادي القريض المشهور، وهو واد ينبت به الشوك عوضاً عن الزهور فكم آذى بشوكه أقدام وعطل له على المشي أقدام ويسمى الفيحاء لاتساع أرضه وزيادة فضائه فيطول وعرض قال الشاعر:

في وادي الفيحاء كم سائر ... من غير نعل ثابت الكعب

قد صار كالأعجام من شوكه ... يقرقص من قرص على الكعب

وسيرها إثنا عشر ساعة كاملة محررة في الميقات متواصلة، ثم سار الركب إلى بئر العلائي في التجريد، وهو محطة بئرها معطلة، وليس بها قصر مشيد وبقربها خضرة منحدرة، وأشجار أثل منقشرة وبجانبها فسقيتان ليس بهما منفعة فما ورد عليهما حيوان ظمآن إلا وقام عند رؤيتها بالأربعة قال الشاعر/ ١٨٦/

إلى بئر العلائي قد أتينا ... وفزنا بالنجاح، والهناء

شكرنا للإله، وقد دعانا ... إلى شيء يوصل للعلاء

مدة السير إليه إثنا عشر ساعة بالتحرير وبعدها الجد إلى سطح العقبة في المسير، وهو سطح واسع الأكناف تتسع الجوانب، والأطراف لا يوصل إليه إلا بالاستطاعة لأن مدة المسير إثنا عشر ساعة، ثم سرنا إلى العقبة، وما أدراك ما العقبة فكم عن حدرات

ومضيق وجال في شكل الحمرة، والبياض، وهي عقلة في الطريق وصعود وانهباط وعلو، وأنماط قال الشاعر:

عقبــــات تســــلك النـــاس بهـــا بقلـــــوب لم تـــــزل مرتعبــــة

قـــد قطعناهـــا بوقـــت هـــين لم نـــر فيهـــا أمـــوراً متعبـــة

نحمـــــد الله الـــــذي خلصـــــنا وأرحنـــا مـــن عـــذاب العقبـــة

فقطعنا تلك الحدرة الكبرى، ثم سرنا إلى وادي بشاطئ البحر، وأحطنا به خبراً وبجانب البحر مغاير ماؤها عذب فرات وآبار يستقي منها الناس بسائر الجهات ورأينا نخلا زاهية وقلعة حصينة عالية فأقمنا بتلك المنزلة ثلاثة أيام ونحن في زيادة أنعام وذبح أنعام، وقد وردت الفواكه من غزة، وأعمالها فنصبت للبيع وانخفضت الأسعار ورفعت البراقي على أحمالها وبقلعتها تُوضع البضائع ودائع إلى الإياب ومدة المسير تسع ساعات في الحساب، ثم سرنا إلى مرحلة يقال لها ظهر الحمار، وهي محطة عالية كثيرة الأوعار يصعد إليها من عقبتين، واليمنى أوسع من اليسرى في المسلكين قال الشاعر:

صــعدت عــلى ظهــر الحــمار لعلهــم أن يبلغــوا بصــعودهم كــل الأمــل

تعــب الخــمار مــن الطريــق بطولهــا ومديــدها واحتــث مــن بعــد الرمــل

حتـى الجـمال بـه قلـت يـا هـل تـرى يقبـــل بـــه عـــذر الحـــمام أم الجمـــل

ومدة السير إليها ثمانية من الساعات محررة عند أهل الميقات، ثم سرنا إلى ما بين الجرفين، وهو مكان كان الجبال قد قسمت به شطرين يحترز منه أن يعذب بالحجاج في أيام المسيل إلى البحر الملح الأجاج قال بلغوا فيه:

وخمســـة أحـــرف في اللفـــظ تقـــرأ فـــإن صـــفتها صـــحت بحـــرفين/ ١٨٧/

وإن ســــقطت خمســــاها فيبقـــى ثلاثـــة أحـــرف مـــن أصـــل الغـــين

ومنها إلى الشرفة، وهي بطول السير متصفة تتعب فيها الجمال ولو رحلت بالأرحال لما فيها من الوهاد، والطلوعات الشداد وخلف جباها قبيلة بني عطية المعروف بالسرقة، والأذية.

قال الشاعر:

إذا مـــا جئـــت للشرفـــة	تـــرى العريـــان مختلفـــة
وأمـــا العـــيس فاجعلهـــا	بحســـن الحفـــظ متصـــفة
فـــإن منعـــت بحارســـها	وإلا فهـــي منصرفـــة

ومدة السير خمسة عشر ساعة من غير ريب وبعدها المغار المعروف بمغار شعيب، وهو غار يترك به الناس، وترى فيه الحظ، والإيناس وبه الماء العذب، والنخيل وشجر المقل، والأثل، والظل الظليل.

قال الشاعر:

قـد وصـلنا إلى مغـار شـعيب	فرأينـــا الميـــاه كالأنهـــار
فاسـتقينا مـن مائـه واشـتفينا	وظفرنـــا بغايـــة الأوطـــار
وذكرنـــا بغـــاره غـــار ثـــور	مـــن حـــدى للصـــديق، والمختـــار
خـير مـن أنـزل الإلـه إليـه	ثـــاني اثنـــين إذ همـــا في الغـــار

ومدة السير ثمانية عشر ساعة محررة عند أهل الصناعة، ثم منها إلى عيون القصب إذ نظر إليه العاجز أذهبت عنه الوصب الخضر منها نضرة، والأشجار بها منتظمة ومنتشرة.

قال الشاعر:

قـد وصـلنا العيـون القصـب	واسـتراح القلـب بعـد النصـب
وعيـون المـاء فيهـا قـد جـرت	كسـيول الغيـث بـين القضـب
فجلسـنا في صـفاء حولهـا	وظفرنـا عنـدها بـالأرب

وتشوقنا ليشاد الطرب يتغنى بعيون القصب

ورأينا مجاوراً لتلك العيون نسوة من العرب يوصفن بحسن العيون ويتعاجبن بضفائر الشعور فيمنعن من عقل المحب الشعور كأنهن الأقمار وكأنها نبتت في وجناتهن الأزهار فكان قطع المفاوز، والأوعار كالمنتزهات في الرياض، والأزهار.

قال الشاعر في بدوية اسمها ساكتة:

بروحي أفدي ظبية بدوية لها وجنة فيها الأزاهر نامية

إذا رمت منها إن لكلمي غدت تكلمني ألحاظها، وهي ساكتة

ومدة السير إليها أربعة عشر ساعة وثلاثون من الدرج يتعب في سيرها/ ١٨٨/ من ركب، ومن درج، ثم منها إلى بندر المويلح المشهور ورأينا بساحله المراكب من سويس، والطور فيا له من بندر فاق البنادر يأتي إليه الوارد، والصادر وبه جملة من الكروم التي تذهب برويتها الهموم وبمخازن القلعة تودع الودائع وإلى سوقها تساق نفائس البضائع من ثمار تجلبها العرب وزلابية عجينها كاللجين فإذا قليت أشبهت الذهب.

وبهذا البندر رجل من أرباب الأحوال حاذر تبني الجلال، والجمال صاح مجذوب تميل إليه محبة القلوب، وله أسرار ظاهرة ومكاشفات باهرة يعتقده الناس ويحصل لهم به الإيناس لا يعرف الدرهم، ولا الدينار، ولا يقبل إلا القوت عند الاضطرار لباسه من جبة صوف ورأسه في غالب الأوقات مكشوف.

وإن نطق تكلم على الخواطر وإن صمت نطقت عليه ألسنة الناس بالثناء العاطر ويكسوه المرات ذوات العدد، وهذا شأن الكرام الذين قطعوا علائق الدنيا على الدوام فأقمنا بهذا البندر ثلاثة أيام وبعدها طوينا المضارب، والخيام.

ومدة السير ثلاثة ساعات وخمس من الدرجة في علم الصناعة، ثم سرنا من المويلح إلى دار أم السلطان التي هي لعرب الأبدية أوطان ونزلنا بوادي سلمى وكفافة وحصل مزيد الأمن بعد المخافة وخلف جبلها الغربي البحر الأصيل وبجانبه القسطل البري

منتظم كالنخيل وحفائر مائها عذب بارد يشرب منه الغادي، والوارد قال الشاعر:

إن وادي سلمى بهي بهيج	حيث فيه قفر الولي المسمى
صاحب السر، والمعارف مرزو	ق الكفا في طاب روحا وجسما
فإذا جئت قبره فتأدب	وتوسل بجاهه، ثم سل ما

فأقمنا بتلك المرحلة الإقامة المعتادة وحصل لنا ببركة الشيخ مرزوق في الرزق الزيادة ومدة السير كاف تمام وعددها معروف من غير إبهام.

ثم سرنا إلى بندر الأزلم، ولا يرغب فيه من بحقيقته يعلم فماؤه ملح أجاج ما شربه إنسان إلا احتاج إلى العلاج فأقمنا به من غير إقبال ورحلنا منه بعد الزوال.

ومدة السير إليها سنة عشر ساعة محررة وخمس من الدرج مقررة/ ١٨٩/، ثم سرنا إلى مرحلة تسمى اصطبل عنبر، وقد اختفى بها العربان للأذى، وتستر، والمسير إليها بين جبال صاعدة وحدرات، وأوعار متقاربة ومتباعدة وبها آبار عذبة يود كل ظمآن شربه قال الشاعر:

إن جئت للاصطبل لا	تغفل به عند النزول
واحذر من العرب الذي	بجباله أبداً تصول
واعلم فديتك أنه	صعب ولكني أقول
قد سُمي الاصطبلَ من	عرب به شبه الخيول

ومدة السير إليها ثلاثة عشر ساعة في العد صحيحة الضبط، والسند، ثم سرنا منه إلى وادي الأراك، وهو واد ليس لإفراد محاسنه اشتراك وبعده دخلنا بين جبال، وأوعار ومضيق، وأحجار وحدرات طوال وصعودات، وتلال حتى نزلنا ببندر الوجه الخالية وحفائر الماء العذب بقربه غير خالية فأقمنا به إلى قبيل العصر، وقد زال من الناس الحصر قال الشاعر:

قد دخلنا ببندر الوجه الذي	فيه قوت كل عام يختزن

وشربنا من مياه عذبت | شربها يجلو عن القلب الحزن
نحمد الله الذي مياه عذبت | ورأينا ذلك الوجه الحسن

ومدة المسير إليها سبعة عشر ساعة وثلاث ساعات بالإجماع حررها أهل العلم، والإطلاع، ثم سرنا من الوجه إلى مفرش النعام، ثم إلى حدرات، وأكام، وأماكن يرى منها البحر الأجاج وشدة تلاطمه بالأمواج، ثم حدرات كبيرة المقدار كبيرة الصخور، والأوعار ونزلنا في محطة يقال لها بركة أكره، وهي أرض بها حفائر ماء تكره ماؤها مر المذاق من تقيد بشربه حصل له الإطلاق فهي مرحلة لا ترتاح بها النفوس، ولا يضحك بها العبوس:

يا من أتى أكره في سيره | أبشر بنيل القصد، والمنة
لا تكره المكروه في أكره | فبالمكاره حفت الجنة

ومدة السير إليها تسع ساعات بتمامها وثلث ساعة ثابتة في أحكامها، ثم سرنا منها إلى مرحلة يقال لها الحنك ولها من بين القرى اسم مشترك بين فضاء واسع المجال ومراعي أعشاب للجمال إلا أنها خالية من الماء للوارد، والإقامة بها إنما هي على طريقة السير المعتاد ومدة المسير إليها أربعة عشر/ ١٩٠/ ساعة من الزمان حررها أهل الإتقان.

ثم سرنا منها إلى العقبة السوداء المشتهرة وقطعنا مفاوزها ونزلنا بالحوراء النضرة، وهي مرحلة رملها غزير ومحاطبها كثير وبها شجر الأراك الأخضر، والماء من خفائر رملها يتفجر.

قال الشاعر:

جئنا إلى الحوراء، وهي محطة | فيها الأراك نزاهة للرائي
ناديت خلا قف بها متأملا | وانظر لرمل مغمر بالماء
واغنم زمانا مقبلاً بسعوده | فيه اجتماع الشمل بالحوراء

ومدة المسير إليها في جمل الأعداد حررها أهل الإرشاد، ثم سرنا منها إلى مفازة نبط، وهي حد عربان جهينة في الشيل، والحط وبطرقها مضائق وحدارت وجبال راسيات شامخات وشجر أثل كالنخيل وحفائر ماء عذب يشفي العليل قال الشاعر:

وفي أكـــره، والتـــي بعـــدها مـــرارة مـــاء تزيـــد القســـاوة

فجئنـــا إلى نـــبط نشـــكو الظمـــأ فانعشـــنا ماؤهـــا، والطـــلاوة

ولمـــا صـــبرنا عـــلى غيرهـــا فأعقبنـــا صـــبرنا بســـالحلاوة

ومدة المشي إليها عدد كاف، وهي عشرون ساعة من غير اختلاف، ثم سرنا منها إلى طراطير الراعي، وهي مكان تحمد فيه المساعي، وهي جبال سود فوق الجبال، وتسمى أيضاً بالأباطح كما يقال، ثم إلى واد يسمى واد النار، وهو واد بين جبال ووعر وغبار، ثم نزلنا بالخضراء، وقيل الخضيرة بالتصغير، وهي من أعمال بندر ينبوع في المسير قال الشاعر:

انظـــر إلى الخضراء واغـــنم بســـطها تلقـــى رباهـــا نزهـــة للرائـــي

فلـــرب حشـــاش شـــكى مـــن همـــه قـــد زال عنـــه الهـــم بســـالخضراء

ومدة الوصول إليها في المسير نحو المائتين درجة بالتحرير، ثم رحلنا منها واستقبلنا دارين البقر ورأينا أول الوعرات قد ظهر، وهي سبع وعرات كبير أصعبها الأولى، والأخيرة بين كل وعرة فضاء وبعده عقلة في الطريقة ويليها شف جبل هائل ومضيق، ثم أنخنا الركاب ببندر ينبوع، وهو أول بلاد الحجاز في الذهاب وآخرها في الرجوع به حدائق ونخيل وعيون بين زروع تسيح، وتسيل ولها سور منيع وجامع منفرد / ١٩١ / وسيع وبيوت فسحة الركاب فآل أمرها إلى الخراب وبه الأن سوق الحجاج يأخذون منه الذخيرة عند الاحتياج وبه أفران وحيشان كبار وعشش السقي فيها القهوة من أيدي الجوار.

وقال الشاعر:

حبــــذا بنـــــدر ينبـــوع ومـــا — في ربـــاه مـــن ريـــاض وعيـــون

وســـاقة مـــن مـــلاح نهـــد — يصر عـــن الصـــب مـــن نبـــل العيـــون

فارتحـــل هـــنهن واذهـــب وانتصـــح — فـــإذا خالفـــت أذهبـــت العيـــون

وجميع تلك الأسواق خارجة عن المساكن ويعم نفعها للظاعن، والساكن فنصبنا بهذا البندر الخيام، وأقمنا ثلاثة أيام ومدة المسير إليها سبعة عشرة ساعة في العد ومحررة في ميقاتها صحيحة السند.

ثم سرنا من ينبع إلى دهناء في فضاء ورمال، وأكام وجبال حتى وصلنا إلى الأبـرقين، وهي كناية عن جبلين مفترقين أحدهما رمل صاعد، والآخر من وعر وجلامد وبينهما تدق الطبول الحربية لنصرة خير البرية فسمعها من كان أهلاً للسماع ويحجب أهل الزيغ، والابتداع.

ثم دخلنا إلى قرية بدر وحنين التي حماها الله من كل شين وبها جسر طويل وعيون تجري بين حدائق ونخيل.

وبها مسجد العريش، وقيل مسجد الغمام وموضع حوض المصطفى عليه الصلاة، والسلام ومحل النصرة لجيوش الإسلام على أهل الأنصاب، والأزلام، وهي الغزة العظيمة المقدار التي بها شاهت وجوه الكفار فيا لها من غزة قاتلت فيها الملائك وضاقت بها على أعداء الدين المسالك، وأخزى الله أهل الشرك، والغواية.

واستشهد من المسلمين من سبقت له العناية وخرج فيها أصحاب رسول الله (ﷺ) للجهاد وقتل أبو جهل رئيس العناد فبلغت الشهداء من السعادة أوفى نصيب وقليت أعداء الله في القليب ووجدوا ما وعدهم ربهم من العذاب الأليم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم قال الشاعر:

يـــا أهـــل بـــدر لقـــد طابـــت مـــآثركم — وقـــد عـــلا قـــدركم في أرفـــع الـــدرجات

فـــزتم بغفـــران أوزار وحســـن ثنـــا — عـــلى المـــدى نشره مـــن أطيـــب الأرج

يكفيكم في علاكم قول مادحكم هم أهل بدر فلا يخشون من حرج

فيا لها من ليلة بتنا بها، وقد أشرق بدرها، وسما قدرها أذهبت عن العيون/ ١٩٢/ الهجوع لاشتغالها برؤية القناديل، والشموع فأما الشموع فقد ملأت الأرجاء بالنور ومحت بضوئها ظلم الليل الديجور، وقد دقت طبول الأفراح وزالت عن القلوب الأتراح، وأحضر السكر الماد، وأذيب في الماء للوراد وملئ به البواطن، والحلل وسقي به جميع الطوائف، وأهل العمل فشرب كل منهم أوفى نصيب فكانت ليلة من صفائها أقصر من جلسة الخطيب وقضينا الأوطار من مشاهدها المبتهجة ومدة السير إليها ثمان ساعات واثنا عشر درجة.

ثم سرنا من بدر إلى قاع البزوة، وتسوى طرف النجحان، ثم إلى عالج وجبل القرود ومكان يسمى ودان، ثم نزلنا بسبيل محسن المشهور، وتنزهنا في خضرة أعشابه وسوطه المعطور قال:

قد شكالي بعض المحبين يوماً ظمأ الماء قلت ذا غير ممكن

كيف تشكو الظمأ، وتجزع منه وبهذا السبيل حسن محسن

ومدة السير إليها ثمانية عشر من الساعات وعشرون درجة محررة بالميقات، ثم سرنا منها إلى بستان القاضي ونسينا بقرب الذيار تعب السير الماضي، ثم نزلنا برابغ محل الميقات، وتجردنا من لبس المخيط بصدق النيات، وأحرمنا بالعمرة، والحج عملا بقوله: «الخير العج، والثج».

وأعلنا بالتلبية لعلام الغيوب وسألنا الله تعالى غفران الذنوب فرأينا حفائر ماء تنبع ومزارع بطيخ بتنوع ومسجداً قديم الأثر ويسمى ذا الجحفة كما ورد في الخبر، وهو محل إحرام المصطفى زاده بأرفعة السمر قال:

تجردت لما إن وصلت لرابغ ولبيت للمولى كما حصل الندا

وقلت إلهي عندك الفوز بالغنى وإني فقد قد أتيت مجردا

ومدة السير إليه ستة عشر تمام وعشرون من الدرج ثابتة الإحكام، ثم سرنا إلى الجرينات ونزلنا بظارف قديد الذي لا يحل في حرمة للمحرم المصيد، وأرجاؤه واسعة المجال كثيرة الوعر، والرمال إلا أنها تبشر بقرب البلاد، وهي مواطن الأمجاد قال الشاعر:

قـــد نزلنــــا بظــــارف القديـــــد	ودخلنــــا حمـــاك نرجـــو الحمايـــة
فتفضــــل عــــلى عبيـــد وفـــود	منـــك يرجـــوا دفـــع العنـــا بالعنايـــة

ومدة المسير إليه سبعة عشر ساعات محررة في الميقات، ثم سرنا إلى عقبة/ ١٩٣/ السويق، وهي عقبة عالية الرمال في الطريق، ثم منها إلى خليص الشهيرة وبها ضيقة من الماء كبيرة ويحترز فيها من اللصوص أصحاب النفوس الخسيسة، ثم إلى مدرج عثمان، ثم إلى قرية عسفان وبها البئر التي تفل فيها سيد البشر، وهي بئر شرب من مائها زال عنها الضرر قال:

إن عســــفانا تســـامت رفعـــة	وعلـــت قـــدراً عـــلى كـــل القـــرى
وبهـــا بئـــر النبـــي المصـــطفى	خـــير مـــن صـــلى وصـــام وقـــرا
فـــإذا جئـــت لهـــا كـــن محتســـباً	فعســـى تحـــب مـــن أهـــل القـــرا

ومدة السير إليها زاي في العدد معلومة في المدد، ثم سرنا منه إلى جبل أغمار العميان التي تجتمع فيه الفقراء بقصد الإحسان نزلنا بالوادي، وهو نهاية بئر البوادي، وهو واد خصيب يرى فيه طالب النزاهة أوفر نصيب أغصانه زاهية وقطوفة دانية، وأطياره ناطقة وجداوله دافقة ومزارعه تنبت من كل زوج بهيج ويفوح من أزهارها كل عرف أريج، وهي زائدة الابتهاج وعلى كل حديقة ساج فلو رآه مصري من الناس نسي الروضة، والمقياس وبها عشش تسكنها عرب البوادي وبأرضه ينبت الشجر الكادي قال:

يـــا حبـــذا واد فســـيح الفضـــا	أريجـــه قـــد عطـــر النـــدا
كـــم فيـــه مـــن فاغيـــة قـــد زكـــت	وفيـــه زهـــر الفـــل، والكـــادي

وكــــم ثـــــمار وزروع بـــــه والمــــاء فيــــه يــنعش الصـــادي

قلـــت لحــــلي حــــين شـــاهدته ولاح إلى نــــور الســــنا بـــاد

هــــل دار لــــيلى قـــد تــــدانت لنــــا فقــــــال لي إنـــــك بـــــالوادي

ووصوله خمسة عشر ساعة في المسير وخمس من الدرج بالتحرير، ثم سرنا إلى سبيل الجوخي المعروف ورأينا جنان مكة دانية القطوف، ثم مررنا بمساجد ميمونة بالعمرة، وقد اقترن اسمها سموها كوكب الثريا بالزهرة تلاحت لنا أعلام الديار ومشاهد المشاعر، والآثار ووصلنا ثنية كذا وبعده المعلى التي بها مساجد أهل الهدى.

وكنا عند خروجنا من عدم الوصول خائفين حتى تلقيت هواتف البشائر بقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] ودخلنا من باب السلام، وتعاهدت البيت، والمقام/ ١٩٤/ وطفنا طواف القدوم وذهبت عنا الهموم وجئنا إلى محل الصفا وسعينا في طلب الوفا، ولما تم سعينا بالطواف وحفتنا بعناية الله الألطاف أقمنا بمكة بالإحرام إلى سابع ذي الحجة الحرام هذا أبرع هذه الرسالة.

وأما في الرجعة فقد رجع بحر الفكر عما كان أجراه، ولا من البلاغة، وأسأله، ولما قرب الرحيل وإن الخروج عن ذلك الربع الذي ليس بمشهر على طول الزمان فضلاً عن دخوله في عداد المحيل أخذت في التردد إلى زيارة المشاهد المشهورة هنالك، والاجتهاد في تحصيل ما تيسر من ذلك.

فزرنا مولد النبي (ﷺ)، وقد اتخذت دار مولده عليه السلام مسجداً ومزاراً عظيماً تجتمع إليه الوفود من كل جانب أيام المولد النبوي غير أن اختلاف العلماء في محل مولده عليه السلام مما يخدش في تعيين هذا الموضع الآن المشهور.

فقد علم من كتاب السيد السمهودي رحمه الله ما وقع من الاختلاف في مولده عليه السلام هل هو بمكة، أو بالأبواء وعلى أنه بمكة فقيل بالشعب، وقيل بالمحصب، وقيل غير ذلك من الأقوال المستطيلة.

قال الإمام أبو سالم، ولا أدري من أين أخذ الناس تعيين هذا المحل بالخصوص اللهم إلا أن يثبت أن تلك دار، والده، أو جده (ﷺ) فيترجح القول بأنه في مكة بقضية عادية، وهي أن و لادة الإنسان في الغالب في منزل، والده وإن أريد بالشعب شعب أبي طالب الذي انحاز إليه مع بني هاشم وبني المطلب في قضية الصحيفة فلا يبعد ذلك لأنه هذه الدار قريبة من الشعب من أسفله.

والعجب أنهم عينوا محلاً من الدار مقدار مضجع وقالوا أنه موضع ولادته (ﷺ) قال ويبعد عندي كل البعد تعيين ذلك من طريق صحيح، أو ضعيف لما تقدم من الخلاف في كونه بمكة، أو غيرها.

وعلى القول بأن فيها ففي أي شعابها وعلى القول بتعيين هذا الشعب ففي أي الدور وعلى القول بتعيين الدار فيبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار بعد مرور الأزمان، والأعصار وانقطاع الأثر، والولادة وقعت في زمن الجاهلية.

وليس هناك من يعتني بحفظ الأمكنة ولاسيما مع عدم تعلق غرض منهم بذلك وبعد مجيء الإسلام فقد علم من حال الصحبة/ ١٩٥/ ، وتابعيهم ضعف اعتنائهم، والتقيد بالأماكن التي لم يتعلق بها عمل شرعي لصرف اعتنائهم رضي الله عنهم لما هو أهم من حفظ الشريعة، ولا ذب عنها بالسنان، واللسان.

وكان ذلك هو السبب في خفاء كثير من الآثار الواقعة في الإسلام من مساجد عليه السلام ومواضع غزواته ومدفن كثير من أصحابه مع وقوع ذلك في المشاهد الحافلة فما بالك بما وقع في الأهلية لاسيما لا يكاد يحضره أحد لا من وقع له كمولد علي (رضي الله عنه) ومولد عمر ومولد فاطمة رضي الله عنهم جميعهم.

فهذه أماكن مشهورة عند أهل مكة يقولون هذا مولد فلان هذا مولد فلان وذلك في البعد أبعد من تعيين مولده عليه السلام لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده عليه السلام فقد يتنبه بعض الناس لذلك بسبب ما ظهر من الآيات وإن كانوا أهل جاهلية.

وأما مولد غيره ممن ولد في ذلك العصر تكاد العادة أن تقطع بعم معرفته إلا أن يرد خبر من صاحب الواقعة بنفسه، أو أحد من أهل بيته.

وحاصل الأمر أن هذه أماكن اشتهرت بين الناس فتزار بحسن النية رعاية لتعظيم قدر من أضيفت إليه مستحضر الزائر في قلبه عظمة من نسبت إليه الأمكنة وعظمة تلك النسبة، ولا يشغل قلبه بصحة النسبة وضعفها لوجودها في الخارج ولو عدمت في نفس الأمر فرعاية تعظيم الموجودة على الألسنة له آثار كبيرة في الجلب، والدفع نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يعظم حرماته وشعائره تعظيماً يوافق أوامر.

هذا كلام أبي سالم وإن كان أوله من التأمل غير سالم وآخره هو المتعين لأنه أمر بين، وما استبعده غير بعيد لشهرة ذلك النور السعيد، والله أعلم.

وزرنا مولد السيدة فاطمة رضي الله عنها في دار خديجة رضي الله عنها التي سكن فيها النبي (ﷺ) مع خديجة وولد بها الأولاد معها.

قال أبو سالم، والنفس أميل إلى صحة هذا المكان أكثر من غيره وزرنا مولد علي بن أبي طالب (ﷺ) ودار أبي بكر الصديق (ﷺ) وغالب بهذا الأماكن اتخذت مساجد ومزارات.

وبقرب دار أبي بكر حجر في جدار فيه كاثر المرفق يقال أن مرفق النبي (ﷺ) غاضت فيه لما استند إليه ينتظر بعض أصحابه، والناس يتمسحون به ويتبركون/ ١٩٦/

وقد فعلنا ذلك بحسن النية، والله سبحانه ينفعنا بذلك ويقال لذلك الموضع زقاق المرفق، وتوجهنا باب المعلا لنحصل بركة زيارتهم فقد أثنى عليهم النبي عليه السلام ووقف أمامهم، وقال فيها يا أهل باب المعلا أنتم الأعلى فزرنا روضة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وجماعة من المشاهير في تلك المشاهد كعبد الله بن عمرو الفضيل بن عياض، وأحمد ابن الأهدل وعز الدين بن جماعة، والسيد عبد الله اليافعي وعثمان بن طلحة.

وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن الزبير ومقبرة الطبريين ومقبرة العسقلانيين وغير هؤلاء تقبل الله بمنه وفضله.

ولما قرب الانتقال من مكة إلى طيبة ليكون المسك ختام تلك الغيبة هبت علينا نسمات الأشواق إليها فبقينا نستلذ قول من قضى نهمته من مكة، وأرشد السائق لطيبة بالورود عليها:

من يهده الرحمن خير هداية	يحلل بمكة كي تباح المقصدا
وإذا قضى من حجه الفرض انثنى	يشفي برؤية طيبة داء الصدا

وربما رأيت القوم أخذوا في الاستعجال فأمنت بقول أبي جعفر الرعيني إلا وجال، وهو من التشريع أحد أنواع البديع:

يا راحلاً يبغي زيارة طيبة	نلت المنى بزيارة الأخيار
وإذا وقفت لدى المعروف داعياً	زال العناء وظفرت بالأوطار

وربما هبت على نسمات طيبة فأترنم بقول الشيخ بن غانم المقدسي لأنه ملء العيبة:

إذا هب لي من نحو طيبة ريح	ترى الدمع من جفني هناك يسيح
ويصبح عندي، والغرام محرك	يكاد بسري في الغرام يبوح
وتزداد أشواقي إلى ساكني الحما	ويمسي فؤاد الصب، وهو جريح
بذكر رسول الله طاب حديثنا	ومن طيبة كل الوجود يفوح
هنيئاً لكم زوار قبر محمد	هنيئاً لكم رحب المزار فسيح
لكم عنده بشرى نعيم وجنة	لكم منه ريحان لديه وروح
ألا أيها الركب الذي يمم الحما	ومن دونهم صب هناك طريح
إلا فقفوا على غيركم واحبسوا السرى	لعلي أبكي ساعة، وأنوح
والسثم أخفاف المطي فإنها	سينفحها من أرض طيبة شيح/ ١٩٧/

أهل لك يا ركب الحجازي عودة على فاغدوا معكم، وأروح

وأصبح نشوانا يميل بي الهوى إذا أصبحت تلك القباب تلوح

ولما اشتدت الأشواق ونفقت بذكر طيبة الأسواق أخذت في التأهب للتوجه إليها، والورود عليها وطفت طواف الوداع ودخلت في حزب كل متوجه إلى الله وداع وركعت خلف مقام إبراهيم، وأخذت أطوف على تلك الأماكن المشرفة، وأهيم وكيف لا أهيم وجداً، وأتألم وفراق الكعبة المشرفة قد نزل بنا، وألم وكاد أن يذهب بالنفس لولا ما تداوت به من التعلل بزيارة النبي (ﷺ).

ذكر خروجنا من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة

وقصدنا لزيارة الرسول الذي كرمه مولاه على جميع الخلائق ونوره

زادهما الله تشريفاً، وتعظيما، وأبقى قدرهما على مر الأزمان عظيما خرجنا من مكة المشرفة غير معرضين عن أرجائها قاصدين زيارة الرسول عليه السلام إذ هي للنفوس غاية رجائها.

منشدين قول الشهاب ابن أبي حجلة لما أدركته في مثل هذا اليوم خجلة، وأية خجلة:

أقول، وقد فارقت مكة قاصداً جناب النبي الهاشمي المعظم

فراق، ومن فارقت غير مذمم وأم، ومن يممت خير ميمم

وقوله، وقد خلف البيت حوله:

لئن زال بالتعليم في مكة الشقا فحول الصفا العيش الذي لا يكدر

وإن مظت شملي بها ليلة اللقا فإن دموعي بعدها اليوم تنثر

وقوله:

ولم أنس إذا فارقت مكة قاصداً بوادي الغزال الظبي، والظبي راتع

فكنت كذي رجلين رجل يرى بها المقام، وأخرى للحبيب تسارع

وقوله الصلاح لما فيه من الصلاح:

رحلت عن البيت العتيق المحرم | إلى خير قبر الأنام معظم
فكنت كمن قد قال قبلي حقيقة | أبو الطيب الكوفي رب التكلم
فراق، ومن فارقت غير مذمم | وأم، ومن يممت خير ميمم

وكان خروجنا من مكة المشرفة عشية الثلاثاء الرابع، والعشرين من الحجة، وهو التاسع عشر من دخولنا وخرجنا من باب الشبيكة، وهي الثنية السفلى/ ١٩٨/ التي بأسفل مكة ومنها خرج النبي (ﷺ).

وأعزب ابن رشيد في رحلته فقال ذكر بعض أئمتنا أن الخروج إلى عرفات من الثنية السفلى أيضاً، وأيده ينقل ذلك عن أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي الظاهري، وقد حدثنا بذلك أحمد بن محمد العدري من كل من لقي بمكة من أهل المعرفة بمواضعها من أهل العلم بالأحاديث في ذلك.

وصححه ابن رشيد، وهو مما لم يذكر أحد ممن رأينا كما أوضحه أبو سالم وغيره فالله أعلم بحقيقة ذلك.

وبتنا قرب باب الشبيكة أمام سبيل الجوخي، وأصبحنا هنالك حتى صلينا العصر وانكسرت سورة الحر.

وارتحلنا راجعين في الحافرة في نعمة وافرة غير أن أكثرنا الإقامة في الرجوع إلى بدر وزاد أمير الركب المصري على ما قدر لذلك من القدر فمن الوادي نزل عسفان، وأقام في خليص وقديد، ولم تكن تلك عادة من قبله من الركبان واعتذر بأنه كان ينتظر إبلاً تأتيه من جده فلذلك قصر في السير، وما جده، ومن بدر أخذ الناس ما تركوه في بندره من الزاد ووصل العلف هنالك ثمنا جاوز المعتاز وزاد، وأغنانا الله سبحانه عن شراء العلم هنالك لأنا حملنا من مكة المشرفة ما يكفينا إلى المدينة من ذلك.

وارتحلنا من بدر وانحرفنا ذات اليمين السامية القدر متوجهين إلى روضة الرسول الذي من نوره استضاءت الشمس، وأشرق البدر فمررنا بالصفراء في بساتين وحدائق

وعيون جارية بماء عذب رائق بين هاتيك المضائق من الرطب، والموز، والبطيخ، والعجوة وغير ذلك، ولقد كانوا وردوا علينا بكثير من ذلك إلى بدر ولله در الصلاح إذ قال في تلك المواطن الملاح:

يـــا وادي الصــــفراء أذكرنـــا　　في جلـــــق عيشــــنا الخضراء

فالرايــــة البيضــــاء منشــــورة　　إذا ذكرنـــا وادي الصــــفراء

وقد قالوا إن بالصفراء مسداً معروفاً يتبرك به.

وذكر ابن زبالة أن رسول الله (ﷺ) صلى فيه نقله السيد ونزلنا مع الصبح في الجديدة ذات المياه الغزيرة، والفواكه المديدة وغالب الناس يسمونها الجديدة/ ١٩٩/ بالتصغير، وهو الجاري على ألسنة الكبير من أعراب تلك البلاد، والصغير.

وهي قرية صغيرة بين جبال وحدائق ونخيل ومضيق يخرج إلى عين جارية يطيب عندها النزول، أو الرحيل وجبالها شامخة عالية ونخلها، وأرطابها متدانية.

وغالب أهلها زيدية كغيرهم من أهل قرى الحجاز يقرءون القرآن، وليس لهم منار للأذان، وتفرق الناس في حواصلها يؤمنون هنالك أثقالهم ويخزنون سلعهم، وأحمالهم لتخف مؤونتهم في الروضة المشرفة ويجدون شيئاً من الفراغ عند الوصول لذلك المكان الذي عظمه الله وشرفه.

وقد صرح أبو سالم وغيره بأنه ليس في بلاد الحجاز مكان أشد حراً من الخلائق عهد بالرجل يسعى في حوائجه ومقتضياته فيقال لك مات ولله الأمر من قبل، ومن بعد، وكان الصلاح في مثل هذا المكان أنشد:

أقــول وحـــر الرمـــل قـــد زاد وقـــده　　ومـــالي إلى شـــم النســـيم ســـبيلُ

أظـن نسـيم الجـو قـد مـات وانـقضى　　فعهــدي بــه في الشـــام، وهـــو عليـــلُ

أو قاله في رمال نواحي الينبع التي ما زال ماء الشرب من أرضها ينبع وارتحلنا من الجديدة خلفنا كل ما يقل من الأحمال وبقي هنالك جماعة من الأعراب، والفلاحين

الذين لا غرض لهم في الزيارة إذ لا قصد لهم إلا في الكراء وغالبهم أيضاً لا يحرم بحج، ولا عمرة لقلة اعتنائهم بأمور الدين سامحهم الله.

ومررنا بالنازية وبعدها بمسجد الغزالة، ثم ببئر الروحاء.

قال المجد: الروحاء موضع من عمل الفرع على نحو أربعين ميلا من المدينة.

وفي صحيح مسلم على ستة وثلاثين ميلا، وفي كتاب ابن شيبة على ثلاثين ميلا، وقال أبو عبيد البكري قبر مضر بن نزار بالروحاء على ليلتين من المدينة بينهما أحد، وأربعون ميلاً.

قال الزين الحنبلي، والجمع بين ذلك أن الروحاء اسم للوادي، وفي أثنائه منزل الحاج.

قال ابن الكلبي لما رجع تبع من قتال أهل المدينة نزل بالروحاء، وأقام بها، وأراح فسماها الروحاء.

وسأل كثير لم سميت الروحاء قال لانفراجها وروحها يقال بقعة روحاء طيبة أي ذات راحة.

ورُوي أن النبي (ﷺ) قال: «هذا واد من أودية الجنة».

يعني الروحاء وإن اسمه/ ٢٠٠/ سجاسج، والسجسج الهواء الذي لا حر فيه، ولا برد.

وإن موسى بن عمران مر بالروحاء في سبعين ألفا وإنه صلى بذلك الوادي سبعون نبياً.

قال الأسدي بالروحاء آثار الرسول (ﷺ) وآبار كثيرة.

وأنشد الزين الحنبلي لابن الرضية:

إذا أغرورقت عيناي قال صحابتي	لقد أولعت عيناك بالهملانِ
ألا فاحملاني بارك الله فيكما	إلى حاضر الروحاء، ثم دعاني

قال الزين الحنبلي وأعراب الورحاء بنو سالم فيقال لها وادي بني سالم قال، وكانوا يتلصصون كثيراً فقال فيهم الصلاح:

نظـــرت في وادي بنـــي ســـالم لكـــل لـــص ظـــالم غاشـــم
يسرق كحـــل العـــين مـــن جفنهـــا بجـــرأة مـــن مقلـــة النـــائم
كـــم عاطـــب منـــه وكـــم هالـــك وهـــو مضـــاف لبنـــي ســـالم

وأومأ لمثل هذا صاحب الرجز أيضاً فقال:

إيـــاك مـــن خيـــف بنـــي ســـالم إنْ أتيتـــه مـــن حـــبلص لا تطمـــئنْ
وكـــن لـــه ضـــارب بالحســـام تـــراه كالعفريـــت في الظـــلام

ونزلنا شرف الروحاء في أرض فيحاء وشرف الروحاء هو المعروف اليوم بقبور الشهداء.

وقد ذكر بعض الناس أن الشهداء الذين يسمى بهم المكان هم قوم قتلوا هنالك ظلما.

وذكر السيد أن بهذا الموضع مسجداً من مساجده (ﷺ) وهناك موضع محوط يزوره الناس فلا يبعد أن يكون هو ذاك.

وفي شرف الروحاء آثار آبار معطلة وبنيان داثر، وقد كانت في القديم هناك قرية، ولم يبق بها الآن شيء من ذلك.

وارتحلنا من هناك فنشطت الإبل في المسير وشرعت تسرع بلا حَادٍ، وتسير فتعجبت من نشاطها الذي صير كل رحل منها سالم، وتذكرت قول الإمام أبي سالم:

خليـــلي مـــا للعـــيس في ســـيرها تعـــدو ومن قَبْلُ أعيت من يسوق، ومـن يحـدو
أظـــن لهـــا علـــما يقينـــا بأنهـــا لقـــبر رســـول الله قـــد أصـــبحت تغـــدو
لـــذلك لم تجـــزع لحـــر أصـــابها كـــما جزعـــت بـــالأمس إذ مسـها الجهـدُ
فـــلا تعجبـــوا مـــن علمهـــا باقترابهـــا ولـــيس لهـــا بالـــدار مـــن نقبـــل ذا

ففضـل رسـول الله في الكـون ظـاهر أقـرت بـه العجـماء، والحجـر الصـلدُ

وأنـوار أرض حلهـا قـد تـلألأت أحسـت بها الأبصار، والعظم، والجلدُ

دنـت فـدنت أعلامهـا فبـدا لنـا من الشوق في الأحشاء ما لم يكـن يبدو

عليهـا مـن الـرحمن أزكـى تحيـة تـدوم دوامـا مـا لآخـره حَـدُّ

تكـاد مـن الأشـواق أرواحنـا لهـا تطـير، ولم تجـزع وإن نالهـا كَـدُّ

ولـولا الـذي قـد عاقهـا مـن جسومنا لطـارت ولكـن الجسـوم لهـا قَيـدُ

وكنـا نظـن القـرب يـذهب بعـض مـا بهـا فـإذا بـالقرب زاد لهـا الوجـدُ

ولم لا، وأي الوصـل محكـم ذكرهـا غـدا ناسـخاً مـا كـان يقـرؤه البعـدُ

أبـاح لنـا الـرحمن فيهـا إقامـة بخـير إلى أن يحـوي الجسـد للجـد

بجـاه حبيـب الله أفضـل مـن بـه توسـل مـن لم يغثـه الجـد، والجـد

عليـه صـلاة الله مـا دام وصـله يزيـد شـوقي إذا ذكـرت نجـد

وسرنـا في ليلـة معتدلـة الهـواء قاصـدين طيبـة ورافضـين جميـع الأهـواء فلاحـت لنـا أنوارها مع الفجر وغلبت ضوء الشمس بعدما فجر على الآفاق أي فجر.

ووردنا آبار علي ذات الجـوار السامي، والقـدر عـلي، وألفينا وادي العقيـق كـالبحر فائض وجمحت خيول الأشواق فلم يرضها رائض وسكن الشوق المبرح لما لاحـت لنـا أعلام طيبة من جبل مفرح فأخذت أترنم بقول أبي سالم في تلك المعالم:

يـا صـاحبي نلـت المنـى فاسـتبشر ودنـوت مـن دار الرسـول الأطهـرْ

وبـدت معـالم طيبـة لـك فاسـتمع أوصـافها مـن صـادق لـك مخـبرْ

هـذا مفـرج كاسـمه وكأنـه ياقوتـة رشـت بـذائب عنـبرْ

وأمامـه البيـداء يسـطع نورهـا لبصـائر الـزوار هـل مـن مبصرْ

وعـلى يمينـك قـد بـدا عـير يـرى بـالقرب كـالثور العقـير الأعفـرْ

وأنـــخ ركابـــك بـــالمعرس إنـــه ... لمبـــارك وبهائـــه فتطهـــرْ

واحـــد الركـــاب مـــع العقيـــق منعما ... عينيـــك في ذاك المكـــان النـــيرْ

فكـــأنها هـــو حلـــة مـــن عسجد ... صـــبغت جوانبهـــا بمســـك أذفـــرْ

وإذا أتيـــــت لحـــــرة عربيـــــة ... وعلـوت غاربهـا علـو مشمرْ/ ٢٠٢/

ودنـــا النقـــى وبـــد المصـــلى فـــاغتبط ... بـــالقرب مـــن أصـــل المفـــاخر، وأفخـــرْ

واتـــرك قبـــاء مـــن يمينـــك واجعلـــن ... ســـلعا فـــديتك في الجنـــاب الأيسرْ

واصـــمد تجاهـــك يعترضـــك تهنـــأ ... بطحـــان دون مناخـــة، والعـــنصرْ

مـــا بعـــد ذا إلا الـــدخول لطيبـــة ... بســـكينة تمشي بـــدون تكـــبرْ

يهـــديك للحـــرم المكـــين شـــذاه مـــن ... بـــاب الســـلام ادخلـــه دون تصـــبرْ

وعـــن الصـــلاة عـــلى النبـــي مسـلما ... مهـــما قربـــت بـــداره لا تفـــترْ

واعلـــم بأنـــك إن وقفـــت مصـــليا ... مـــا بـــين روضـــة ســـيدي، والمنـــبرْ

في روضـــة مـــن جنـــة متقلبـــاً ... هـــي أرضـــها في طـــاهر ومطهـــرْ

تغشـــاك مـــن رحمـــات وبـــك نفحـــة ... تحظـــى بهـــا دنيـــا ويـــوم المـــحشرْ

فلأنـــت بيـــنهما يقينـــا واقـــف ... مـــا بـــين جنـــة عدنـــه، والكـــوثرْ

فـــإذا وقفـــت أمـــام وجـــه نبيـــه ... حيـــاك بالرضـــوان منـــه الأكـــبرْ

فهنـــاك تســـتجلي البصـــيرة إن صـــفت ... أصـــل الجـــمال بـــدا بـــأعظم ظهـــرْ

فـــترى العـــوالم كلهـــا بجمالهـــا ... وجلالهـــا حضرت بأقـــدس محضرْ

أصـــل الوجـــود ومنبـــع الجـــود الـــذي ... عـــم المظـــاهر في جميـــع الأعصرْ

نـــور الإلـــه بـــه استـــنار عبـــاده ... دنيـــا، وأخـــرى ذي المحيـــا الأزهـــرْ

محمـــود كـــل الخلـــق أحمـــد حامـــد ... محمـــد بمقـــام حمـــد أشـــهرْ

صلى عليه الله خير صلاته والآل، والأصحاب أكرم معشرْ

ولما لاحت القباب وقرب الباب وآن الوصال واستولى على الشوق وصال طفقت أنشد، وأنادي كل مشوق، وأرشد:

أيها المغرم المشوق هنيئاً ما أنالك من لذيذ التلاقي

قُل لعينيك تهملان سروراً طالما أسعداك يوم الفراقِ

واجمعِ الوجدَ، والسرور ابتهاجاً وجميع الأشجان، والأشواقِ

وَمُرِ العَيْنَ أن تفيض انهمالاً وتوالى بدمعها المهراقِ

هذه دارهم، وأنت محب ما احتباس الدموع في الآماقِ

وكلما لاحت لنا تلك الأنوار ملنا عن الأكوار وثملنا عن عرف تلك النجود، والأغوار، وتخلينا عن الأغيار، وتحلينا بِحُلا الأخيار وكيف لا وطيبة مركز الأدوار:

إذا لم تطب في طيبة عند طيب به طيب طابت فأين تطيبُ/ ٢٠٣/

وإن لم يجب في أرضها ربنا الدعا ففي أي أرض للدعاء يجيبُ

أيا ساكني أكناف طيبة كلكم إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ

ولما حللنا أمام الباب تذكرنا ما قاله كما الدين ناظر قوص من اللباب لذوي الألباب:

أَنِخ هذه، والحمدُ لله يثرب فبشراك قد نلت الذي كنت تطلبْ

فعفر بهذا الترب وجهك إنه أحق به من كل طيب، وأطيبْ

وقبل ربوعها حولها قد تشرفت بمن جاورت، والشيء بالشيء يحببْ

وسكن فؤاداً لم يزل باشتياقه إليها على جمر الغضات تلهبْ

ثم تأهبنا لدخول المدينة، وقد ثقل الشوق بديون الأشواق مدينة حتى غاب في بحار الأنوار لما تبسمت الروضة المشرفة عن يانع الأزهار وزاهر الأنوار.

ذكر دخولنا لمدينة الرسول التي هي غاية المنى، والسؤال (ﷺ) على ساكنها وشرف جميع نواحيها وساكنيها

ثم دخلنا المدينة، والأشواق تتجدد، والأفراح تجتمع، والأتراح تتبدد، وأصبحنا فيها مع الصباح، وأشرقت أنوارها ففضحت إشراق الوجوه الصباح وبادرت لدخول الحرم لأكرع من مناهل الفضل، والكرم وقصدت مواجهة الرسول، وأعراني ما يعتري الموصول من ذهول الوصول، والفوز بالبغية، والسؤال وفاضت العيون بمدامع السرور فيضان العيون:

هذه روضة الرسول فدعني ... أبذل الدمع في الصعيد السعيد

لا تلمني على انسكاب دموعي ... إنما صنتها لهذا الصعيد

وكنت عندما أشرفت على الروضة المباركة، وتبدت لي معالم طيبة التي ليس بمزاحمة في شرفها، ولا مشاركة قلت قصيدة بديعة أحرزت بداعتها عجيب الأجب وبديعة فاقت بممدوحها القصائد وسحت بوارح نظمها العجيب فأعزت فكر كل صائد، وكانت طويلة تنيف على مائة وعشرين بيتاً كم أحيت بلاغتها ميتاً، وأولها:

يا مُقلتي هذا المقام الأكبر ... والروضة الغناء فيها المنبرُ/ ٢٠٤/

والمسجد الأسمى الذي محرابه ... أبداً على الأكوان طُراً يفخرُ

هذي مرابع طيبة الغراء التي ... من طيبها طاب الشذى، والعنبرُ

هذا البقيع وذاك أشرف بقعة ... الآل، والأصحاب فيها قبروا

هذا النخيل، وتلك دار المصطفى ... أفلا ترى الأنوار فيها تظهرُ

هذا المكان الأعظم الأسمى الذي ... قد كان فيه المصطفى يتقررُ

هذا وحق الله أشرف منزل ... قد كان جبريل له يتكررُ

هـذا الرسول الطاهر الأخلاق، والأ عـلاق، والأعـراق، وهـو الأطهـرُ

هـذا الـذي جمـع المحاسـن كلهـا فالحسـن فيـه كامـل لا يشـطرُ

هـذا الـذي من شعره اسودَّ الـدجى وابـيضَّ مـن مـرآه فجـر نـيرُ

هـذا الـذي مـن وجنيتـه جنـة الـورد النـدي، ومـن لمـاه الكـوثرُ

هـذا الأزج الأدعـجُ الطـرف الكحيـل الأبـيض اللـون الأغـر الأزهـرُ

هـذا سيل الخـد أقنـى الأنـف أزهـى القـد يحكيـه القضـيب الأزهـرُ

هـذا الـذي حـاكى العقيـق شـفاهه إذ صـار يحكـي ثغـر منـه الجـوهرُ

هذا أجل الخلـق سبط الخلـق طلـق الخـ لـق لـيس لـه نظـير ينظـرُ

هـذا الـذي قـد أشرقـت مـن نـوره أنـوار هـذا الكـون فهـو العنصرُ

هـذا الـذي خرقـت لـه العـادات في كـم معجـزات مـا رآهـا المبصرُ

هـذا الـذي بانـت لمولـده علامـا تٌ وآيـات عظـام تبهـرُ

هـذا الـذي قـد أخمـدت أنـواره أنـوار فـارس بـئس تلـك الأنـورُ

هـذا الـذي إيـوانُ كسرى لم يـزل مـذ بـان نـور المصطفى يـتكسرُ

ومنها:

هـذا الـذي قـد رد عـين قتـادة بعـد العمـى فغـدت سريعـاً تـبصرُ

هـذا الـذي قـد أثنـى عليـه الله في التنـز يـل في كـم آيـة لا تنكـرُ

هـذا الـذي قـد أنزلـت في شـأنه شـانيك بـين النـاس هـو الأبـترُ

هـذا الـذي ردت لـه شـمس الضـحى بعـد المغيـب وشـوق بـدر أنـور

هـذا الـذي قـد جـاءه ضَـبٌّ الفـلا مـتكلما وكـذا الغـزال الأعفـرُ

هـذا الـذي نطـق الـذراع لـه بـما قـد ضـمَّ مـن سُـمِّ اليهـود يخـبرُ

هـذا الـذي في كفه قـد سـبحت ... صم الحجـارة نعـم تلـك الأحجـرُ

هـذا الـذي قـد أشبع الجيش العرمـرم ... مـن صـواع بـل صـواع أكثـرُ/ ٢٠٥/

هـذا الـذي روى الخميس بصـاع مـا ... ءٍ فـارتوى إذا أشـبعته الأثمـرُ

ومنها بعد فصل طويل من معجزاته التي لا يحصرها التطويل:

الله أكـبر لم لهـذا المصطفى ... مـن معجـزات حـدها لا يحصرُ

مـن ذا يحـد الشـهب في أفـق السـما ... مـن ذا يعـد القطـر مهـما يقطـرُ

مـن ذا يحـد النبـت ويحصي الحصـا ... هيهـات هـذا الأمـر لا يتصـورُ

فتنعمـي يـا مقلتـي، وتنزهـي ... هـذا الـذي قـد كنـت قـد مـا تنظـرُ

ومنها:

وابكـي إذا مـا شـئت، أو فلتضـحكي ... فالكـل يحمـد، والمشـوق محـررُ

ومنها:

إذ عـادة المشـتاق يبكـي دائـماً ... إن ينعمـوا بالوصـل إذ أن يهجـروا

فـإذا دنـوا يبكـي مخافـات النـوى ... وإذا نـأوا شـوقاً لهـم يسـتعبرُ

وكثيراً ما كنت أشتهي إنشاد القصائد المشار فيها إلى تلك الأماكن، وأحب أن أنخرط في سلك من حضر في تلك المساكن وشاد محاسنها، وأخذ يمدح المسكن، والساكن، وأردد ما يشتمل على ذلك.

كقول العلامة الرحالة البارع خالد البلوي لما حل هنالك:

الله أكـبر حبـذا أكبـاره ... لاح الهـدى وبـدت لنـا أنـوارهْ

لاحـت معـالم يثـرب وربوعهـا ... مـأوى الحبيـب وداره مـزارهْ

هـذا النخيـل وطيبـة ومحمـد ... خـير الـورى طُـراً وهـا أنـا جـارهْ

هـذا المصلى، والبقيـع وههنـا ... ربـع الحبيـب، وهـذه آثـارهْ

هــــذي منازلــــه المقدســــة التـــي ... جبريـــــل ردد بينهـــــا تكـــــرارهْ

هــذي مواضــع مهـبط الــوحي الــذي ... تشـفي الصـدور مـن العمـى أسـطارهْ

هــذه مواضــع خــير مــن وطــي الثــر ... ى وعــلا عــلى السـبع العـلى اسـتقرارهْ

مــــلأ الوجـــود حقيقـــة إشراقهـــا ... فأضـــــاء منـــــه ليلـــــه ونهـــــارهْ

والروضـــة الفيحـــاء هـــب نســـيمها ... والبـــان بـــان ونـــم منـــه عـــرارهْ

وتعطـــرت ســـلع فســـل عـــن طيبهـــا ... لم لا تطيـــــب وحولهـــــا مختـــــارهْ

بُشْراكَ يـــا قلبـــي فقـــد نلـــت المنـــى ... وبلغـــت مـــا تهـــوى، ومـــا تختـــارهْ

قـــد أمكـــن الوصـــل الـــذي أملتـــه ... وكـــــذاك حتـــــى أمكنـــــت أسرارهْ

قـــد كـــان عنـــدي لوعـــة قبـــل اللقـــا ... فـــالآن ضـــاعف لـــوعتي أبصـــارهْ

رفقـــا قلـــيلاً يـــا دمـــوعي أقصري ... فالـدمع يحـن في الهـوى إقصـارهْ/ ٢٠٦/

قـــد كانـــت الـــدمن الكريمـــة في غنـــى ... عـــن أء يفـــيض بتربهـــا تيـــارهْ

أيضـيع مـن زار الحبيـب، وقـد درى ... أن المـــــــــــزور بيالـــــــــــه زوارهْ

أيخيـب مـن قصـد الكـريم وعنـده ... حســـن الرجـــاء شـــعاره ودثـــارهْ

أيـــؤم بابـــك مســـتقيل عـــامر ... فـــيرد عنـــك، ولا يُقـــال عثـــارهْ

حاشـــا وكـــلا أن تخيـــب آمـــلا ... فيعـــود صـــفراء خيبـــت أســـفارهْ

يـــا ســـيد الأرســـال ظهـــري مثقـــل ... فعســـى تخفـــف بجاهـــك أوقـــارهْ

رحمـــاك فـــيمن أوبقتـــه ذنوبـــه ... فكـــــأنها إقبالـــــه إدبـــــارهْ

لـبس الصـغار، وقـد تعـاظم وزره ... والعفـــو تصـــغر عنـــده أوزارهْ

شـط المـزار، ولا مـزار وشـد مـا ... يلقـــى محـــب شـــط عنـــه مـــزارهْ

وافى حمـــاك يفـــر مـــن زلاتـــه ... وإليـــك يـــا خـــير الأنـــام فـــرارهْ

وأتـاك يلـتمس الشـفاعة، والرجـا يقتـــاده وظنونـــه أنصـــارهْ

والعبـد معـترف ذليـل خاضـع ومـقصر قــد طولــت أعـذارهْ

متوسـل قـد أغرقتـه دموعـه متنصـل قـد أحرقتـه أوطـارهْ

فامنن وسامح واعفُ واصفحْ واغتفر فلأنــت مَـاحٍ للخطـا غفـارهْ

صـلى عليـك الله مـا حيـا الحيـا روض الربـا، وترنمـت أطيـاره

وكما أنشد الإمام العلامة أحمد المقري في نفح الطيب لما فاح له من أعراف طيبة كل طيب:

أكـرم بعبـد نحـو طيبـة مسـيد متوسـل مستشـفع مسترشـدُ

يغـلي الفـلاة لهـا بعـزم أيـد وافى إلى قـبر النبـي محمـد

ولقــبره الأسـمى يـروح ويغتـدي

إذ جـاءه صـادقٌ حبـه المـتمكن وحـداهُ سـائق عزمـه المتعـينِ

فحكـى لـذى شجو حمام الأغصـن هزجـا يـردد فيـه صـوت ملحـنِ

ويمـد للإطـراب صـوت المنشـد

ويقـول جئـت بعزمـة نزاعـة ونهضـت، والـدنيا تمـر كسـاعةْ

لمحـل أحمـد قـائلاً بإذاعـة هـذا الرسـول المرتجـى لشـفاعةْ

يـوم القيامـة بـين ذاك المشـهد/ ٢٠٧/

هـذا الـرؤوف بجـاره ونزيلـه هـذا سراج الله في تنزيلـه

هـذا الـذي لا ريـب في تفضـيله هـذا حبيـب الله وابـن خليلـه

هـذا ابـن بـاني البيـت أول مسـجد

هـذا الـذي اصـطفت النبـوة خيمـه هـذا الـذي اعتـام الهـدى تقديمـه

هـذا الـذي نسـقي غـدا تسـنيمه   هـذا الـذي جبريـل كـان خديمـه

في حضرة التشريـف أزكـى مصـعد

هـذا الـذي شـهد الوجـود بخصـه   بمزيـة التفضـيل مـن مختصـبه

وأبانـه مـن وحيـه في نصـبه   هـذا الـذي ارتفـع الـبراق بشخصـه

في ليلـة الإسراء أشر فمهتـد

هـذا الـذي غـدت الطلـول حديقـة   بجـواره وبـدت تبـين أنيقـة

هـذا المكمـل خلقـة وخليقـة   هـذا الـذي سـمح النـدا حقيقـة

ودنـا، ولم يـك قبـل ذاك بمبعـد

فهنـاك كـم رسـل بـه تتوسـل   وعـلى حمـاه لـدى المعـاد تعـولُ

يـا أرحـم الرحمـاء أنـت المؤئـل   يـا سـيد الإرسـال أنـت الأولُ

فـترق في أعـلا المكـارم واصـعد

الله رفـع في سراه منـاره   وأبـان في السـبع العـلا أنـواره

فقفـت ملائكـة السـما آثـاره   وأراه جنتـه هنـاك ونـاره

بمزيـد وخلـد المخلـد

ومنها:

لمـا أتيـت لراملـة أصـل الثرا   مـن بعـد قصـدي مكـة أم القـرى

أنشـدت قصـداً فيـه أنثـر جـوهرا   وإليكهـا يـا خـير مـن وطـئ الثـرى

عـذراء تـزري بالعـذارى الخـرد

كـل الحسـان لحسـنها قـد أدهشـا   مـا مثلهـا في زيهـا شـاد نشـا

سـفرت بعـزم مـا جـد، وأطيشـا   نشـأت بطـي القلـب وارتـوت الحشـا

زهـــراء مـــن يرهـــا يهـــل وينجـــد

أمتـك تشـاي في مـداها الألسـنا وتـرى إسـاءتها المجيـد الحسـنا

تعـدو، ولا تنثـى العنـا عـن الثنـا وأتتـك تمـرح كالقضـيب إذا انثنـا

مترنحـا بـين الغصـون الميـد/ ٢٠٨/

قـد أعلمـت في المـدح ثاقـب ذهنهـا ترجـو الحلـول لـذي قـرارة أمنهـا

وعسـى إذا عـذبت بتربـة عـدنها يجلـو لـك الإحسـان بـارع حسـنها

ولا حســن يجلوهــا وإن لم تنشــد

مـدحي لخـير العـالمين عقيـدتي ومطيتـي بـل طيتـي ونشـيرتي

ونتيجتـي وهـدى اليقـين مفيـدتي ولـئن مـدحت محمـداً بقصـيدة

فلقــد مــدحت قصــيدة بمحمــد

أدعـوك يـا مـولاي دعـوة حـائر يشـكو إليـك صروف دهـر جـائر

والله يعلــم في هــواك سراري وهـو الـذي أرجـو لعفـو جرائـري

متوســلاً بجنابــك المتأصــد

لـولا حقـوق عينـت بمغـارب لمكثـت عنـدك كـي تـاح مـآربي

ويكـون في الزرقـاء عـذب مشـاربي حتـى أحـل مـن نـداك ترائبـي

وأنــال دفنــا في بقيــع الغرقــد

وعايــك م رب حبــاك صــلاته وســلامة وهباتــه وصــلاته

مـا أم بابـك مـن رمتـه فلاتـه لعـلاك حتـى زحرحـت علاتـه

أتـيح حســن الخــتم دون تــردد

وكما أنشد أيضاً:

وقـد فاضـت عليـه أنـوار الروضـة المشرفـة فيضـاً

مـر النسـيم بمربعـه فتلـذذا حتـى كَـأنَّ النشـر صـار لـه غـذا

فصحـا وصـح وصـاح لا أشـكو أذى قـل للصـبا مـاذا حملـت مـن الشـذا

أمسسـت طيبـاً أم عـلاك عبـير

يـا أيهـا الحـادي الـذي مـن وسـمه قصـد الحبيـب وإن يلـم برسـمه

هـذي منازلـه فزمـزم باسـمه بـأبي الـذي لم تـزو زهـرة جسـمه

لكنـه غصـن الجـمال نضـير

لله شـوق قـد تجـاوز حـده أوفى عـلى الصـبر الجميـل فهـده

يـا ناشـق الكـافور لا تتعـده طـوبى لمشـتاق يعفـر خـده

في روضـة الهـادي إليـه يشـير

فهنـاك يبـذل في التوسـل وسـعه ويصـيح نحـو خطيـب طيبـه سـمعه

ويريـق فـوق حصى المصـلى دمعـه ويـرى معـالم مـن يحب وربعه/ ٢٠٩/

ومحمـد للعـالمين بشـير

صـلى عليـه الله خـير صـلاته وحبـا معاليـه جليـل صـلاته

مـا مـر ذو الأشـواق في جولاتـه وأتـى مغانيـه عـلى علاتـه

فـأتي حسـن الختـم، وهـو قريـر

فأميل إلى مثل هذا الإنشاد، وأشتهي أن أسمع من شذا في مثل هذه الإشارات وشاد حتى مَنَّ الله علي ونظر بعين رحمته إلي ووصلت إلى تلك النواحي التي طال بكائي لأجلها ونـواحي وشاهدت هاتيك المشاهد التي نعم بأنوارها الخاصة كل مشاهد ووجدت ما وجدوه من الوجد لما حلوا في أكناف نجد فأنشأت هاتيك القصيدة البديعة الإنشاء البليغة المنازع بلا منازع بشهادة الاستنشاء فجاريتهم فيما سلكوه من تلك

المسالك وزدت عليهم من المعاني في أوصاف تلك المغاني أضعاف ذلك ووجدت مكان القول ذا سعة وجلبت المعاني الشاسعة في ميادين البلاغة الواسعة فرميت بالحسد من الأقدار وغالتها يد السارق مع غيرها من وجوه الفوائد التي لم تعرف لها بمقدار، ولا أن كنت أنشدتها بين يدي الرسول وبلغت منها غاية المنى، والسؤال لمت حنقا عليها وخرجت روحي شوقاً إليها لكن داوى هذا المرض ما كان وقع من حصول الغرض.

ومع ذلك ما أسفت على شيء مما ضاع أسفي على أدبها الذي فاح نشره على الأقطار وضاع.

وهذه القصيدة هي المعنية بتمني الرد بقولي في الخطبة فيا ليته لورد، وهي التي سألني عنها بعض الأصحاب فأنشدته مرتجلاً و الدموع كالسحاب:

ألا في سبيل الله ضاعت قصيدتي وإن كان خير الخلق أبدى قبولها

فيا ليت شعري هل ترد لفكرتي واعلم منها شعبها وقبيلها

تقبلها الله تعالى وإن ضاعت مني ورضي بها بفضله وكرمه عني آمين وبادرت من المواجهة إلى إيقاع الصلاة في روضة الجنة لأجعلها سترة لي من النار وجنة.

ثم أخذت أتنصل من مآثمي العظام التي أقوت القوة، وأوهن العظام، وأخاطب الرسول عليه السلام، وأقول سل لعبدك السلامة إذا تجلى للقضاء السلام، وأنشد دون ملام:/ ٢١٠/

يا من به طيبة طابت حُلاً وَعُلاً ومن بتشريف قد شرف العربُ

يا أحمد المصطفى قد جئت من بلد قاض ولي خلد قاس ولي أربُ

ومذ دهتني ذنوب قلت إذا عظمت لله منها وطه المصطفى الهربُ

وأنشد قول من وقف بين يديه وحط آمال الرجاء لديه:

يا شفيع العصاة أنت رجائي كيف يخشى الرجاء عندك خيبةْ

وإذا كنت حاضرا بفؤادي غيبة الجسم عنك ليست بغيبةْ

لــيس بــالعيش في الــبلاد انتفــاع   أنفــع العــيش مــا يكــون بطيبــةْ

وكيف لا ينتفع بالعيش من حل حول الرسول، وهو قد حصل على المنى، والسوال

إذا كنــت جــاراً للنبــي وصــحبه   ومكــة بيــت الله منــي عــلى قُــربِ

فــما ضرني أن فــاتني غــد عيشــة   وحبــي الــذي أوتيتــه نعمــة حســبي

وطاب بطيبة وظفر العيبة وحمد السرى وطول الغيبة، وتمتع في مسجد الرسول عليه السلام، وتبختر في روضة من رياض دار السلام.

ابن الأعربي:

يــا حبــذا المسجد مــن مسجد   وحبــذا الروضــة مــن مشــهدِ

وحبــذا طيبــة مــن بلــد   فيهــا ضريــح المصــطفى أحمــدِ

صــلى عليــه الله مــن ســيد   لــولاه لم نفلــح، ولم نهتــدِ

قــد قــرن الله بــه ذكــره   أعلــن بالنــادي، وفي المســجدِ

فهــذه عشرون مقرونــة   بأفضــل الــذكر إلى الموعــدِ

أستنشق من أعرافها كل شذى، وتضاعف من طيبها طيب العنبر، والشذا.

قال ابن بطال رحمه الله من سكن طيبة يجد من تربتها وحيطانها رائحة حسنة بل هو من عجب الأعاجيب.

وقال ياقوت من خصائصها: طيب ريحها وللعطر فيها رائحة لا توجد في غيرها.

وما أحسن قول أبي عبد الله العطار في عرفها المعطار:

بطيــب رســول الله طــاب نســيمها   فما المسك ما الكافور ما المندل الرطب

الشهاب:

طبنــا بطيبــة في الثــرى وبــدا لنــا   عنــد العبــير عبيرهــا الفيــاحُ

بــل بــه حــرم عليــه جلالــة   للعفــو في أبوابــه مفتــاحُ/ ٢١١/

وقد أطنب السيد السمهودي (ﷺ) في تعداد فضائلها، وأسمائها وذكر من أسمائها ما ينيف على الخمسين اسماً وكذلك صاحب نزهة العيون غير أن شهرتها بالفضل كافية، والعبارة بمعشار عشر ذلك غير وافية.

ومما يستدل به على أفضليتها على مكة، وتقوية ما أشرنا إليه هنالك ما خرجه الحاكم في مستدركه مرفوعا: «**اللهم إنك أخرجتني من أحب البقاع إلي فاسكني في أحب البقاع إليك**».

وروى الطبراني في الكبير، والمفضل الجندي في فضائل المدينة وغيرها عن رافع بن خديج قال سمعت، وفي رواية أشهد لسمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «**المدينة خير من مكة**».

وقد عقد السيد السمهودي لخصائصها فصلاً سرد فيه أزيد من مائة خاصية أرجحها كون النبي (ﷺ)، وأبي بكر وعمر أكثر الصحابة مخلوقين من طينتها واشتمالها على البقعة المتفق على تفضيلها حتى على العرش.

وكنت ألزم الصلاة في المسجد النبوي بل كنت لا أخرج منه في الغالب إلا لقضاء حاجة وإذا فرغت من الصلاة ألزم السلام عليه، والصلاة، وأكثر من ذلك واستشعر قول الشهاب هنالك:

صَاحِ إن جئتَ طيبة، وتبدت ... من قباها رؤوس تلك القُبابِ
صل فيها على النبي وسلم ... عدد الرمل، والحصا، والترابِ

وقوله:

يا قائمين إلى الصلاة بطيبة ... نلتم مقاما بالنبي عظيما
فإذا جلستم في التشهد حوله ... صلوا عليه وسلموا تسليما

وخرجنا عشية لزيارة بقيع الغرقد، والاستضاءة بأنوار ساكنيه المزرية بإضاءة الفرقد، وتمثلت عندما أشرفت عليه، والقلب في التهاب ما قاله فيه الشهاب:

سقى بقعة فيها البقيع سحائب إذا أقلعت القد دموع المراسيا

منازل لو مرت بهن جنازة لقال الصدا ما صحبي انزلاليا

على أنني لو مت فيها صبابة أعيد بها روحي إلي كما هيا

وإذا خرجت إلى البقيع فأول ما يلقاك فيه إذا خرجت على باب المدينة المسمى بباب البقيع قبة فيها صفية بنت عبد المطلب على يسارك، وأنت ذاهب في الزقاق الذي وسط البقيع إلى ناحية المشرق وإن ملت إلى اليمين مع سور المدينة فهناك مسجد صغير قيل إن فيه موقف النبي (ﷺ)/ ٢١٢/ حين خرج ليستغفر لأهل البقيع.

وقيل هو زاوية عقيل بن أبي طالب التي دفن فيها وفيها دفن كثير من أهل البيت.

روى خالد بن عوسجة قال كنت أدعو ليلة إلى زاوية دار عقيل فمر بي جعفر بن محمد فقال لي أعن أمر وقفت هنا قلت لا قال هذا موقف نبي الله بالليل إذ خرج يستغفر لأهل البقيع.

قال المراغي، وقد أخبرني غير واحد أن الدعاء هناك مستجاب فإذا مررت كذلك تحت سور المدينة يميناً إلى أن توازي قريباً من زاوية سور المينة الذي فيه مشهد السيد إسماعيل فهناك على يسار القبة الماثلة في الهواء.

وفيها مشهد العباس ومشهد الحسن بن علي ومشهد أمه رضي الله عنهم على المشهور.

ومشهد زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وكثير من أهل البيت رضي الله عنهم وعليهم درابيزها هائلة حسنة بديعة النقش، والصنعة.

ذكر الزين الحنبلي إن باني هذه القبة العظيمة هو الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء، ولما دخلنا هذه الروضة وقفنا أمام العباس نستدفع ببركته كل بأس ونستسقي بجاهه غيث الرحمة إذ به كان يستسقي للناس:

زُرْ بعد خير الرسول تربة عمه واشن الدعاء به على العباسِ

واستسقَ سحب دموع عينك حوله فلطالما استسقى به للناسِ

ومثله قول الآخر:

تيممْ إذا وافيت طيبة تربة يطيب بها عند العبور عبيرها

وإن زرت عم المصطفى في بقيعها تجد تربة العباس يبسم نورها

ثم التفتنا إلى مشهد الإمام الحسن وسألنا من الله بجاهه أن يمن علينا بالختم الحسن واستنشقنا طيب تلك الريحانة التي فاقت الرياحين وغمرتنا، والحمد لله بركاتها الظاهرة في الحين:

حوى الحسن بن فاطمة ضريح به ريحانة أبداً تضوعُ

فلا تعجب لقولي حين أدعو أمن ريحانة الداعي السميعُ

وتوجهنا لمشهد السيدة فاطمة التي أمست محبتها لكل محب عن الشهوات فاطمة وسألنا بجاهها العيشة الراضية، والحالة الناعمة، وأقبلنا على كل من شملته بإخلاص النية في بلوغ الأمنية.

ثم توجهنا لزيارة المشاهد/ ٢١٣/ التي بين هذه القبة وزاوية دار عقيل فزرنا مشهد أمهات المؤمنين كلهن ما عدا خديجة فإنها بمكة.

وميمونة فإنها بسرف كما سبق وزرنا المشهد المنسوب لعقيل بن أبي طالب (رضي الله عنه) وسألنا الله فيه أن يكمل لنا في كل ما سألناه منه وذكرت حوله قول الشهاب ابن أبي حجلة فيه موريا:

سألت فتاة في البنيع أهاهنا مزار عليه لوفاه دليل

فقالت لنا هذا وذاك كلاهما خليلاً صفا ومالك وعقيل

قيل: وفي مشهد عقيل قبر النبي عمه أبي سفيان بن الحارث.

روي أن عقيل بن أبي طالب رأى أبا سفيان بن الحارث يجول بين المقابر فقال يا ابن عمي مالي أراك هنا قال اطلب موضع قبر فأدخله داره، وأمر بقبر فحفر في قاعتها فقعد

عليه أبو سفيان ساعة، ثم انصرف فلم يلبث غلا يومين حتى توفي ودفن فيه وزرنا المشهد المنسوب لبنات النبي (ﷺ) ما عدا فاطمة.

وزرنا مشهد سيدنا إبراهيم بن النبي (ﷺ) وفيه قبره وقبر عثمان بن مظعون (ﷺ).

وقد جاء في الحديث: «أن أول من دفنه رسول الله (ﷺ) بالبقيع عثمان بن مظعون».

فلما توفي ابنه إبراهيم قالوا يا رسول الله أين نحفر له قال: «عند فرطنا عثمان بن مظعون».

وفي الحديث ما يدل على أن بنات النبي (ﷺ) هنالك أيضاً كما في الطبراني وغيره.

وفي هذا المشهد قبر فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب (ﷺ) كما حققه السيد واستدل له بأحاديث.

وقال بعدها، وهذا صريح في مخالفة عليه الناس اليوم في المشهد المنسوب إليها.

قال أبو سالم، والمشهد المنسوب إليها اليوم في فم زقاق أقصى البقيع من شرقيه.

بل قال أهل التحقيق إنه ليس من البقيع البتة.

وفي هذا المشهد أيضاً قبر عبد الرحمن ابن عوف (ﷺ) وفيه أيضاً سعد بن أبي وقاص وفيه أيضاً قبر عبد الله بن مسعود وقبر خنيس بن حذافة، والسهمي زوج حفصة قبل النبي (ﷺ) وقبر سعد بن زرارة.

كما أيد ذلك كله السيد بأحاديث تدل على ثبوت تلك المقابر في هذا المشهد.

ثم قال بعد بسطه ذلك غاية البسط مؤيداً بأحاديث في غاية الصحة، والضبط فينبغي السلام على هؤلاء كلهم عند زيارة مشهد سيدنا إبراهيم.

ولذا قدمنا ذكرهم معه، وتخلط على أبي سالم/ ٢١٤/ فكان اعتراضه غير سالم وزرنا مشهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان (ﷺ) بموضع يسمى حش كوكب في أقصى البقيع من ناحية المشرق وعليه قبة عظيمة هائلة قريبة العهد بتجديد البناء.

وقد ذكر الزين الحنبلي أن الذي بنى تلك القبة هو أسامة بن سنان الصلاحي أحد أمراء الصلاح يوسف بن أيوب سنة إحدى وستمائة ومازالت تتجدد من ذلك الوقت

وامتثلنا قول من قال، وأخلص النصح في المقال:

زُرْ بالبقيع أمير المؤمنين تبت عند ابن أروى من الغفران ربانا
وقل لطرفك إن أجرى الدموع دنا الله أكبر يا ثارات عثمانا

وزرنا المشهد المنسوب لحليمة السعدية مرضعة النبي (ﷺ).

وزرنا مشهد الإمام مالك بن أنس (رضي الله عنه) إذا خرجت من باب البقيع كان مواجها لك على يمين زقاق البقيع الذي يشق وسطه وذكرت عنده قول الشهاب فيه موديا وملحاً:

سألتُ صديقي بالبقيع، وقد بدت به تربة يدعو بها كل سالكْ
أقبر عقيل ذلك القبر قال لا وحقك هذا كله قبر مالكْ

وزرنا القبة التي إلى جنبه المنسوبة لنافع مولى ابن عمر، وقيل نافع القاري، وقيل غير ذلك.

وزرنا المشهد المنسوب لفاطمة بنت أسد بأقصى البقيع، وقد مر عدم ارتضاء السيد لذلك، وقال عند ذكره لهذا المشهد الظاهر أنه مشهد سعد بن معاذ الأنصاري (رضي الله عنه).

وزرنا المشهد المنسوب لأبي سعيد الخدري (رضي الله عنه)، وقد أغفله السيد كما أغفل مشهد حليمة فليحرر ما موجب ذلك هل أحداث بنائهما بعده، أو عدم ثبوتهما عنده ورحنا من البقيع فصلينا المغرب، والعشاء في روضة الجنة، وتمت علينا الله المنة.

وأصبحنا من الغد مع طلوع الشمس في أُحد الجبل العظيم القدر المستضاء بمن حاليه من الشهداء استضاءة الأفق بالنجوم، والبدر فأول ما زرناه به مشهد حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى لله عليه وسلم ومعه في القبر عبد الله بن جحش، وهو ابن أخت حمزة ومعهما في القبر مصعب بن عمير، وهو الجاري على الألسنة في هذه الأزمان.

وقال السيد الصحيح أنه ليس معه أحد وإن مصعباً، وعبد الله دفنا/ ٢١٥/ بقربه فيسلم على الثلاثة في مشهد حمزة، والمشهد عليه قبة عالية متقنة وبابه مصفح بالحديد وحوله بناء متسع فيه بئر وفيه مواضع للوضوء متصلة بالسطح.

قال السيد، والقبر الذي عند رجل سيدنا حمزة، والذي بالصحن ليسا من قبور الشهداء.

وفي خارج المشهد بئر أخرى كبيرة وبإزائها صفعة مسجد، وتحته ما جل ماء يهبط إليه بدرج وباب المشهد في سائر الأيام مقفل لا يفتح إلى يوم الخميس غير الموسم يأتي القيم من المدينة بقصد فتحه وحوز صدقاته وزرنا القبور المنسوبة للشهداء بعد حمزة، وأماكنهم ليست معلومة العين على التحقيق لكنها معلومة الجهة:

فأما مصعب بن عمير، وعبد الله ابن جحش فيسلم عليهما مع حمزة كما تقدم.

وأما سُهيل بن قيس من بني سلمة فقبره دبر قبر حمزة شامياً بينه وبين الجبل.

وأما عمرو بن الجموح، وعبد الله ابن عمرو بن حرام ففي الموطأ أنهما في قبر واحد مما يلي السيل.

قال الواقدي ومع عمرو بن الجموح في القبر خارجة بن زيد وسعد بن الربيع، والنعمان ابن مالك، وعبد بن الحسحاس.

قال أبو غسان وقبورهم مما يلي المغرب من قبر حمزة نحو خمسمائة ذراع.

قال السيد وقد تأملته فوجدت ذلك بالربوة التي غربي المسيل الذي هناك ومجرى العين بقربهم من القبلة.

وقد رُوي أن أبا أيمن مولى عمرو بن الجموح معهم أيضاً وكذا خلاد بن عمرو ابن الجموح فيسلم على هؤلاء الثمانية هنالك.

قال: وأما بقية الشهداء فلا تعرف قبورهم، والذي يظهر أنها بة ب الموضع المذكور وقرب قبر حمزة رضي الله عن جميعهم.

وقد عد السيد أسماءهم كغيره من أهل السير، وتبركنا بجميع نواحي الجبل، وما فيه من المواضع معلومة وغيرها لأن فضل جبل أحد معلوم مشهور وميزته وشرفه مقرر بين الخاصة، والجمهور فقد قال من أبواب الجنة، وترابه يستشفي به ولذلك استثناه الزركشي من فضل تراب الحرام ولكنه قصر على حمزة لأن التداوي بتربته متداول مشهور بالشفاء من الصداع.

وقال السيد تربة صهيب أولى بذلك ومحل الشهداء الآن يعبر عنها أهل المدينة بالمعركة.

وزرنا هنالك المسجد المشهور بمسجد الثنية، ومن هنالك تيممنا الناحية قباء، والتبرك بآثارها ومساجدها/ ٢١٦/ قال أبو عبد الله الفيومي:

لله يوم في قبا قد مر بي | في جمع أحباب وبسط زائد
وتمتعت في روضة حداقنا | بحدائق تسقى بماء واحد

وأُبنا إلى المدينة المشرفة فجددنا الطهارة بالماء الفائض في نواحيها وكله من البئر المعروفة بالعين الزرقاء، وهي في حديقة قريبة من بئر أريس كثيرة المياه كبيرة جداً قد امتدت بمياه آبار متعددة منها بئر أريس فصارت متبحرة يشخب فيها ميزابان عظيمان من مياه غيرها من الآبار فاتخذت لها أسراب تحت الأرض إلى أن خرجت إلى بطحان، ثم إلى غربي المدينة فقسمت جداول فأدخل منها إلى المدينة ما احتيج إليه فظهرت داخل المدينة في مناهل متعددة.

وبُني لها بناء متقن يهبط إليها من نحو ثلاثين درجة محكمة البناء متقنة الوصف واسعة الممشى منها يسقي أهل المدينة كلهم لشربهم.

والذي رأيت منها ثلاثة مواضع أحدها شرقي المسجد بينه وبين باب البقيع في المكان المسمى الآن بالحرَّة.

والآخر خارج باب السلام في الناحية الغربية عند سوق المدينة بالبلاط.

والآخر شامي المسجد بعيد آمنة إلى ناحية باب الشامي.

وأما خارج المدينة فأخرجت في محال متعددة أيضاً لم تزل تقرب من وجه الأرض قليلاً كلما أغورت في أرض المدينة إلى أن خرجت على وجه الأرض قريباً من الغابة قريب شرقي مسجد رومة بينه وبين أحد وعليها هنالك مزارع.

وقد رأيت جدولاً منها قريباً من مسجد الراية في طرف ذباب يهبط إليه في نحو ثلاث درج، وهذه العين المباركة من أغزر العيون، وأحلاها ماء، وألذه بها جل انتفاع أهل المدينة.

ومنها كل السبيلات الموقوفة بها تحصى كثيرة فما أعظم بركتها، وأوسع نفعها، ولقد شاهدت من يستشفي بمائها فيشفى ولله در القائل:

لئن كان في زرق العيون شاملة   فعندي أن اليمن في عينها الزرقاء

ويا ما أحسن قول الشيخ أبي عبد الله الفيومي صورياً:

سُكّانُ طيبة يبلى الحسب صبكم   والشوق منه ليوم العرض في طول/ ٢١٧/

تالله لم يشبه المقياس روضتكم   ولا تسلى عن الزرقاء بالنيل

قال الإمام أبو سالم، وتسميتها الزرقاء من لحن العامة وصوابه عين الأزرق لأن مروان الذي أجرها لمعاوية كان أزرق العينين فلقب بالأزرق، وكان إجراؤه لهذه العين بأمر معاوية لما ولاه المدينة، وكان لمعاوية اهتمام بذلك فأجرى بالمدينة، وما حولها عيوناً كثيرة دثر كلها، ولم يبق إلا هذه العين المباركة، وقد اعتنى بشأنها من قبل السلطنة ولها أوقاف معلومة وجراية تأتي من السلطان ولها أمير معلوم، وله خدام يتفقد أحوالها على مر الأزمنة ويصلح ما وهى منها ولولا ذلك لدثرت كغيرها من العيون.

قال السيد، ومن الغرائب ما ذكره الميورقي في فضل الطائف عن شيخ الخدام بدر الشهاب أنه بلغه أن ميضأة وقعت في عين الأزرق بالطائف فخرجت بعين الأزرق في المدينة.

قال أبو سالم ولعل هذه الحكاية، وأمثالها هي السبب في اعتقاد كثير من جهلة الحجاج أن العين الزرقاء أصلها من مكة، وأنها هي التي جاءت إلى مكة من ناحية عفرة من جبال وراءه.

ويقولون أن لما هاجر النبي (ﷺ) من مكة تبعتهم فهي التي ظهرت بمر الظهران، ثم بخليص، ثم ببدر، ثم بالخيوف كلها إلى أن وصلت المدينة ويصممون على ذلك حتى أني رأيت بعض من هو معدود من الفقهاء يعتقد ذلك.

فقلت له كما قال الإمام أبو بكر بن العربي (ﷺ) في مسألة الصلاة على النجاشي حيث قال بعضهم رفع له حتى رآه فصلى عليه فإن الله على ذلك لقادر وإن نبينا لأهل لذلك وفيما صح من معجزاته (ﷺ).

والآيات الظاهرة على يديه غنية عن انتحال ما لا أصل له.

قال وبطلان كون هذه العين من مكة أوضح من أن يذكر فإنه لم يكن في زمنه (ﷺ) بعرفة، ولا بمكة، ولا بالمدينة عين تذكر على هذه النعت، ولا ما يقر بمنه وإنما أجريت هذه العيون بعد ذلك بأزمان.

ولما دخلت المسجد النبوي فصليت في روضة الجنة وقصدت المواجهة الشريفة لأتخذها جنة فجددت التسليم على الرسول وصاحبيه أبي بكر وعمر، وتنعمت بالنظر إلى الكوكب الدري الذي هو أزهى من الشمس، والقمر، ثم جلست أستريح، وأستنشق من روضة الجنة أطيب ريح.

وورد علينا صاحبنا ومحبنا/ ٢١٨/ الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله الفيلالي المذكور فيمن لقيناه بمكة، وكان يتعرض لنا وقت دخولنا، وأنسنا وجاء بعده ولده الأنجب سيدي محمد وانطلقنا لدارهم مع جماعة من أصحابنا، وأحضر من الأطعمة المنوعة المختلفة، والمؤتلفة ما نسأل اله تعالى أن يكافئه عليه ويكرمه يوم القيامة بالنظر إليه.

وأما الفواكه، والخضر الوقتية من العنب الجيد، والرطب الحسن، والبلح المزهو وغير ذلك ما يعجز من تحصيله هنالك جزاه الله خيراً.

ولقينا في المسجد النبوي أيضاً صاحب، والدنا الفقيه الناسك الخير الصالح الشيخ سليمان الحصيني وجماعة من أصحابنا المغاربة وبتنا هذه الليلة في المسجد النبوي متصلين بالشباك الأنور فيما بين الروضة، والمنبر وامتلأ المسجد الشريف بالوفود واجتمعت فيه جماعات لا يمكن وصفها إذا توصف يقصر عن إدراك ذلك المنظر الباهر ويكل دون جماله الزاهر.

وبعد صلاة العشاء أخذنا في إنشاد القصائد المديحية من البردة، والهمزية وغير ذلك، وأنشدت عند رأس الرسول عليه السلام قصيدتي المتقدمة الذكر وطاب بشراب معانيها الشرب، والسكر وظهرت لي آثار قبوها واستنشقت أرواح شمالها وقبولها ولذلك أشرت بالبيتين السابقين في الأسف عليها، والشوق إليها وكيف لا أشتاق لبكر تسحر الأفكار بجمالها، وتعجز فوارس الأبكار عن حسنها وكمالها وذكرت هناك أيضاً قصيدة أخرى كنت أتخذها عند الرسول غنيمة وذخراً كنت أشتاق في أولها لتلك المساكن، وأشتهي أن ألقى بها ساكن، وأولها:

يا بارقاً لاح من قُبا سحراً	بحيث حل من النهى سحراً
أعار قلبي خفقا، وأخلف	فاستعار من سحب مقلتي مطرا
وأذكر العهد من سعاد ولم	انس وهاج الأحزان، والكفرا
أيام نسقي معها الشمول على	روض يشاكل زهره الزهرا
وغصنه طرباً تميله	ريح الشمال ليلثم النهرا
ونهرهُ كالحسام جرد في	وسط الرياض يسل منهمرا
وزهره فيه صار منتظما	لما غدا القطر فيه منتشرا/ ٢١٩/
أم هل أطيب بطيبة زمنا	وهل أعود من عطرها عطرا

وَهَـــلْ أرى منشـــداً بســـاحتها ... مـدح الرسـول المبعـوث مـن مضرا

محمـد المصـطفى الرسـول ومـن ... عـلى جميـع الإرسـال قـد ظهـرا

قطـب عـلى الأنبيـاء قاطبـة ... وخـير كـل الأمـلاك، والشـفرا

لـولاه مـا طلعـت ذكـاء ولا ... لاح الهـلال، والكـون مـا ظهـرا

لـه المحاسـن كلهـا جمعـت ... فكامـل الحسـن فيـه مـا شـطرا

يُخجـلُ شـمس الضـحى بطلعتـه ... وقمـر الـتم نـوره قمـرا

وقـده فضـح الفضـول ومـن ... مبسـمه راح يفضـح الـدررا

نـور الصـباح يحكـي أسرتـه ... وسـدفة الليـل تشـبه الشّـعرى

كـم معجـزات عـلى يديـه بـدت ... عـن حصرهـا كـل شـاعر حصرا

فـما تعـد، ولا يحـاط بهـا ... ومـن يعـد النجـوم، والمطـرا

قـد خصـه ربـه الحكـيم بمعجـز ... الكتـاب فـأعجز الشـعرا

ويـوم مولـده بـدت عـبر ... لمـن رآهـا يـا حسـنها عـبرا

بنـوره نـار فـارس خمـدت ... كـذا كسرى إيوانـه كسرا

والظبـي، والضـب، والـذراع لـه ... قـد أنصـحت بـالكلام دون مـرا

وقـد رأى ربـه بمقلتـه ... ليلـة أسرى، ولم يـزغ بصرا

والشـمسُ قـد ردهـا الإلـه لـه ... بعـد المغيـب وشـق القمـرا

في كفـه سـبح الحصـا وبهـا ... فـاض الـزلال المعـين وانفجـرا

وِرْقُ الحَمَامِ حمـت مكانتـه ... كـذا لـه العنكبـوت قـد سـترا

والعـين قـد ردهـا، وأعـذبها ... بريقـه وسـخا بهـا بـدرا

والـدوحُ قـد أقبلـت بـلا قـدم ... تسـجد بـين يديـه إذا مـرا

وكـــم وكـــم راحـــة براحتـــه نيلـــت، وأذهـــب لمســـها ضررا

هـــذا هـــو الفـــرد في محاســـنه هـــذا الـــذي لا يقـــاس بـــالنظرا

أســـأل ربي الإلـــه يمنحنـــي بجاهـــه مـــا يقـــر لي النظـــرا

وإن يكـــون الختـــام لي حســـنا إذا رأيـــت الحـــمام قـــد حضرا

فيـــا رســـول الإلـــه تشـــفع لي فـــإنني قـــد أتيـــت مفتقـــرا

قـــد حملتنـــي مـــآثمي ثقـــلا ولـيس لي شـافع سـواك يـرى/ ٢٢٠/

ثـــم الصـــلاة عليـــك مـــا ســـجعت ورق عـــلى ورق الربـــا خضرا

ومـــا شـــدا شـــائم بـــروق قبـــا يـــا بارقـــاً لاح مـــن قبـــا ســـحرا

وذكرت أيضاً قصيدة كنت قلتها في زمن الصبا لما مال القلب لمدح الرسول وصبا، وكان ألطف فيه من نسيم الصبا، وأولها:

تـــرنم الطـــير عـــلى غصـــن بـــان إذ بـــان غـــيم الجـــو، والصـــحو بـــان

وقامـــت الأرواح راقصـــة لمـــا حكـــى القمـــر صـــوت القِيَـــانِ

فلـــت فلنغتـــنم يومـــك في روضـــة كأنهـــا مـــن غُرفـــاتِ الجنـــانِ

روضـــة أنـــس نـــور نوارهـــا يشـــب نـــار الشـــوق وســـط الجنـــانْ

تـــذكر العاشـــق نســـمتها نســـمة أرض شـــأنها أي شـــأنْ

أرض بهـــا حـــل الحبيـــب الـــذي قـــد كـــل عـــن تكييفـــه الـــثقلانْ

أشرف مخلوقـــة، وأكـــر مـــن قـــد خصـــه الله بـــأعلا مكـــانْ

محمـــد المختـــار خـــير الـــورى الحامـــد المحمـــود وطـــول الزمـــانْ

مـــن وجهـــه الوجـــه الجميـــل الـــذي تخجـــل مـــن أنـــواره النـــيرانْ

ومـــن حـــوى الحســـن بأجمعـــه وجمعـــت خـــير الخصـــال الحســـانْ

وأظهر الله على يده — كم معجزات أفصحت عن بيانْ
إن الذي أحرز م شرف — عن حصره يعجز أنس وجانْ
بالحق رب الخلق أرسله — فاتضح الحق به واستبانْ
وكم حباه الله من آية — بينة بانت لقاص ودانْ
شق له البدر وردت له — بعد المغيب الشمس، والصخر لانْ
والضب، والظبي بمجلسه قد — كلماه بفصيح اللسانْ
والدوح جاءته على سوقها — تخط في الأرض بغير بنانْ
هذا أجل الخلق قاطبة هذا — شفيع الخلق يوم الرهانْ
هذا الذي في حسنه مفرد — هذا الذي ليس يقاس ثانْ
أسأل ربي الله يمنحني — بجاهه فوزاً بنيل الأمانْ
وأن يكون الختم لي بالرضى — فإنه ذو الجود، والامتنانْ
ثم صلاة الله دائمة ما — كتم الصب هواه وصانْ
على النبي، والآل، والصحب ما — ترنم الطير على غصن بان/ ٢٢١/

وختمنا ذلك المجلس الحفيل بتلاوة الذكر، وتوجهنا إلى الله تعالى في تلك الأوقات، والأمكنة المعروفة بإجابة الدعاء فلا جزاء عليها إلا الشكر، وتضرعنا إلى الله تعالى توسل برسوله إليه ونلم بحوائجنا عليه ونسأل خيرات الدنيا، والآخرة ونطلب بجاهه الدرجات الفاخرة فيا ما أسعد ليله طاب للمشوق فيه أن يصل بالسهر نهاره وليله.

ويا ما أحلى فيها كاسات الوصال ويا ما أكثر راحة الأرواح فيها، والأوصال يستعذب المشتاق فيها عذاب السفر ومشقاته ويستقرب ما أتعب الأقارب من بعيد شقائه ويحمد السرى ويتمنى أن لو كان دائماً فيمن سار إليها وسرى فيأخذ في استلذاذ تعداد المراحل إليها وإنشاد القصائد المشتملة عليها ويهيم كما همت في جماعة أعزموا

بقصيدة البدر ابن جماعة التي ذكر فيها المراحل وقال، وهو إلى الحرمين الشريف داخل:

دعى التوقُ داعي الشوق حين دعاها ... فلبت وبلت بالدموع خطاها

فلا تزجراها في المسير فعندها ... من الشوق ما لو خليت لكفاها

نسير بمسراها إلى أرض مكة ... لننشق منهسا عَرْفَهسا وشذاها

وننهلُ من تلك الموارد نهلة ... فنطفئ ببرد الماء حَرَّ جواها

عساها إذا جدت تجد راحة لها ... وتمحو بحسن القصد قبح خطاها

لقد عاينت في سيرها كل شدة ... تكابدها في صبحها ومساها

فمن بركة الحجاج سارت يحثها ... من الشوق حادي العيس حين حداها

وقد يممت وادي البويب بعزمة ... لتحمل عند الصبح فيه سراها

فمرت بروض الكيس، والدهر ضاحك ... من السحب لما طال فيه نواها

مراكع موسى، والمصانع قبلها ... أتت وهواها للسويس دعاها

ولما رأت وادي القباب تبادرت ... وفي نخل أمست وطال مساها

وفي السطح أمست واستقرت هنيئة ... وفي أيلة الفيحاء كانت ضحاها

إلى حقل سارت، والغرام يقودها ... وبين حروف وردها ومناها

بوادي عنان باشرت، ثم تيممت ... مغار شعيب كي يزول ظماها

وقرت عيوناً بالعيون وراجعت ... وقد طاقت جنانها نكراها

ولا تنس وادي النبك إذ نزلت به ... فردت وسارت تَسْتَلِذُ عناها/ ٢٢٢/

وفي أرض سلمى سلمت، ثم يممت ... كفافة تكفيها شديد صداها

وفي أزلم حلست، وقد طاب عيشها ... ومنها إلى الاصطبل سار خطاها

ومن بعده جاءت إلى الوجه وراتوت ... وسارت إلى أكزى وطاب هواها

ويـا حبـذا الحـوراء للركـب منـزلا ... ومـن بعـده نـبط يفـوح شـذاها

وفي ينبـع كـان المقـام فحبـذا ... ديـار لعمـري لا أحسـب سـواها

وأمست على الدهناء، والشوق ساقها ... إلى نحـو بـدر، والسرور سـواها

وبالقاعـة البـزواء حطـت رحالهـا ... وفي رابـغ لبـي الحجـيج شـفاها

وأرض خلـيص حبـذا ذاك منـزلا ... بـه بلغـت كـل النفـوس مناهـا

وفي بطـن مرقـد نزلنـا عشـية ... ومـن مكـة لاحـت بُـروق سـناها

وقـرت نفـوس كـان أقلقهـا السُّرى ... وزال لعمـري بؤسـها وشـفاها

وبعـد يـمان فاسـتعلوا إلى منـى ... وصـلوا وبـاتوا سـاكنين رباهـا

إلى عرفـات بعـد ذاك توجهـوا ... وحلـوا بهـا مسـتغنمين دعاهـا

ولله في جمـع لهـم ليلـة مضـت ... فـما كـان أحـلا ذكرهـا وسـناها

فصلوا وساروا إلي قاصـدين منـى ... ومـا مـنهم إلا الجـمار رماهـا

وضحوا الضحايا حالقين رؤوسهم ... وعـاد إلى تلـك العيـون كراهـا

وبعـد طـواف البيـت عـادوا إلى منـى ... وكـم مـن أمـان نـالهم بمناهـا

أقـاموا بهـا مسـتوطنين ببلـدة ... يـودون فيهـا لـو يطـول مـداها

وساروا إلى الهـادي، وأطـرب سمعهم ... بـذكراه حـادي العـيس حـين حـداها

إلى بـدر عـادوا، ثـم منهـا توجهـوا ... بقصـد إلى الصـفاء وقـت ضـحاها

ومن بعدها ساروا العقيق، وهم سوى ... ليشـرب حياهـا الحيـا وسـقاها

يـزورون قـبر المصطفى معـدن الحجـا ... نبـي الهـدى أعـلى البريـة جاهـا

هـو المصـطفى خـير البريـة أحمـد ... شـفيع الـورى يـوم القيامـة طاهـا

كفـيلهم، والنـار قـد أحـدقت بهـم ... فـأوهي قـواهم حرهـا ولظاهـا

إليــك رســول الله يــا مــن بفضــله جميــع المعــالي كلهــا تتباهــا
ضـيوف أتـوا يبغـون جـودك، والقِـرى وحاشـا وكـلا أن يخيـب رجاهـا
مــرادهم منــك الشــفاعة في غــد إذا أسـمع الـداعي النفـوس دعاهـا
عليــك صــلاة الله مــا لاح بــارق ومــا طــاب مــن وادي زَرودَ
وآلـك، والأصـحاب يـا خـير مرسـل صــلاة تعــم الســامعين مــداها

ومن الصباح أخذت الأركاب في الارتحال، والقلوب من ألم الفراق في أوال، وأوصال، والخال قد حال وفاضت عبرات الفراق التي لا تعالج بمداواة ألف راق:

أرســلت مقلتــي دموعــاً غــزارا وحــوت أضــلعي لهيبــاً ونــارا
ونــائي صــبري وهــل بعــد بعــد يجــد الصــب ســلوة واصــطبارا
يــا ديــار الأحبــاب كــان اختيــاري أن أراك المســـاء، والأبكـــارا
ذاك لــو يســمح الزمــان ولكــن لــيس لي أن أعــارض الأقــدارا
لـيس عزمـي رضى وعـن طيـب نفـس إنــما كــان بالقضــاء اضــطرارا
واختيــاري أن لا أفارقــك الــدهر ولكـــن لا أملـــك الاختيـــارا
فعســـى الله أن يمـــن بعـــود وعســـاه يطفـــئ لهيبـــاً ونـــارا

ذكر خروجنا من المدينة المشرفة الطاهرة إلى مصر القاهرة

كان خروجنا من المدينة المشرفة اليوم الثالث من دخولنا إليها وقلوبنا تزداد أسفاً عليها بعدما ودعنا النبي (ﷺ)، وأقبل القلب، والقالب عليه، وما سلم وفارقناه ونحن نعثر في أذيال الحسرات ونتبع الزفرات بالزفرات وكيف نغالب شوقاً جلب علينا رجله وخيله، ولم نبت في تلك الروضة المشرفة إلا ليلة:

وخرجنـــا وللقلـــوب التفاتـــا ت إليــــه وللجســـوم انثنـــاء

وشرعنا في الرجوع في الحافرة حتى وصلنا الجديدة وسقى الناس جود الماء وحيده وحمل الناس أحمالهم، وأخذوا سلعهم وماهم ومنها نزلنا بالدهناء ومر وصفها مستوفي فبقينا منه في هناء.

ومنها نزلنا بندر الينبع الذي لا تزال ينابيعه تنبع فأقمنا فيه يومين وقامت هنالك سوق عظيمة كالتشريق، أو أعظم وحضرت فيه أنواع المطاعم، والمشارب، والفواكه وغير ذلك وهبت هنالك ريح سموم فعالة في الخلق فعل السموم فمات من الخلائق في الينبع، والدراين بعده ما لا يحصر أحد عده.

وفي بندر الوجه ألفينا الملاقاة وردت للحاج من مصر لتذهب عنه ما عسى أن يصيبه من الإصر، وأقمنا هنالك يومين، وكانت سوق عيظمة رخصت فيها الأسعار، ولم يبق عار.

ووردت/ ٢٢٤/ الحلاوي، وأنواع السكر، والفانيد وغير ذلك وهنالك ورد علينا رقاص[١] من الغرب ببراوات كثيرة تتضمن موت السلطان، وتزعزع الأوطان ونضبت الماء في الوجه، وتغير لقلته كل وجه وذهب بعض الناس لمنهل الزعفراني فلم يكتفوا من مائه الفاني.

وفي أثناء الطريق كلها كثيراً ما كنا نجتمع مع الشيخ يوسف الشرقاوي خطيب عرفات المتوجه بصدد ذلك من مصر وكلما مر بنا جلس إلينا وحدثنا بأحاديث مطربة، وأحضر لنا أنواعاً من الفواكه، ولا سيما زبيب غزة، وأكثر فيه جوزه ولوزه، وتمم لنا الشهوة بفناجين القهوة، وكان يدور أمامه مملوك يعده اللطيف في مراتب الحسن من الملوك فطلب مني بعض الأصحاب أن أقول فيه أبياتاً لطيفة تجمع رقيق الغزل ولطيفه وكنت ساعفته بذلك في أبيات هلكت في الهوالك، وأظن أولها:

وعشية كم عيشت من ناس   حلف الغرام، وأذكرت من ناس

---

(١) رقاص: ساعي البريد في المغرب.

جادت بوصل مهفهف كالروض في　　الأزهار، والأزهار، والإيناس

وفي كل بندر كنا نلقى ملاقاة جديدة مشتملة على أنواع من المحتاج مدبرة، وكان الفول، والشعير في جمعيها بأرخص سعر، وأبخس ثمن ما رأى الحجاج مثله منذ زمن.

ولما أشرفنا على مغارة شعيب أردنا زيارتها، وكان معنا الفقيه الخير المسن أبو العباس أحمد الطيلون فتذاكرنا معه في ذلك فأخبر بعض العز وسأل منهم التوجه معنا إلى ذلك فساعفونا جزاهم الله خيراً ووقفوا معنا حتى قضينا الغرض من ذلك الأمر الذي عرض.

وفي تلك الليلة ظهر فضل الله علينا وبان وعلمنا أن الله تعالى تقرب منا القربان إذ فيها سرق لنا الخرج بما فيه وضاعت لنا تلك الرحلة البديعة التي لا يستكمل بليغ وصفها، ولا يستوفيه مع غيرها من الكتب القديمة، والحادثة، وما شاء الله من الذهب، والريال، والفضة وغير ذلك من الحوائج النفيسة التي اغتالتها أيدي هذه الطامة الحادثة جعل الله لنا ذلك ذخيرة عنده وعوض بخير منها عبده.

ولما وصلنا بندر عجرود وقضينا الأرب من مائه الذي ليس بمشروب، ولا مورود فارقنا الركب المصري من هنالك، وتقدمنا وحدنا/ ٢٢٥/ في تلك المسالك فبتنا بعد مجاوزة الدار الحمراء ذات التربة الحمراء.

ومنها وصلنا للبركة ظهرا فألفيناها قد بهرت بمحاسنها بهرا وجمعت من الأقوام ما يعجز عن استيفائه الإحصاء، ولا يبلغ معشار الاستقصاء خرجوا لملاقاة الحجيج وكلهم يبالغون في الترحيب من زار بيت الله وحج وفيها من الفساطيط المرونقة، والأخبية المؤنقة ما يقضي له بالعجيب ويحكم لملاكه بالرجب وحواليها من الأتراك، والأجناد ما لم يتفق في ناد وورد علينا الفلاحة فيها بأنواع الفواكه، والطعام حتى اكتفى من ذلك الخاص، والعام وبتنا هنالك في عيش أرغد، وتوجهنا لدخول مصر من الغد.

ذكر دخولنا لمصر، وما حوته عن المحاسن التي لا تقبل الحصر:

كان دخولنا لمصر صباح يوم الجمعة عاشر صفر الخير من عام أربعين ومائة، وألف فتلقانا الغناء ونعم الألف رفيقنا أبو عبد الله بباب النصر وفرحنا به فرح المهزوم بالنصر ودخلنا معه، وألفيناه اكترى لنا محلا أنزلنا فيه الأمتعة وورد علينا عمه سيدي الحاج مسعود، والرجل المبارك المسعود فبالغ في التسليم ورفع المقدار، ثم انطلق بنا إلى الدار، وأحضر لنا من أنواع المشارب، والمطاعم كل نوع ناعم، وأوسع الخدم، والعشائر، وأظهر من سنة إكرام الورادين أسنى الشعائر كثر الله الخيرات عليه، وأجزل مواهبه السنية إليه.

ولم يزل يتعاهدنا أياماً بالطعام ويبالغ في الأنعام، ولما زال عنا شعث السفر شرعنا في قراءة الخلاصة مع رفيقنا المذكور ليجدد العهد بالقراءة ويتبصر من مبادئ العربية في أمور وبقي معنا حتى استهل ربيع الأول واشتد شوقه للسفر، وتأهب له وعول وعزم على ركوب بحر سويس، والتوجه إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة، والسلام ليغنم بعض إقامته في مشاهدة تلك الأنوار النبوية السنية فلم نجد بداً من مساعفته على ذلك ومساعدته على التوجه لهنالك وفارقنا في أواسط الشهر المذكور، وتركنا حيارى لفراقه بعد الاجتماع به ومرافقته في مرابعه وملاعبه ومحادثته في تلك الأيام التي تعدل الطويل من الأعوام:

وسار إلى السويس ولي فؤاد ... به من نار فرقته اتقاد/ ٢٢٦/

فيا ليت الزمان يجود يوماً ... بلقياه، وما هري جواد

ولم يزل يوجه لنا الرسائل وكلما وردت رسالة من سويس هاجت الدمع السائل وبلغت الوسائل من قلب عن أخيه باحث وسائل، ولم يقطع ذلك حتى ركب في البحر السلامة التامة، والعافية العامة إن شاء الله تعالى:

فنسأل مولانا كما قدر البينا ... واسكب من عيني لفرقته عينا

يقـــدر باللقيـــا سريعـــا فـــإنني وقـد قـر مـن لقيـا حبيـب الحشـا عينـا

ولما صار أثراً أبعد عين وحال بيني وبينه قدر البين بقيت بعده في قنط لم يجر مثله من أيس، ولا من قنط لولا أن أمَّنَ الله علينا بالأخ في الله، والمحب من أجله الفقيه النبيه المشهود بذكائه وفضله الأديب الأريب الذي لا يستطاع ثاقب ذهنه وبارع عقله الناسك الورع الذي ورد من بحار العرفان وعقله بهجة الزمان ولهجة اللسان ودرة الجمان ودرة الإحسان أجل من أجل المجلون، وأمثل من انخرط في سلك جلالته المخلون محبنا أبي يزيد عبد الرحمن بن الفقيه المؤدب الناسك المجدد أبي العباس أحمد بن جلون أدامه الله مترقيا إلى سموات المعارف، وأسبغ عليه فوق ما يوتل من الإحسان، والعوارف، وأبقاه ثِمالا للعلماء حيثما كان، وأرقاه إلى مراتب الأفاضل الكرماء في كل مكان فإنه حفظه الله قام لنا مقام ذلك الرفيق المساعد بما حواه في الإحسان من طول اليد وامتداد الساعد.

فكان يأخذ بأيدينا في جميع المقضيات مقاربة مباعدة مع تمام المساعفة، والمساعدة إلى خود يقف الجود دون الوصول إليه وكرم خلق لا معول في الحلم إلا عليه فكنا نجد به من الإنس ما نسأل الله تعالى أن يجزل له علينا جميل الثواب.

وكان يسدي إلينا من الإحسان ما يصر دونه اللسان، ولا يسعه الخطاب، والجواب مع السعي في حوائجنا ومقضياتنا بالوجه الممكن، والجد في نفعنا دنيا وآخرة بكل ما يتيسر من الطرق ويمكن، والتنويه بقدري الخامل، وتنزيه ذكري في كل محفل كامل ونقلني أعزه الله من الوكالة إلى الدار وجعلني بفضله القطب الذي عا ـه المدار، وأخذ يسدي لي من الإحسان ما لا يستطيع المكافأة عليه إنسان فلذلك توجهت إلى الله تعالى أن يتولى عظيم/ ٢٢٧/ جزائه على ما كان من نعمائه.

وكيـف أؤدي شـكر مـن إن شـكرته عـلى بـر يـوم زادني مثلـه غـدا

وأما العبارة فهي قصيرة فيمده وإن طالت وإن لها باستيفاء مأثرة ومكارمه التي صالت على الأنام طالت:

ولم أنَّ لي في كل منبت شعرة لساناً يبث الحمد كان مقصرا

وكنت أتبادل معه الكلام في أمور متنوعة من العلوم فإذا له كمال الإدراك تناول معه الكلام في أمور متنوعة من العلوم فإذا له كمال الإدراكات وثاقب الفهوم في كل معلوم، وكان ينشدني أبياتاً رائقة تدل على حسن نقده واستحضار نقده فمن ذلك ما أنشدنيه، وقد تذاكرنا المنازل الحجازية، وما فيها من الأمور الحقيقة، والمجازية للعارف أبي الحسن بن وفا:

خليلي إما جئتما حي قاتلي فقولا له مضناك ملتمس نظره

فإن تريا في الوجه ماء بشاشة فإني لا أخشى خليل ما أكره

وأنشدني لغيره:

رَوِّني من ماء نبط لو يكن في العمر مرة

ودع الحوراء فإني أبغض الحوراء، وأكره

وأنشدني لابن بدر الدين المفرق

تقنعت عن زاد الرفيق ومائه وسرت لبيت الله أهدى له شكره

ووفرت ما عندي احترازاً، وأنني لصوني ماء الوجه لم أرما أكره

وأنشدني لنور الدين ابن الجزار الشافعي:

ولما رأيت الوجه سال من الحيا وقد طاب فيه للحجيج مقام

على ذلك الوجه المليح تحية مباركة من ربنا وسلام

وفي أثناء هذه شرعنا في قراءة شمائل النبي (ﷺ) بمسجد الغورية بعد العصر لأن جماعة من أصحابنا المغاربة سألونا ذلك لما تقرر عندنا من قراءة هذا الكتاب في مثل هذا العصر فكان يجتمع هنالك درس حافل من أعظم المحافل، وكانت تحصل تقريرات حسنة وإزالة إشكالات مستحسنة.

وفي يوم الختم أكثروا لنا من أنواع الطيب كماء الورد وماء الزهر، والند، والعود الذي لا مثل له، ولا ند، وكانت ختمة جميلة استفاض الناس فيها من أنوار النبوة حسن الضوء وجميلة ولقينا بمصر جماعة من أصحابنا الفاسيين وغيرهم وبالغوا في أنواع الإكرام، وتنويع الشراب، والطعام وإكثار الأنعام، والأنعام جزاهم الله أحسن الجزاء/ ٢٢٨/ بمنه، وتنوعوا في ذلك ما بين ليل ونهار وإطناب واختصار، وفي كل جمع تحضر جملة وافرة من الكتب المتنوعة الفنون، وتحصل بالمذاكرة فوائد جمة بين هؤلاء الأمة فمنهم:

محبتنا النجيب اللوذعي الأريب الأخذ من أنواع اللطافة بأوفر نصيب المتخير الذي لم يزل له في كل حب من مزارع الآداب التقاط أبو الحسن على بن الفقيه الناسكهري العربي السقاط.

ومنهم الفقيه الحسني الحسيب الفاضل الرصين اللوذعي الأريب المحب قبلتنا محبته للشغف بمرآه وضمنت أخلاقه العذبة له أن يحبه كل من رآه أبو عبد الله سيدي محمد بن محبنا الفقيه العدل أبي عبد الله سيدي محمد السقاط فإنه كثيراً ما كان يبر بنا وينوع لنا في الإحسان الذي لا يقوم بشكره اللسان جزاه الله أحسن جزائه ووالى عليه أسبغ نعمائه.

ومنهم محبنا الفقيه اللوذعي الدراك الفاضل الحيي الذي أذكرتنا مزاياه من سلف من الأفاضل إخوانا أبو عبدالله محمد العربي بن محبنا الفقيه الأديب البارع أبي محمد عبد السلام بنان.

ومنهم أخونا الفقيه الجليل النبيه النبيل رب اللطائف، والنوادر أبو محمد سيدي عبد القادر.

ومنهم المحب الأكبر الذي خطبت الأقلام بمزاياه على هذا المنبر الخالص المودة، والاعتقاد.

والفاضل الذي أذعن لجوده فائض البحر وانقاد الخير الناسك الدين الأتقى أبو العباس الحاج أحمد بن يحيى رعاه الله وبارك فيه، وتولاه فقد كانت له فينا محبة زائدة وبالغ في إكرامنا، والإحسان إلينا بكل ما أمكنه من صلة وعايده تقبل الله محبته وعمله وبلغه في الدارين أمله.

ومنهم المحب الأوفى، والمنهل العذب الأصفي المرضي الأحوال الكثير الصمت إلا فيما يعنيه من الأقوال أبو مهدي الحاج عيسى المضفري أصلح الله أحواله وسدد أفعاله، وأقواله.

ومنهم صاحبنا ومحبنا الفقيه الألمعي النبيه الخير الناسك الدين الزوار الصالح أبو محمد سيدي الحسين بن عبد الله الهواري فقد كان له بنا اتصال وملازمة في القراءات وحضر لدينا مجالس متعددة في الحديث وغيره وقرأ علي بلفظه أزيد من نصف الفهرسة التي جمعها الشيخ أبو عبد الله محمد/ ٢٢٩/ الفاسي، وأجزته في ذلك.

ومنهم محبنا وجارنا التاجر الوجيه النجيب النبيه الحاج الطيب ميارة.

ومنهم محبنا وصاحبنا التاجر الفاضل الحاج الشاوي التازي.

ومنهم محبنا الرجل الخير السيد موسى بن عبد الرحمن المنقاد.

فكل هؤلاء لم يقصر وافى إكرامنا ومقضياتنا ومواساتنا جزاهم الله خيراً بمنه.

ولقينا أيضاً جملة وافرة من أهل مصر منهم الفقيه العالم المشارك الأديب البارع الدراك المتفنن أبو زيد القاضي عبد الرحمن المالكي المحلى المحب الفاضل أكرمنا في بيته مراراً بأنواع الأطعمة جزاه الله خيراً وخاطبنا بأبيات أولها:

يا أيها الحبر العظيم الشأن	يا من به قد توج الملوان
يا من غدا نجر الفضائل صدره	إذ قد غدا صدر النيل معاني
يا من هو الخبر المفيد لمبتدأ	بحر لقاص في الوجوه دودان
يا من به فاس السعيدة أشرقت	فخراً، وقد سادت على البلدان

والشمس ها قد أشرقت من مغرب ... في مشرق نوراً على الأكوان

هو طيب من طيب ومحمد ... حاز المحامد منه المنان

لا بدع أن أسديت لي درر النهى ... فالدر من بحر لكان معاني

لا زلت يا شمس المعارف مشرقاً ... بين الورى بإضاءة العرفان

وأعرته كتابي شرح نظم الفصيح وكتب لي على أوله تقريظاً بالغ فيه ما شاء، وأبدع الإنشاد، والإنشاء وحضر لدي في درس الشمائل أياما، وأبدى أبحاثاً نفيسة ويوم الختم طلب منا الإجازة فوعدناه بها، ولم يمكنا الوقت لكتبها.

ومنهم عالم أهل مصر وورعها الرجل الصالح الزاهد المتفنن في أنواع العلوم المتعمق في بحار المعارف المتقدم على كل عالم فيها وعارف الفاضل الطاهر البركة المتواتر المزايا، والعوارف أبو محمد عبد الرؤوف البشبيشي أدام الله رعايته لقيته بداره، وأكرمني إكراماً زائداً وهش لملاقاتي وبش وطش عارض مزنته على ورش، وكان معي القاضي عبد الرحمن فبالغ له في الثناء على وساعده هو حفظه الله فيما نسبه من الفضل وإن كنت لست أهلاً له إلى، وتبركنا بدعائه الصالح وملاقاته وسألناه أن يجعل لنا حظاً من/ ٢٣٠/ ذلك في غالب أوقاته وحزناه للمذاكرة في شتى من أنواع السلم فتنصل لنا من ذلك.

وأنشدني أبياتا ضلت عني، وأكثر ميله للتصوف، وقد ترك التدريس ومعاطاة العلم، وتخلى عن ذلك، وتركه جانباً وخلع ومال إلى الفقر، ولم يبق في مصر على سنن السلف هواه مجانب لأهل الدولة، والرياسة تاركاً لبيوت الظلمة معرضاً عن الدنيا، وأهلها جزاه الله عن الإسلام خيراً واستغربت في تواضعه وكرم أخلاقه مع ما جبل عليه أهل مصر من التفاخر وإظهار الفشر حتى لما أنه قال لأولاده لما أمرهم بإحضار الطعام انظروا هل هناك لقيمة تائهة في طاقة لمولانا الشيخ المغربي (ﷺ).

ومنهم الفقيه المشارك العالم المدرس الأديب البارع الفصيح الناظم الناثر أبو العباس أحمد العماوي المالكي أحد علما الأزهر وكبرائها ومدرسيها لقيته بالأزهر بعدما دعاني

لداره مراراً فلم يمكنه إلا بعد مدة حصل بي به اجتماع بعد صلاة الجمعة بالأزهر مع القاضي عبد الرحمن وعرفني قبل أن أتعرف له وانطلق بنا لى داره، وأحضر لنا من أنواع الأطعمة شيئاً كثيراً وبالغ في الإكرام ما أمكنه، وأظهر لنا من الفرح، والسرور، والطلاقة، والبشاشة مالا يوصف وجلنا معه في مسائل من أنواع العلم فقهية، وأدبية ونحوية، وتفسيرية وصوفية وغير ذلك، وكان اتصل بكتابنا شرح النظم المذكور قبل هذه الملاقاة وكتب عليه تقريظاً حسناً لا بأس به ولقيناه بعد ذلك مراراً، وفي كل مرة نتداول من العلم أباحثاً نفيساً.

ومنهم الفقيه البركة المشارك الشيخ سالم النفراوي الرجل الصالح المسن الأعمى الملازم للأزهر جل أوقاته وكلها يقرئ مختصر خليل، والرسالة وغير ذلك للخلق به انتفاع عظيم لقيناه بالأزهر وهش لملاقاتنا وبش، وأخذ في الثناء على علماء المغرب، والاعتراف لهم بالفضل، وأظهر لنا فرحاً كثيراً جزاه الله خيراً.

وتذاكرنا معه في مسائل من بيوع الآجال، والمعاملات وغير ذلك.

ومنهم: الأخ في الله، والمحب من أجله مقدم الشيخ ابن ناصر، والنائب عنه في تلقينا لأسرار بالنواحي المصرية وغيرها الرجل الصالح الفقيه خير البركة ابن عبد الله الشيخ محمد بن منصور السقطي ورد علينا ونحن/ ٢٣١/ عند المحب الشيخ أبي زيد ابن جلون مرات ودعانا إلى داره، وأكرما إكراماً على قد روسعه مرات كثيرة جزاه الله خيراً.

وحضر لدينا في الأربعين النووية بالغورية، وتناولنا معه أبواباً من وعظ الحر يفيش وكنا نتعاهده للزاوية الناصرية عمره الله بدون الذكر فيها ونلقى عنده جملة وافرة من الإخوان ونتجاذب معهم أطراف المسائل العلمية، ولم تحضرني أسماؤهم الآن.

ومنهم: الفقيه الممتن أبو عبد الله الشيخ محمد الجداوي أحد علماء الأزهر الأكابر المدرسين فيها من أشياخ المالكية.

ومنهم المحب الكبير الخير الدين الشيخ أبو عبد الله محمد الشنواني القيم على جامع الغورية حضر لدينا الشمائل، والأربعين النووية، وكانت فيه محبة زائدة ومودة خالصة

دعانا إلى داره مراراً، وأكرمنا في كل منها إكراماً زائداً ونوع لنا الأطعمة ما شاء ومزج المشرقية بالمغربية، والعجمية بالعربية جزاه الله خيراً، وتقبل علمه.

ومنهم: الرجل الصالح المشحون الباطن بمصالح المعارف ومعارف المصالح الشيخ أبو عبد الله محمد أبو النور زرناه في داره مراراً، وفي كلها يحضر لنا ما جرى به التكارم عندهم من شراب البن المعروف بالقهوة ويبالغ في الترحيب، والثناء الرحيب ويكثر الكلام في الفنون التصوفية على اختلافها، وله في ذلك باع عظيم وذوق سليم يوجب له التسليم ويستدل بالامتثال السائر بين القوم ويؤيد ذلك بالآيات القرآنية ويميل إلى مذهب الشيخ ابن عربي الحاتمي ويذكر له مكاشفات كثيرة وآيات كبيرة.

وأما سعة أخلاقه وكرم طباعه وحسن ملاقته وطلاقته وبشره للوافدين عليه فلا يجمع ذلك، ولا يتوصل بالتعبير إليه، والناس فيه بين منصف مادح ومعترض قادح وارتكاب طريقة التسليم أحق بالرجل الحليم.

ومنهم: الفقيه المسن أبو رضا الشيخ عبد الحليم بن الشيخ أحمد الحليمي الفيومي ورد علينا للغورية، وتناولنا معه كلاماً واسعاً في أمور كنا نستشكلها على مذهب الإمام الشافعي، وله أخلاق حسنة ومفاكهة طيبة؛ وكان يحضني على الإقامة بمصر ومساعفة أصحابنا بالمجاورة هناك لتناول شيء من القراءة فتعللت له بأن تلك الأرض غير ملائمة لنا وغير ذلك من التعللات، والاعتذارات فعند ذلك/ ٢٣٢/ أخذني في ذم تلك الأرض ومساءة طوله، والعرض، وأنشدني في ذلك:

ومـــا مصر إلا بقعـــة مـــن جهـــنم	وإن كـــان تـراهـــا هنالـــك نيـــل
بـــلاد بهـــا الخلفـــاء نبـــت، وأرضـــها	ســـباخ، وأولاد الحـــلال قليـــل

وأنشدني في ذلك أيضاً:

دع عنـــك مصر فأهلهـــا بعـــد الوفـــا	ألفـــوا الجفـــا، وتحجبـــوا في الأبنيـــة
قلبـــت بهـــا الأعيـــان حتـــى أنتـــي	شـــاهدت ســـعد الـــدين ســـعد الأخبيـــة

وقد رأيتها في كتاب السكردان للشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة.

وقال قبلها حكى أن شهاب الدين القوصي قال كان يوماً عند الملك الأشرف فدخل إليه سعد الدين الحكيم، وكان بينهما وحشة فقال له الأشرف ما تقول يا شهاب الدين في سعد الدين؟ فقال إذا كان عندك فهو سعد السعود وعلى السماط سعد بلع، وفي الخيام عند الضيوف سعد الأخبية وعند المرض سعد الذابح فضحك السلطان، وأعجبه كلامه وعلم أن بينهما وحشة فأصلح بينهما، وأمر لكل منهما بتشريف انتهى، وأنشدني أيضاً:

أرى ناساً بمصرفا حزونا ... بنخل ماله أبداً مثيل

فقلت لهم صدقتم فيما قلتم ... سواحلكم بها نخل طويل

قلت، وأين هذا ممن قال في مدحها وانتصر وبالغ في الثناء عليها، وما قصر:

لعمرك ما مصر بمصر وإنما ... هي الجنة الدنيا لمن يتبصر

وغير ذلك من أقوال الرجال التي ضاق عنها المجال غير أن الداخل لها في أول أمره يجد من القنط فيها، والضيق وحرج الخاطر، والنفس مالا يكيف، ولا يحصر وكلما طال مكثه فيه انبسط في عمارتها وفيافيها.

وقد حدثني بها بعض الأفاضل أن الداخل لمصر يكون انبساطه فيها على حسب التدريج ففي أول الأمر يكون خاطره فيها ضيقاً كالميم فيشتد الضيق، ثم يتوسع عليه الحال شيئاً ما وينتقل من الميم إلى الصاد، ثم ينطلق عليه الحال، وتنطلق عليه الدائرة كالراء، وقد جربوه فألفوه صحيحاً، والله أعلم.

ومنهم: الأخ في الله، والمحب من أجله الرجل الخير المسن الذاكر الفاضل الحيي الشيخ عبد اللطيف التلمساني أحد أصحاب الشيخ ابن ناصر (ﷺ) لقيناه بالزاوية الناصرية ودعانا/ ٢٣٣/ إلى داره مراراً وإكراماً غاية الإكرام، وفي كل مرة يتنوع لنا في الأطعمة كثر الله خيره وجازاه أحس الجزاء بمنه.

ولقينا من أصحابنا المغاربة الرجل الصالح المتبرك بلقائه الورع المتبتل الزاهد العلامة

المشارك الجامع لفرائد الفوائد المنقطع عن الخلق لله تعالى أبو عبد الله محمد العياشي أبقى الله بركته لقيناه مراراً وهش لنا وبش.

وكان يتعاطى معنا أنواعاً من مسائل العلم عربية وفقها وحديثا وغير ذلك، وكان ربما ينجر به الحديث إلى مناقب الصالحين وذكر كراماتهم ومزاياهم فيذكر من ذلك شيئاً كثيراً ويوسع القول فيه عن الإمام الشعراوي وغيره وكنا نتجاذب معه أطراف الأحاديث ونستخرج منها أسراراً ربانية، وأحكاماً لدنيه من فضل الله تعالى وبركته، وكان لإنصافه وكرم شيمته وسعة أخلاقه وجميل أوصافه يسألنا كالمستفيد لتستخرج الأسرار ببركته أبقاها الله تعالى ويظهر الفرج بذلك.

وكان كثيراً ما يثني على الإمام المشهور بتلك الأقطار مولانا أحمد البدوي (ﷺ) ويذكر من كراماته ما يعجز عنه الحصر ويقول أنه من أهل التصرف حيا وميتاً أعاد الله علينا من بركات أوليائه الأحياء، والأموات آمين.

ولقينا جماعات أُخر بالغوا في إكرامنا، ولم نستحضر أسماءهم.

وأما من لقيناه من الدروس وحصل بنا به مطلق اجتماع في الأزهر وغيره فلا يكاد يحصيه العد، ولا يأتي عليه حصر، ولا حد وكنا مدة إقامتنا بمصر خمسة أشهر نتردد لمشاهد المشاهير من الصالحين.

ونؤكد زيارة الإمام الشافعي (ﷺ)، ومن بالقرافة الكبرى، والصغرى وغيرها كأبي السعود ومقامات الأربعين على تعددها بمصر وغير ذلك من كل ما يزار من مشهد مزار.

ولما عزمنا على الخروج من مصر وفتح الركب للرحيل بابه ونصبت الخيام بالإنابة توجهنا لزيارة الإمام الأعظم مولانا أحمد البدوي (ﷺ) فخرجنا لزيارته يوم الثلاثاء الثامن من جمادى الثانية عام أربعين ومائة، وألف فصلينا الظهر على شاطئ النيل ببولاق صحبة الأخ في الله، والمحب من أجله الفقيه النبيه الفاضل أبي عبد الله سيد محمد بن إبراهيم/ ٢٣٤/ السوسي الذي تقدم ذكره في رفقاء الحجاز، وأخويه الفقيهين

الحسيين سيدي عثمان وسيدي إبراهيم وناس من أصحابهم وسرنا فنزلنا قرية سنديون وصلينا بها العصر وبتنا بها لأنا أخبرنا أن القرى التي أمامنا لا وكائل فيها للبهائم.

ومنها بتنا بزاوية الشيخ المتبرك به سيدي علي المليحي بقرية يملج، وألفينا عليه حرما عظيما وبنيانا جديداً هائلاً ومياها كثيرة في صهاريج عديدة متبحرة، وهو له مدرسة عظيمة مملوءة بالعميان لهم خراج معلوم وجرايات يقتاتون منها وفيه بيوت للضيفان، وتلقانا جماعة من أهل ذلك الحرم وبالغو في إكرامنا على قدر وسعهم وقلت أخاطبه:

نزلنـــا حمـــاك أبـــا حســـن   فعجـــل بكـــل قـــرى حســـن

وعمـــر حقائبنـــا، وأملهـــا   بفضـــلك مـــن كـــل مستحســـن

وبعد أن صلينا الصبح توجهنا لزيارة الشيخ علي المليجي وولده الشيخ عبد المنعم ودعونا الله تعالى في ضريحيهما لنا ولمن سألنا ولعامة المسلمين وخاصتهم بما نرجو الله أن يتقبله، ثم أحضروا ما تيسر من الطعام قبل طلوع الشمس فاستعملنا منه على قصد البركة وجبر الخواطر وسرنا آمين سيدي أحمد البدوي (ﷺ) فوصلنا القرية التي بها ضريحه، وهي طنطة قرب الزوال فتركنا الدواب بالوكالة التي بقرب حرمه، وتوضأنا وصلينا الظهر وفتحت لنا القبة التي بها ضريحة فدخلناها، وأقبلنا عليه سائلين الله بجاهه أن يعمنا بخيرات الدنيا، والآخرة وقرأنا به ما تيسر وختمنا به دلائل الخيرات، وألفينا على قبره من المهابة، والجلالة، والعظمة ما يدل على علو قدره وسمو مرتبة وعنايته عند ربه أنواره ساطعة وبراهين قاطعة وآيات بينات غنية عن إقامة البينات.

وبتنا به تلك الليلة، وكانت ليلة الجمعة، وأصبحنا به حتى صلينا الجمعة، وفي أثناء ذلك كله نتردد لذلك الضريح الشريف ونسأل مولانا تعالى بجاهه وعنايته لنا ولوالدينا ولأشياخنا، وأهلينا، وأحبائنا ولعامة المسلمين وخاصيتهم وقلت في توجهي لزيارته:

خليـــاني مـــن حاســـد أوشـــاني   واتركـــاني لمتصـــدي أوشـــاني

ودعـــاني مـــن المـــلام فـــداعي   أحمـــد البـــدي إليـــه دعـــاني/ ٢٣٥/

الإمـام الـذي تفـرد بـالتصرف حيـا وميتـا دون ثـان

والهُمامُ الـذي ثنيـت لـه الهمـة والعـزم لسـت عنـه بثـان

قطـب كـل الأقطـاب قاطبـة فالكـل في بابـه رخـي العنـانِ

أو مـا جـده الرسـول الـذي مـن أجلـه كـان سـائر الأكـوانِ

ألـف ألفـى تحيـة وصـلاة وسـلام عليـه دون تـوانِ

مـا أقـام الأفـام في بابـه الرحـب إلى فضـله العمـيم ثـواني

فـإذ مـا وصـلت ذلكـم القـبر الشريـف المعظـم التـواري

ورأيـت الأنـوار سـاطعة فيـه يحـاكي لؤلؤهـا النـيرانِ

وزرنا تلميذه الشيخ عبد العالي في قبة عظيمة بغربي مسجده وضريح الشيخ نور الدين في قبة الشيخ نور الدين في قبة أخرى بإزائها ومسجده عظيم وفيه مدرسة عظيمة وبه مطهرة كبيرة كثيرة الماء غير أن ما بالمسجد من كثرة الأقوام، والأوباش يغيره تغييرا وارتحلنا منه بعد صلاة الجمعة فرجعنا في الحافرة حتى وصلنا لمليج بتنا بروضة الشيخ علي المليجي، وأكرمونا كالمرة الأولى، أو أكثر.

ومنه بتنا بسنديون في مسجده على ما به من كثرة الأوباش، والهمج، وأخلاط الفلاحين.

ومررنا في طريقنا للزيارة بكثير من القرى، والبلدان منها نبته السيرج وشرة، والقناطير وقيلوب وسنديون وكفر، والعبادلة وطلحة وعبرنا النيل في قوارب وعلى شاطئه القرية المعروفة بمسيد الخضر، وهي نصف المسافة من مصر إلى سيدي أحمد البدوي وفيها وكالة ومسجد، وأسواق لا بأس بها وبعده اسطنهة وكفر العجائز، وأم ختان ومسراج، وأبو شيخة وسلكة زوير ومليج، وهي بلد الشيخ علي المليجي المذكور يعبر لها النيل مرة أخرى، وهي على شاطئه.

وبعدها شنتنة وجنزور وطرقنا صاديد ودفدة ونفته، والسكرية ودرنا بها سيدي إسماعيل السكري وسيدي منصور.

ومررنا ببابل وكفر صناديد وغير ذلك من البلدان التي لم نجد من يسميها لنا.

وأما البلدان التي لم نصلها، وكانت تترائى لنا في تلك الأرضين فلا يكاد يأتي عليها الحصر وكلها تجبى الثمرات، والزروع، والألبان، والأجبان، والأنعام، والخضر إلى مصر فسبحان من كرم بني أمية، وأكرمهم في العالم وجعل مصر مجمعاً لجميع ما يشاؤه الإنسان من أنواع الإحسان، وله سبحانه الأمر من/ ٢٣٦/ قبل، ومن بعد.

وزرنا في طريقنا سيدي أحمد الحلباوي ومشاهد كثيرة في تلك القرى لم نجد من يعرف أهلها حق المعرفة، ولما رجعنا إلى مصر شرعنا في إكمال بعض الأحاديث كانت بقيت لنا من الأربعين النووية حتى ختمناها وحاولنا إتمام غيره من الكتب التي كنا نتنا ولها كالمرادي وجوهرة اللقاني وغير ذلك فلم يتيسر الإتمام إلا الظفر فراودنا جماعة من أصحابنا الذين بمصر على الإقامة معهم سنة بقصد الانتفاع ومناولة القراءة، وتعاطيها.

وذكروا لنا أوجها توجب إقامتنا لديهم فوقع ذلك في خواطرنا وبقينا نتردد فيه ونستخير الله تعالى ونقدم رجلاً ونؤخر أخرى.

والمحب الأكبر سيدي عبد الرحمن بن جلون يهون لنا الإقامة ويظهر لنا من أوجه المجاورة ومنا فيها شيئاً كثيراً لكثرة ما حرص أعزه الله على إقامتنا معه، وتأنيسنا به فلم تنشرح الصدور إلا للسفر وحارت الأفكار في ذلك وضاقت المسالك فشاورنا محبنا العلامة الصالح البركة سيدي محمد العياش فأذنني في السفر وظهر له وجهه وسفر فانقطع النزاع كل الانقطاع، وأذعن لذلك كل من الأصحاب، وأطاع، وأيسوا من الإقامة.

وعلموا أن لا مكث لنا في تلك المقامة وحصل لهم أسف، وأي أسف وانتفع وجه كل منا للفراق وكسف لكثرة ما كان حصل بيننا وبينهم من الألفة، والمحبة وإخلاص المودة، وأخذوا في المبالغة في الإكرام، والاجتماع غالب الأوقات وإحضار الطيبات من

الأقوات، والفواكه، والخضر المؤنقات وسرد الكتب المتنوعة في الفنون، ولا سيما كتب الأدب، والتواريخ كنفح الطيب، والمقامات وجملة من مؤلفات السيوطي، وتاريخ المنوى، وأنواع الطبقات وغير ذلك.

وكانت تحصل بذلك مباحث نفيسة وفوائد عزيزة، وتزول إشكالات، وتنحل مقفلات، وهي هذه الأيام رحل الركب من الإنبابة إلى الحويجر وبقي نحواً من نصف شهر ونحن نتناول المقضيات بمصر ونوادع الأحبة، وهم يبالغون في الإكرام، وتنويع الشراب، والطعام، وتوجهنا لزيارة القرفتين، ومن فيهما يوم السبت السابع، والعشرون من جمادى الثانية من عام أربعين ومائة، وألف صحبة المحبين الجليلين الصالحين الخيرين/ ٢٣٧/ سيدي عبد الرحمن بن جلون وسيدي حسين الهواري فمن الله علينا بزيارة الشيخ أبي عبد الله محمد التتائي، والقرافي، والسيوطي، والسيدة نفيسة، والسادات المالكية ابن القاسم، وأشهب واصبغ وابن مرزوق ويحيى بن يحيى القرطبي.

وابن الفارض وابن شاهين وعقبة بن عامر وسيدي يحيى الشيبة.

والإمام الليث وشيخ الشيوخ الإمام الشافعي، والسادات البكريين، وأبي الظهور، والسيدة أم كلثوم وغير ذلك من المشاهد التي هنالك فكان آخر إقامتنا بمصر ذلك اليوم وجعلنا مسكة ختامها زيارة هؤلاء القوم.

ذكر خروجنا من مصر إلى المغرب

معرضين عن التطويل في أمرها المغرب فقد ضاق فتر عن مسير وعاقت أشغال عن متابعته بالتفسير

كان خروجنا من مصر يوم الأحد الثامن، والعشرين من جمادى الثانية وخرجت جماعة من أصحابنا لتوديعنا غير وافية فيهم المحب الصدوق سيدي عبد الرحمن بن جلون، والمحب الأود سيدي محمد السقاط، والمحب الخالص سيدي الحسين الهواري، والمحب الكبير سيدي موسى وغيرهم حتى أتينا مدينة بولق. وأشرفنا على النيل

وسلمت على هؤلاء الجمع الحفيل وفارقتهم، والعيون كعيون العيون، والقلوب تتقل في لظي فراق هاتيك العيون:

وودعتهم، والعين تهمل كل العين — وتهمل ما ترجى السحاب من العين

وللقلب في نار الغرام تقلب — ولم لا دعني بأن كل أخ عين

فوا أسفاً للقلب من شدة الأسى — ووا أسفا من شدة الحزن للعين

وعبرت النيل في بعض مائة من المراكب وفارقت مصر، وأهليها، وما بها من المواكب، وتوجهنا بقرية الإنبابة لقبة سيدي إسماعيل الأنبابي وسألنا الله تعالى بحقه السلامة التامة في جميع الطريق لنا ولكل رفيق رافقنا من ذلك الفريق ووصلنا الحويجر قبل العصر فنزلنا، وألفينا أصحابنا الذين بمصر اشتروا لنا خيمة جيدة حافلة بما تحتاج إليه كثر الله خيرهم ووقف لها ومحبنا الأكبر سيدي الحاج أحمد بن يحيى ومحبنا الأغر علينا سيدي عبد الرحمن ابن جلون شكر الله مسعاهم، وأشعب شعاب مرعاهم، وتقبل عملهم وبلغ أملهم بمنه آمين فنصبنا تلك الخيمة مرفوعة على الخيام في عيش مخفوض/ ٢٣٨/ على مر الأيام وسلمنا على من وجدناه من أصحابنا هنالك، وكان خرج معنا من مصر لتوديعنا إلى هذا المحل جماعة فيهم إخواننا ومحبنا الفقيه الشيخ العربي بناني ومحبنا الفقيه الألمعي سيد يعلى اسقاط، والمحب الكبير سيدي عيسى المصري فأحسنوا وداعنا بالغوا في مواستنا جزاهم الله خيراً ووقاهم بمنه خيراً.

فبتنا في الحويجر تلك الليلة، وأصبحنا به مقيمين لأغراض تعلقت بها الأغراض، وتذكرنا أموراً نحتاج إليها في الطريق فكتبنا لمحبنا وصفي ودنا ووفى عهدنا الفقيه البركة سيدي عبد الرحمن بن جلون كتاباً يقضي لنا ذلك الغرض الذي عرض وصورة أوله:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أهله وصحبه وسلم تسليماً محبنا الذي نجله، وفي سويداء القلب نجله الفقيه الأديب البارع الأسمى الذي لم يزل في

قلوبنا أغلى من الكواكب المشرفة في أفق السماء، وأسمى من قرة العيون، ومن أنهلت لفراقه الآماق، ولا انهلال العيون، والعيون أبو زيد سيدي عبد الرحمن بن جلون أدام الله رعايته وحفظه، وأجزل في الدارين خلاقه وحظه واهدي إليه سلاماً ينبئه عما بي إليه من الأشواق ويعمر بنفاق مودته الأسواق ورحمة الله وبركاته ورضوانه، وتحياته، ثم ذكرنا له ما عرض من ذلك الغرض فقضى لنا ما رمنا من المآرب وبعث لنا فوق المؤمل من المطالب ومع ذلك رقعة فيها.

الحمد لله وحده صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبة وسلم على الحبيب الخليل الفقيه الجليل النبيه النبيل قدوة العلماء المحققين وعمدة البلغاء المدققين الأديب اللوذعي الأريب الألمعي المزري كلامه بقلائد العقيان ونظامه بفصاحة قس وبلاغة سحبان من هو لسماء أرواحنا كالبدر النير ولأرض قلوبنا كالغيث المصيب أبي عبد الله سيدي محمد بن الطيب أزكى سلام تعطرت رياض المحبة بنفحاته، وتفتحت أزهار الإخلاص بنسماته.

هذا، وقد ورد علينا كتابكم الكريم المنبئ عن خالص المحبة وصفاء الوداد القديم، وما ذكرتم فيه من عظيم الشوق وكثرة الولوع، والتوق فتلك حال محبكم الشائق لقربكم، والله تبارك، وتعالى يحرس جلالتك ويكتب سلامتكم، والسلام معاد عليكم، والرحمة، والبركة من محبكم عبد الرحمن ابن أحمد بن جلون جمع الله شمله آمين، وأقمنا بالحواجر الاثنين، والثلاثاء/ ٢٣٩/ والأربعاء نتنعم في أنواع المطاعم ونتضلع بالشرب من ماء النيل الناعم الذي هو أحوج مياه الجنان فلذلك ينشرح لشربه الجنان.

وارتحلنا منه يوم الخميس الثاني من رجب فنزلنا الحبر الأسود وظهر، أو بتنا به ليلة الجمعة وارتحلنا منه فنزلنا ظهراً على شاطئ النيل بموضع يسمى المخر وبجانبه أقوام من أعرب الأخصاص، وأخذ الناس يستقون ويمتعوا في ماء النيل ويكثرون من التمتع به لتوديعه.

وبتنا هنالك ليلة السبت، وأصبحنا مقيمين يوم السبت فورد علينا خبر بأن طوائف من الأعراب متعرضون للركب ليأخذوا الأعراب الذي حملوه ويسلبوهم إبلهم لأنهم كانوا أغاروا عليهم ونهبوا المال المنسوب إليهم ففزع الناس من ذلك وارتحلنا من المخر يوم الأحد، وقد أَخَذَ حذره من هؤلاء الأعراب كل أحد، وتفرق الناس عن يمين الإبل ويسارها، وأحاطوا بها من خلفها، وأمامها في جميع تسيارها وسرنا متأهبين لمقاتلتهم، وتركنا النيل خلفنا فبتنا بموضع يسمى التمسيح على غير ماء، ومنه نزلنا بعفونة قرب القصير ويسميه أعراب تلك الأرض الحضر فاستقى الناس من ماء أربعة أيام لأنهم نكبوا مورد الشمامة خوفا من الأعراب المتعرضين لإخوانهم لا ندخل أنهم هنالك مستعدين لذلك، ومن عفونة نزلنا موضعاً يسمى قصر القطاجي على غير ماء، ومنه نزلنا السيكران على غير ماء، ومنه بتنا بموضع يسمى حنش الدقيق على غير ماء.

وارتحلنا منه فانحرف بعصر من كان محتاجاً في الماء إلى سواني عن ذات اليسار تسمى شطار، والهميم أخبرونا أنها بئران وإن طول كل واحدة منها أربعون قامة وإن ماءهما في غاية القبح، والملوحة، والسواد وقبح الرائحة وسرنا فبتنا بنازية بوعونة على غير ماء، ومنه نزلنا معطن الجميمة عند ارتفاع الضحى فأقمنا به يوماً، وتفرق الناس على إحسائه الكثيرة الغزيرة المياه في رملة بيضاء وإحساؤه غالبها عذب طيب وربما خالطت بعضها ملوحة.

وارتحلنا من جميمة فبتنا بعلم البزاء على غير ماء، ومنه ارتقينا العقبة الصغرى صباحاً وسرنا بغدران غادرتها الأمطار مملوءة بالمياه العذبة الكثيرة الجامعة للأوطار فنزلنا في وسطها عند الظهر، وأخذ الناس في الاستقاء منها/ ٢٤٠/ إذ لا يستغنى بغيرها لعذوبتها عنها.

وبتنا أمام تلك الغدران في ليلة جمعت النعماء وكملت بهذا الماء وارتحلنا فتركنا معطن المدار يميناً، ولم ننحرف إليه استغناء عنه بمياه الأمطار الوافية بالاوطار ومررنا في مسير هذا اليوم بقلت أم العقل، والشرير، وتجاوزنا قصبة المدار ووادي زرقاء وكل واحد من

هـذه الأوديـة في غايـة الخصـب وبينهـا مـن المراعـي، والكـلأ، والغـدران، والأزهـار مـا يعترف القلم دونه بالتقصير، والانبهار ونزلنا بعد العصر مشرفين على وادي بوكـدوة في غير ماء.

وارتحلنا فمررنا بواد بوكدوه، ثم بالرواشد، ثم برقبة المستقيمة وظللنا بـوادي الرمـل هنيهة، ثم سرنا بقفر جعيفري ووصلنا قبر أبي حلاق فنزلنا حوله هنيهـة بقصـد زيارتـه، والتبرك به، وألفينا الماجل الذي أمامه جاء فالماء به وسرنا منه فصلينا الظهـر قبالـة رأس أبي لهو وجلسنا هنيهة للذكر رافضين اللهـو ونزلنـا بعـد الـعصر بـإزاء قـبر الضـعفاء مـن أرض تعرف بالسبتة وكأنها سميت سبتة لقلة نباتها، وأشجارها كأنها سبتت أي خلقـت وزال ما فيها من النبات كما يسبت الرأس ويحلق شعره فبتنا حـول ذلـك القـبر عـلى غـير ماء.

وارتحلنا منه فمررنا صباحاً بحـلا زيـن، ثـم بالآبـار السـبعة، ثـم بقـبر منـاع، ثـم بقـبر مخلب ووصلنا معطن جرجوف ظهر فبتنا به واستقى الناس من مائة ما يكفيهم.

وارتحلنا منه يوم الجمعة سابع عشر رجـب فمررنـا صـباحاً بعقـاقير الزناتيـة، وألفينـا هنالك غدراناً كثيرة من مياه المطر فقضينا من استقائه للشرب غاية الوطر وطرق بعـض الناس شماس وبو القوار على ساحل البحر وهما اسـم لمعطـن كثـير المـاء ومـاؤه مثـل مـاء جرجوف ومررنا بآبار القطراني، وهي ثلاثة آبار سقينا من أوسطها، وألفينا به مـاء طيبـاً غاورته بـه الأمطـار وسـقينا البهـائم ومررنـا براعـي الصـفراء، وهـو قـبر ولي مـن أوليـاء الأعراب الذين بتلك النواحي يزار ويتـبرك بـه، وتجاوزنـاه وبتنـا عـلى غـير مـاء وارتحلنـا فمررنا صباح السبت برأس الضير ونزلنا به للاستراحة ساعة.

ومنه مررنا بغوط البقر وصلينا الظهر بالزهيري ونزلنا خـرر الشـواني عصراً فبتنـا بـه على غير ماء وارتحلنا منه يوم الأحد فمررنا بقصى الأجداب/ ٢٤١/ وتركنا بقبـق يمينـاً، وهو معطن كبير عظيم كثير الماء يكفي الأركاب الكثيرة واسترحنا هنيهـة بقرعـة هديلـة ونزلنا معطن المقرب قرب الظهر، وأخذ الناس يستقون منه حتى غاب الشفق.

وارتحلنا منه يوم الاثنين فأتينا العقبة وبقينا تحتها حتى فطرنا واسترحنا وارتقينا عليها، وهي أطول من عقبة التشريق، وأشد منها في الأوعار المنسوبة إليها ومررنا ببطومة واسترحنا في السيويات وصلينا بها الظهر، وتركنا القار ليب بحريا ونزلنا أرضاً تسمى الظهيرة بعد العصر فبتنا بها على غير ماء.

وارتحلنا يوم الثلاثاء فمررنا صباحاً بكدوة الحجارة، وتركنا وشكة الطامش يمينا ووصلنا قبر الشيخ عزيز قبل الظهر فنزلنا لزيارته، والاستراحة حول دارته وبقينا أمامه حتى صلينا الظهر ووصلنا الخشبة عصراً فصلينا بها العصر، ولم نجد بآبارها ماء، وتجاوزناها بقليل وبتنا على غير ماء.

وارتحلنا يوم الأربعاء فمررنا بالبحيرة واسترحنا ساعة بالغرابات ومررنا بالعريض، وهو قصر مهدم ووصلنا غدير الريغي الظهر فألفيناه مملوءاً بالماء كأنه نهر فاستغنينا بمائه عن المرور بمعطن الرقبة، وتركناها وبتنا في هذا الغدير الذي جل في أزهاره، وأزهاره وخصبه عن النظير، وأخذ الناس يستقون منه ويسقون دوابهم ويقضون أربهم ووردت علينا طوائف من الأعراب بالسمن، والتمر، والغنم وغير ذلك.

وارتحلنا منه يوم الخميس فتركنا طريق الحج المألوفة وريضنا بسقيفة أبي الحامض للإفطار، والاستراحة.

ثم مررنا بسقيفة الدودة وبتنا بسقيفة العدم على غير ماء وارتحلنا صباح الجمعة فمررنا صباحاً بالعديم وريضنا بسقيفة الرمل وبتنا بالرميل بالتصغير على غير ماء.

وارتحلنا يوم السبت وريضنا للإفطار بسقيفة رؤوس السد وصلينا الظهر بوادي المعترض، وأتينا في العصر على غدير ماء زاد على الحق المفترض فاستقنيا من مائه، وأدينا من الصلاة ما لا بد من أدائه، وألفينا ما حوله من الأرضين مخضرة بخضلة ذات أزهار يانعة ونباتات مظلة.

وبتنا بين العنبر وعين الغزالة على غير ماء وارتحلنا يوم الأحد/ ٢٤٢/ فسرنا بأرض مخضرة بالأزهار كثيرة الإنبات، والأزهار ذات غدران متلاطمة تلاطم البحار، والأنهار

وريضنا بوادي الرجيمة للإفطار، وألفيناه مملوءة بماء الأمطار كثير الخصب، والنبات حسن المراعي، والإنبات.

ومررنا بوادي الجداري فألفيناه بحر بماء المطر أيضاً قد فاض على جوانبه فيضاً وصلينا الظهر بهيشة الطنفسة واسترحنا ريثما ردد كل واحد نفسه ونزلنا قبالة التميمي بالموضع المعروف بكبكبان لأننا ألفينا بجوانبه من الخصب، والكلأ ومياه الأمطار وغير ذلك من الأوطار ما فيه غنيمة لجميع الركبان فأغنانا ذلك عن التميمي ومائه، والمرور بمياهه، وأقمنا بهذا الموضع بقية الأحد ويوم الاثنين.

ووردت علينا هنالك ملاقاة درنة وقامت بينهم وبين الحجاج سوق عظيمة اجتمع لها أهل درنا وغيرهم من أعراب تلك النواحي وجلبوا أنواع المطاعم، والفواكه، والخضر، والشعير، والسمن، والعسل، وأنواع الكعك، والخبز، والمقروط وغير ذلك.

وورد علينا جماعة من طلبتها فيهم المحب الكبير الجدير بالتعيم، والتكبير الفقيه الاديب البارع الأنير أبو عبد الله سيدي محمد الأصرم القروي المذكور فيمن لقيناه بطرابلس تقبل الله دعاءنا في الاجتماع به لجميع بعض ما يسخ من أدبه وسررنا بملاقاته كثيراً، وأكرمنا، وتناولنا معه مسائل علمية، وتعاطينا أموراً أدبية وبنفس ما فرغنا من السلام، وتعاطينا مناولة الكلام أنشدني:

وقد يجمعُ الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

وسألته من أخبره عن هذا المحل الذي نزل به خليله وحل فأنشدني:

من جاء يسأل عن داره ... قلت له يمشي ويستنشق

ثم ذكرني:

فسر بنا في ذمام الليل معتسفا ... فنفحة الطيب تهدينا إلى الحلل

ثم أنجر بنا الكلام إلى الحظ، وتهيئة للجهال دون الأعلام فأنشدني نفسه:

قالوا تعلم فإن العلم ينفعُ من ... زمن ضاقت به الحيلُ

فَمُذْ تعلمت قال الحظ مبتدرا رُحْ إنني عنك بالجهال مشتغلُ

لذاك تلحظني للجهل متبعاً عسى لما هم به من ثروة أصل/ ٢٤٣/

وأنشدني للزمخشري عفا الله عنه:

وَقَائِلَةٍ أَرَاكَ بغير مالٍ وَأَنْتَ مُهذب علم إمامُ

فقلت لأن ما له قلب لام ولم تدخل على الأعلام لامُ

وأنشدني لابن نباتة:

وقائلة أرى الأيام تعطي لئام الناس من رزق خبيث

وتمنع كل ذي عقل ولبٍ فقلت لها خذي أصل الحديث

وذكرني قصيدة الإمام القاضي أبي الحسن الجرجاني المشهورة التي أولها:

يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما

أرى الناس من داناهم هان عندهم ومن أكرمته عزة النفس أكرما

وما كل برق لاح لي يستفزني ولا كل من لاقيت أرضاه منعما

وما زلت منحازا بعرض جانبا عن الذم أعتد الصيانة مغنما

إذا قيل هذا منهل قلت قد رأى ولكن نفس الحر تحتمل الظمأ

وإني إذا ما فاتني الحظ لم أبت أقلب كفي أثره متندما

ولكنه إن جاء عفوا قبلته وإن مال لم أتبعه هلا وليما

واقبض خطو عن حظوظ قريبة غذا لم أنلها وافر العرض يكرما

وأكرم نفسي أن أضاحك عابسا وإن أتلقى بالمديح مذمما

انهنهها من بعض ما لا يشينها مخافة أقوال العدا فيم أولما

ولم أقض حق العلم إن كنت كلما بدا طمع صيرته لي سلما

ولم أتبذل في خدمة العلم مهجتي | لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأغرس عز، أو أجنيه ذلة | إذن فإتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم كاب فإنما | كنا حين لم يحرس حماة، وأسلما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا | محياه بالأطماع حتى تجهما

وفي قصيدة بديعة جمعت مستحسن ما ينبغي للعلماء ارتكابه وبديعه.

وقد قال في حقها الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار:، ولقد أحسن صاحبها كل الإحسان كأنما ضجت في طرار حسان، ثم ذكر من هذا المعنى ما لا يزيد عليه فليراجعه فيه من احتاج إليه، وتناولنا الكلام على/ ٢٤٤/ طرابلس ولغاتها السابقة فيها فأنشدني قول التجاني التوسي:

سرى فرسي في سيرة ولو أنه | خلى من الأوزار سار، ولم يرسو
سَعَى سَعْيَ طماح لأبعد غاية | فكانت له دار المقام طرابلسُ

وسألته عن درنا، وأحوالها وكيف هو فيها مع صروف الدهر، وأهوالها فأنشدني لنفسه:

قالوا قرية درنا لا نظير لها | وما دروا أنها اشتقت من الدرنِ
من حل ساحتها لم يخل من كدر | كأنما ماؤها يجري على الحَزَنِ

وألفى كتابنا شرح نظم ابن المرحل المذكور غير مرة أخرجناه لمراجعة أمور في تلك الحرة فتناول بعض مسائلة واستغرب في الداعي إليه في هذه الأزمان وسائله، وأعجب من تعاطيه مع قلة أسبابه ووسائله واستحسنه كل الاستحسان وشهد له بالإتقان، والإحسان، وتمنى أن لو وجد فسحة من الزمان ليتحلى بفرائد فوائده المزرية بقلائد الجمان.

وكتب عليه تقريظاً حسنا أجاد فيه ما شاء، وأبدع فهي الإنشاد، والإنشاء مع ضيق الوقت وشغل البال، وتزاحم الأشغار وهيجان البلبال ومطاوعته البديهية له،

والارتجال بها يعجز رية الفحول من الرجال، ولم يتيسر نقله الآن.

وارتحلنا من كبكبان يوم الثلاثاء وسرنا فريضنا بالعفرج للإفطار ومررنا بعلب الشارف وقصر الغزيات، وتركنا غدير بوهندي يميناً، وأتينا غدير الركب بين الظهرين فألفيناه بحراً زاخراً من مياه الأمطار وبه صلينا الظهر، والعصر واستعملنا بعض النوافل بعد القصر.

وألفينا حوله من زهر الربيع ما أزرى بوشي صنعاء البديع وحيث ألفينا هذا الغدير المتبحر في أول مفازة السروال الموصوفة بكثرة الأهوال قال في ذلك محبنا، وأخونا الفقيه البركة الأديب البارع الفاضل نخبة الأفاضل أبو عبد الله محمد بن إبراهيم حفظة الله:

دخلنـــــــا لسروال في ســـــبعة	حُســـومٍ فعـــادت علينـــا ســـعوداً
تـــــولى الإلـــــــه ســـــــقايتنا	من الغيث حل مكانـا بعيـدا/ ٢٤٥/
شُـــقينا بـــه مـــن ميـــاه الســـما	بـــأرض تعـــز الميـــاه وجـــودا
فســـبحانه فـــأعلا مـــا يشـــاء	يعطـــى ويمنـــع عـــدلا وجـــودا

فقلت في ذلك سالكاً بعض تلك المسالك:

وقـــالوا إذا مـــا أتيـــت لسروا	ل فاحـــذرْ هنالـــك حـــراً شـــديداً
وإيـــاك، والمـــاء فـــاملأ بـــه	ألا وإني، وأعـــزم عـــلى أن يزيـــدا
فـــإن مفازتـــه صـــعبة	بشـــدتها كـــم أشـــابت وليـــدا
ومـــا علمـــوا أن فضـــل الإلـــه	لـــيس يـــزال بســـيطا مديـــدا
يغيـــثُ الخلائـــق إن عطشـــوا	بغيـــث غزيـــر يعـــم العبيـــدا
وكـــم مـــن غـــدير يغـــادر مـــا	يـــروى ركابـــا ويكفـــى جنـــودا
فســـبحانه مـــن جـــواد كـــريم	يعـــم الخلائـــق فضـــلاً وجـــودا

وتجاوزنا غدير الركب وبتنا في موضع يقال له قرع بريبر وارتحلنا منه يوم الأربعاء

فمررنا بوادي العس ووصلنا للمخيلي قرب الزوال فنزلنا به ريثما نصلح الأحوال، وألفيناه فايضا بمياه الأمطار فأخذ الناس يقضون بالاستقاء من الأوطار وبقي غالب الركب هنالك للاستراحة حتى صُلي الظهرين وطار وسرنا فبتنا بالقفا، وقد طاب كل واحد منا نفسا وارتحلنا يوم الخميس فريضنا بموضع يسمى الحمامة لا فاختة فيه، ولا حمامة وبتنا مشرفين على وادي الشيكة في فلاة لا يصطاد فيها شبيكة.

وارتحلنا فمررنا بالقليعات وريضنا بوادي مما لوس، وألفيناه جافا من الماء عَارٍ حتى من نبات الهيماء، وكان غالب الناس احتاج إلى السقي فحثثنا السير متوجهين إلى المزرب لعلنا أن نجد فيه ماء مزرب فلقينا أعرابيان على جملين، وأخبرنا بأن لا ماء فيه أصلاً، ولا بين تلك الجبلين وإن الأرض متى حواليه لم تمطر فيجتمع الماء إليه، وأخبرنا إنهما مرا ببئر منحرف الطريق مملوءة بماء الأمطار تسمى بئر فللود فتوحه الناس إليه لكثرة ما كان من العطاش فيهم لعله يكفيهم، وتركوا الطريق ذات اليسار وجدوا إليه التسيار فلما وصلنا لتلك البئر لم يحصل لنا بها نفع كبير بل وجدنا ما يملأ نحو الثماني عشرة قِربة فاز بها من حصلت له من الثروة قربه بعد مشقة فادحة.

وبقي الناس من العطش في حالة فاضحة/ ٢٤٦/ وحصل لهم في الانحراف لهذه البئر تعب كبير لحروشه تلك الأرض وبعدها عن صوب الطريق بعد أن جاوزا الغرض.

وسرنا حتى وصلنا موضعا يسمى اسطاطة فللود فنزلنا به في وقت العصر لاجتماع الناس من التفريق الذي حصل لهم عند الخروج إلى البئر من الطريق وبتنا هنالك على غير ماء.

وارتحلنا يوم السبت فذكر لنا بعض الأعراب أن غدير الخروبة فائض بماء المطر وإن فيه فوق ما يوفي بالوطر فانحرفنا إليه، وتركنا صوب الطريق وقصدنا الورود عليه فوصلناه بعد ارتفاع النهار، وقد فاض كأكبر الأنهار فنزلنا أمامه للإفطار وقضاء الأوطار واستقينا من مائه العذب الزلال، وتنعمنا بالماء، والمرعى بين تلك التلال وسرنا

منه، وقد زالت الشمس، وأدينا أول الخمس فمررنا بالحويجة، وأم الغزلان، والقبر وكلها أودية ومعروفة عند أهل تلك السير وبتنا بالعقابة على غير ماء.

وارتحلنا يوم الأحد فأتينا وادياً يسمى رأس ابن فردان فألفيناه مملوء بماء حاز العذوبة، والصفا وحواليه من أنواع الزهر ما أخجل الزهر فبقينا به حتى صلينا الظهر ومررنا بعد ذلك بموضع يسمى حنوة رفاد، وألفيناه فيها نجعا عظيما من أعراب ذلك الواد، وتجاوزناه وبتنا على غير ماء.

وارتحلنا يوم الاثنين فمررنا ضحى بالرحيبات وريضنا بالباب، وتاه الخبر عن عقبة الذيبة وحارت الألباب، وتعبت المراحل التي كانت في سورة تعباً جاوز الحد، وتورمت أخفافها، وأرجل الرجالة بل لم يسلم من المشقة أحد ونزلنا من السروال بعد الزوال وسرنا جادين في السلوك إلى معطن سلوك فنزلناه في الغروب بعد مقاساة كروب، ولم ينزل آخر الركب حتى مضى جزء معتبر من الليل بعد مقاساة أشد الكرب، وأصبحنا به يوم الثلاثاء حتى آن الزوال واستقى الناس من مائه الكثير المتوال.

وارتحلنا منه فمررنا ببئر تسمى الزحيحيف قريبا من ذلك وصلينا العصر هنالك وسرنا حتى اصفرت الشموس ونزلنا لاستراحة النفوس وصلينا المغرب/ ٢٤٧/ في منظر من الأزهار مغرب وجد العَلَّامِ عن أذن أمير الركب حتى غاب الشفق ومارق لأحد من المساكين، ولا أشفق، ولم ينزل آخر الركب حتى انقضى أزيد من ثلث الليل وقاسى الناس من الشدائد ما ختم لهم بالسيل وبتنا أمام قصر الطليون حتى طلع الفجر وفجرت السماء عيونها غاية الفجر، ولم يكف ذلك السيل طولها الليل، وكان الصواب أن نقيم حذراً من الوقوع في المقعد المقيم فلم يساعد الشيخ على الإقامة، وأمر بالرحيل من تلك المقامة فكف المطر وريثما قضينا من الحمل الوطر، وأخذ الركب يسير، وتوجه الناس عقبه للمسير، وأرسل الله علينا سحابة وكفاء ليس لها كفاء صيرت الأرض كالبحر الزاخر لا يقر عليها خف، ولا حافر، وأعجزت عن السير، وأوجبت النزول طوعا، أو كرها في ذلك الدير فنزلنا بعد أميال قليلة بحكم الملك القادر، ولم تساعد

الأمير فيما رامه من المسير المقادر، وتفرق الناس يرتادون لنزوهم المواضع الحرشاء التي لا يخاف نازلها من كثرة الأمطار، ولا يخشى، وألفينا بهذه الدار من الآبار، والمآجل، والغدران ما أزال عن القلوب الأدران وكلها مملوءة بمياه الأمطار وكفت السحاب عن الوكوف لتمام الأوطار وظللنا هنالك نتنعم في المطاعم، والمشارب ونقضي من الراحة أقصى المآرب.

وارتحلنا يوم الخميس فريضنا بقرب قصر عليان وبتنا على غير ماء في الموضع المعروف بالبيضان.

وارتحلنا يوم الجمعة فصلينا الظهر بالأجدابية واستقينا من جوابيها الجابية وسرنا منها بعد صلاة العصر وبتنا بعد مجاوزة الجديدة بلا أصر وارتحلنا يوم السبت فريضنا بالمعروف بالعُرف راضة مديدة ونزلنا بعد العشاء على غير ماء بقصر وقيده، ولم ينزل آخر الركب حتى مضى ثلث الليل وارتحلنا يوم الأحد فظللنا سائرين حتى اصفرت الشمس ونزلنا معطن المنعم، أو المنقل، ولم يصله آخر الركب حتى غاب الشفق وبات الناس يسقون القرب ويبادرون القرب، ومنه فارقنا جماعة من أهل فزان جاؤوا معنا من مصر قاصدين بلادهم فزان، ومن المنعم بتنا بمقطع الكبريت على غير ماء.

ومنه بتنا بقرب الحدادية، وهي بئر معروفة/ ٢٤٨/ استقى منها بعض من تيسر له مناولة الماء منها.

وارتحلنا يوم الأربعاء فطرق بعض الناس الحدادية أيضاً واستقى منها لاحتياجه إلى الماء ومررنا قرب الظهر بالكحيلة وانحرفنا لغدران ذُكر لنا فيها ماء المطر فلم نلف بها إلا الأثر وعوضنا الله منها ما لا يكيف من الربيع، والزهر وبتنا باليهودية على غير ماء.

واليهودية بئر في هذا الموضع وذكر أبو سالم أنها قرى متعددة متقاربة فيها آثار بناء خال متراكم يدل على أنها كانت عمارة عظيمة واشتهر على ألسنة الحجاج أنها كانت مدينة مليكتها يهودية فسميت بها ويحتمل أن تكون هذه هي المشار إليها في الرسالة القشيرية إذ لا مدينة في الغرب تعرف باليهودية غيرها.

وارتحلنا منها يوم الخميس فبتنا بالجيرية قرب معطن بو سعدة وارتحلنا يوم الجمعة فمررنا به صباحا وريضنا بمعطن الأحمر.

وهنالك ألفينا الشطاب[1] ورد بمكاتب من الغرب غير أنه طال طوافه وجولاته في الأرض وخرج من فاس في المحرم فلم يصل إلى هذا الوقت.

ووصلنا معطن النعيم بعد الظهر، وتلقانا بقربه طوائف من الأعراب يعرفون بأعراب الزاوية وفيهم الفرجان وغيرهم في عدد كثير، وأبهة عظيمة عليهم آثار الرفاهية التي ليست بواهية، وألفينا حول المعطل عسكراً من أتراك طرابلس ذكر لنا أنه خرج ليأخذ عوائد ووظائف على أعراب تلك النواحي وطلبوا الإقامة من الحجاج ليستوفوهم هنالك فساعفوهم على ذلك، وأصبحنا مقيمين يوم السبت ووردت الأعراب بالغنم، والسمن، والتمر وغير ذلك، وكانت سوق عظيمة غير أن الأتراك أفسدوا أحوالها، وأكثروا أهوالها لأنهم أرادوا أن يقتلوا رجلاً من قرابة أمير طرابلس كان توجه للحج مع الركب الجزيري، وتأخر في مصر لمقتضيات، وأغراض عرضت له حتى غرب معنا يقال له الحاج محمد بو شاقور فطلبوا منه أن يتوجه لخيامهم ليكرموه فكان إكرامهم له بالبندق، والشاقور[2] وجاء فاراً بنفسه منهم بعد أن كان هيأ لهم من الأطعمة ما أبعده الله عنهم، وأصابته رصاصة في رجله وضربة بالسيف في يده وضرب فرسه رصاصة، وما وصل إلى محله/ ٢٤٩/ إلا بعد لأي ولأي فدخل إلى مكان هو كساه الله حلة أمانه، وأنجاه الله من أعدائه وسلم من فضل الله وبركة الرسول (ﷺ).

وترك الترك ما راموه ونقضوا من القتال ما أبرموه ورجعوا إلى مواضعهم وعادت السوق كما كانت قبل تواضعهم.

وارتحلنا من النعيم يوم الأحد، وقد أخذ حذره من الأعراب، والأتراك كل أحد فبتنا بالمدينة، وتسمى الركيزة بالنصيرة فيهما على غير ماء.

---

(١) الشطاب: ساعي البريد بلغة المغرب كالرقاص.

(٢) الشاقور: السيف بلغة المغرب.

وارتحلنا يوم الاثنين فصلينا الظهر بعد مجاوز قصر الذبان وبتنا على غير ماء لما ظهر قرار السور وبان وارتحلنا فوصلنا بئر مطر وعند ارتفاع النهار فتفرق الناس يسقون من مائه الذي جاري بكثرته الأنهار، ومنه مررنا ببير حسان، وهو ماجل منقور في حجر يجتمع فيه الماء وبإزائه قرى خالية لم يبق إلا رسومها تسمى قصور حسان إضافة إلى بانيها.

وكان عالماً لبني أمية لما نقض أهل إفريقية العهد في آخر خلافة بني مروان بني هناك قصوراً، وأقام فيها نحوا من ثلاث سنين، ثم افتتحها بعد ذلك حسبما نبه عليه مؤرخو إفريقية وسمي هذا المكان باسمه إلى الآن، ومن حسان أول سرت كما مر، وهي من أخصب البلدان، وأحسنها، والرفاهية ظاهرة على أهلها.

وبتنا في قرار شرف حسان ويقال له قرار الزيتية على غير ماء وارتحلنا منه فصلينا العصر بالمخاطبة، وهي ساقية من الماء الملح مختلطة بحجر الملح في وسط سبخة عظيمة كما تقدم ومنها انجرف الركب لسقي البهائم من الهيشة وبتنا قبالة الهيشة على غير ماء وظعنا فمررنا صباحا بالجدارية ووسط النهار بالصنعة، ثم بالمجارين، وأشرفنا على معطن السميدة وبتنا قريباً منه على غير مار، وأصاب الناس ظمأ فسقاهم الله من ماء السماء، وأرسل سحابة عمت بالأمطار ووفت بالأوطار فتلقينا ماءها في ما حضر من الأواني وكفانا ذلك للطعام، والشراب فكانت لدينا كالشواني وحمدنا الله الذي ينزل الغيث من بعد القنط ويعجل الفرج على من قنط.

وارتحلنا صباح الجمعة فوصلنا السميدة مع طلوع النهار وسقينا من إحسائها الغائضة فيضان الأنهار وجلسنا ريثما قضينا من السقي الأوطار وفرغنا من الأقطار وسرنا/ ٢٥٠/ فريضنا بمعطن العويمر وصلينا به الظهر، ثم سرنا في سباخ متتابعة حتى وصلنا روضة الشيخ بو شعيفة وبتنا في كفالته وروضته المباركة لنركب من قبالته وسقى الناس دوابهم من سوانيه واستقى كل واحد في أوانيه، وأصبحنا بروضة سيدي بو شعيفة نؤم دياره ونخلص له الزيارة ونسأل الله تعالى من كل شيء في الدنيا، والآخرة

خياره.

ووصلنا ضحى الضريح الإمام المشهور مولانا أحمد زروق أعاد الله علنيا وعلى المسلمين من بركاته، وتفرق الناس في أفنيته ومسجده، وأمامه وخلفه يبتهلون إلى الله تعالى ويسألونه بجاهه ويطلب كل واحد ما شاء قرب تجاهه.

وبقينا به ريثما فزنا بالزيادة في تلك المزارة.

وسرنا حتى توسطنا مسراته وريضنا بين أشجار عظيمة من نخيل وزيتون وغير ذلك حتى صلينا الظهرين وزال عن القلوب كل رين وسرنا فبتنا في أول الوفنية ووردت علينا جماعات من الأعراب يتسوقون الركب بغنم وسمن وشعير وغير ذلك.

وارتحلنا صباح الأحد فوصلنا الفواتير ضحى وريضنا تحت أشجارها، وأبنيتها ونخيلها الباسقة بين سوانيها الكثيرة المتناسقة ومنها مررنا بالزليتن وزرناه ضريح الإمام المشهور بين تلك الأقطار في نيل الأوطار الشيخ سيدي عبد السلام الزليتني المشهور بالأسمر الفيتوري، وله مقام عظيم وشهرته كافية.

وقد ألف في مناقبه الشيخ علي بن عبد الصادق أحد أصحابه الملازمين له تأليفا حافلاً سماه (منح العليم في مناقب سيدي عبد السلام بن سليم).

وطرقنا وادي الحمى وسماه لنا بعض عرب البلاد وادي أغنوا فصلينا به الظهرين واستقى منه من احتاج إلى الماء.

ثم دخلنا ساحل حامد فزرنا في أوائله روضة الشيخ أبي بكر الفرداوي الزياني، وتجاوزناه وبتنا وسط نخيل، وأبنية هناك.

وظعنا يوم الاثنين فمررنا صباحا بروضة الشيخ على الفرجاني، ثم بضريح الشيخ عمر الشارف أحد أصحاب الشيخ عبد السلام المتقدم الذكر (رضي الله عنه) جميع أوليائه فزرنا هما، وتبركنا بهما.

وريضنا عند سيدي بو عصيدة (رضي الله عنه) لقب بذلك لأن عادته أن يصنع/ ٢٥١/ للحجاج قصع العصيدة.

كما مروا به ذهابا وإيابا حتى ينالوا منها بأجمعهم وذلك دأبه منذ أعوام متطاولة واسمه سيدي أحمد بن حجالة روضة عظيمة ومشهد حافل جداً على شاطئ البحر عليها آثار النور، والبركة وورثه أولاده فمازالوا على تلك الوتيرة، وقد ألفيناهم ضربوا خيمتهم وشرعوا في ذلك فتبركنا بطلب الدعاء منهم، وتوضأنا هنالك وسقينا البهائم وسمى لنا بعض الأعراب تلك الأرض بابن جحا.

ومنه انحدرنا في وادي القلعي ووصلنا روضة الشيخ محمد القلعي الشريف ظهرا فنزلنا أمامه للاستراحة، والصلاة، وأخذ الناس يستقون من بئر أمامة ويسقون الدواب وبقينا هنالك ريثما قضينا من الزيادة الأراب وصلينا العصر في تلك الهضاب وانحدرنا من تلك العقاب المتطاولة الصعاب المشهور ذلك كله بالنعازة عند الحجاج وغيرهم من الأعراب.

ولما سهلت الأرض ووطئت نزلنا فبتنا في حفظ رب الأرباب وارتحلنا يوم الثلاثاء ففرغنا من البغازة، وأوديتها وربضنا هنيهة بوطية قماطة، ثم بواد يسمى ميتة الخيار.

وعن يسار المغرب رأس جبل عال يسمى رأس خير، وألفينا تلك الأرضين كلها منعمة بالربيع، والأزهار ومررنا بوادي التوتة قبل الظهر واستقى الناس من بيرها العذب، ثم مررنا بالسبالة ووصلنا وادي المسيد فسقينا به الدواب وصلينا الظهر لما في تقديمها من الصواب وبقينا نتنعم في خصبه الكثير وماءه الغزير حتى صلينا العصر.

وحثثنا المسير فبتنا بوادي الرمل وظعنا منه صباح الأربعاء فمررنا بروضة سيدي علي النفائي ووصلنا تاجوراً ضحى فدرنا بها روضة سيدي أبي النور وروضة سيدي عبد الله قادر وغير ذلك من المشاهد المزارة نفعنا الله بذلك.

وربضنا بالنخيل المتصل بالأبنية المتصلة بالمنشية حتى صلينا الظهر، وتوجهنا لدخول طرابلس فتلقانا الأخ في الله ومحبة الشيخ سيدي أحمد بن صالح وسط القرى التي هنالك بقرب ضريح سيدي محمد بن سعيد (ﷺ).

وزرنا المشاهد التي هنالك وسرنا حتى انتهينا إلى المنشية، وهي مدينة قبالة طرابلس

ينـزل الحـاج في ديارهـا لسـعتها وكثـرة المسـاكن بهـا فلـذلك يؤثرونهـا عـن الـدخول لطـرابلس/ ٢٥٢/ واتخـذنا في المنشـية داراً بقـرب مسـجدها الجـامع رغبـة في جـواره لتحصيل الجماعة في كل وقت وبقينا مدة إقامتنا بطرابلس نحواً من سبعة عشر يوماً، أو أكثر ونحن نتردد لمن أمكنـت زيارتـه مـن صـالحيها ومشـاهدها ولقينـا بهـا جماعـات مـن الناس غير الذين لقيناهم في الذهاب أولاً.

وأجل من لقيناه في الإياب الرجل الصالح العالم الزاهد المتبرك به أبو عبد الله سـيدي محمد المعزوي أدام الله رعايته، وأحسن فيه سعايته بمنه لقيته بداره من المشريـة مـع محبنـا الفقيه أبي العباس أحمد الغزي وصلينا معه العصر في مسجده الذي بقرب داره.

وحدثنا بفوائد علمية، وله يد في العلوم، ولا سيما التصوف فإنه كـرع فيـه مـن بحـر شيخه الإمام المشهور سيدي محمد بن سعيد (ﷺ) وحالته متقشفة، ولـه أخـلاق جميلـة واسعة وظن حسن في جميع العباد ومنشأ ذلك صفاء الباطن ونـور آنيتـه وحسـن النيـة وخلوصها أجزاه الله عنا وعن المسلمين خيراً.

وتبركنا أيضاً بملاقاة الرجل الصالح المسن الخير البركـة الفقيـه المشـارك الـدراك أبي عبد الله محمد بن مساهل الطرابلسي بـداره ومسـجده وصـلينا معـه الظهـر، وتنولنـا معـه مسائل حديثية، وله أخلاق حسنة سهلة واسعة لينة (ﷺ) ورأينا غير هـؤلاء ممـن لقينـاه أولا وخرجنـا مـن طرابلس يـوم السـبت الرابـع عشر مـن رمضـان المعظـم سنة أربعـين ومائة، وألف فنزلنـا بعد تمام النخيـل، والأبنيـة المتصـلة بطـرابلس بالموضـع المعـد لنـزول الأركاب المسمى قرقاش.

وارتحلنا منه صباح الأحد فريضنا ضحى بنخيـل زنـزور وريضـنا في الظهـر في نخيـل جدايم، وتحت ظلالها صلينا الظهر، والعصر، وأسرعنا المسير فبتنا بالزاوية وارتحلنا يـوم الاثنين فريضنا الراضة الأولى ضحى بنخيل زواغة وصلينا الظهر بمليته وبتنا بازوارات الشرقية.

وظعنا يوم الثلاثاء فريضنا منحى بقرب الـزوارات الغربيـة للأقطـار ووصـلنا فنزلنـا

لنقضي من السقي، والاستقاء الأوطار وصلينا بها الظهر، وأدركتنا صلاة العصر ببرج الملح فأديناها على شاطئ البحر الملح وجلسنا أمامه نوحد الله ونتعجب فيما خصه به من تلك الأمواج/ ٢٥٣/ ، وأولاه وبتنا بين البوح، وأرض الشوشة.

وارتحلنا يوم الأربعاء فريضنا الراضة الأولى في أول الشوشة، وهي أرض متسعة سميت بذلك لكثرة ما بها من النبات المسمى بالشوشة وصلينا الظهر في وسطها وبتنا بابن قردان وظعنا صباح الخميس فوصلنا نبش الذيب ظهراً تفرق الناس يسقون منه إذ لا غنى لهم عنه.

وبقينا به حتى صلينا العصر، وتجاوزناه وبتنا على غير ماء وظعنا يوم الجمعة فوصلنا جرف جربه ضحى ونزلنا به وخرجت المراكب الموسوقة، والأقوام المسوقة وقامت هنالك سوق عظيمة بين أهلها وبين الحجاج وامتلأت بكل ما ينفع ويحتاج، ولا سيما السمك، والزيت، والفواكه فقد غمرت كل مفاكه، ولم فيهم شيء من البضائع ضائع.

وارتحلنا من جربة يوم السبت فمررنا بوادي السمر وصلينا الظهر بوادي أم جار، وأدركتنا صلاة العصر بوادي عرام، ولم ندخل قريته ذات المقبرة الحافلة الأعلام بل تجاوزناه وبتنا ظعنا يوم الأحد فوصلنا مدينة قابس بعد ارتفاع النهار وقابلناها ونزلنا نجني ما حواليها من الأزهار، وتفارق من يتوجه لتونس من الناس ويحصل الناس من مقضياتهم ما يحصل لهم من إيناس.

وورد علينا جماعة من فقهائها وجملة وافرة من نبهائها منهم الفقيه الفاضل السيد الحاج محمد الملقب بالمكي الصفاقسي صهر الشيخ المشهور أبي الحسن سيدي على النوري.

ومنهم الفقيه أبو محمد عبد السلام بن علي الحامي مفتي قابس وإمامها، والفقيه أبو عبد الله محمد ابن يحيى الحزامي من احد عدولها المنتصبين للإشهاد فيها.

والفقيه أبو الحسن سيدي علي بن الحاج بن عبد الحرمين بن عاقلة القابسي، والفقيه سيدي عبد الله بن الفقيه الفاضل المشهور سيدي عبد الكريم الخروني صاحب التأليف

المشهور المتعددة في أنواع الفتون.

وسيدي علي ابن أبي القاسم إمام زاوية أبي لبابة وسيدي عبد اللطيف بن عبد الله الحمروني.

وسيدي محمد بن عبد الرحمن السكري الحمروني وغيرهم من لم نعرف أسمائهم وكل واحد يسأل عما عن له من المسائل العلمية.

وقد أبدى لنا السيد الحاج محمد المكي أبحاثاً نفيسة في العربية وكذلك في التفسير، وأجبناه/ ٢٥٤/ ولله الحمد، وله مخالطة لتصريح الأزهري، وتفسير الجلالين، وتكلم بعض من ذكرناه من الشهود على أمور مهمة من التوثيق فيسر الله الجواب عن ذلك كله، وله الحمد أولاً وآخراً وباطنا وظاهراً.

وأصبحنا يوم الاثنين متوجهين لزيارة الإمام الأعظم أبي لبابة رفاعة الأنصاري صاحب رسول الله (ﷺ) في أصح الأقوال وإن اختلفوا في اسمه على عدة أقوال وبقربه في الروضة ضريح سيدي علي التواتي وحوله سيدي عبد الله ناجي.

ذكروا لنا أنه كان أمير ركب الحاج، وكان صالحاً وسألنا الله تعالى بحق هؤلاء السادات أن يمن علينا بخيرات الدنيا، والآخرة، وأن يختم لنا بالحسنى وينعمنا في المقرر الأسنى بالدرجات الفاخرة.

ودخلنا مدرسة أبي لبابة ومسجدها ولقينا بها جماعة من الطلبة وبناؤها في غاية الإتقان، وألفينا بقربه روضة أخر ذكروا لنا أن صاحبها يقال له سيدي عبد الله حجام رسول الله (ﷺ)، وأنه لقب بذلك لأنه طلب ذلك على رسول الله فبلغه الله أمله ونيته ووصله أمنيته، وكان له في ذلك سبب لم يكن لغيره وفاز بما لم يفز به أحد من خيره.

وهنالك قبة أخرى على ربوة لم نعرف اسم صاحبها فزرناها بالنية في حصول كل أمنية وسرنا حتى وصلنا روضة سيدي هريش فزرناه وانحدرنا لواديه فألفيا عينه جارية واستقينا منه وسقينا البهائم الجارية ونزلنا في الظهر حامة قابس، وأقمنا بها يومين لمطر صير وجه الأفق من شدة سحائبه عابس.

وورد علينا فيها الفقيه الخير السيد نصر بن نصير الخفيفي بكتاب اسمه (الدرر الملتقطة في المسائل المختلطة)، وهو كتاب حافل جامع لأنواع الفقه وختمه مؤلفه بمسائل تفسيرية وحديثية وجمع فيه من الفروع الفقهية ما ليس في غيره في كل مسألة يحكى أقوال الأئمة الأربعة وينقل كلامهم عليها ويتنوع في اختلاف المذاهب واختلاف أهلها، وأقاويل أربابها ويجلب الأقوال الواردة على كل مذهب.

وزرنا من أمكنت زيارته من صالحيها كسيدي عسكر وسيدي بلقاسم المدعو هبيلة الحمراني وسيدي علي بن سالم وسيدي عمر الرجراجي وسيدي/ ٢٥٥/ محمد الغوش.

وسيدي محمد بن عبد الله البطمطي وسيدي عبيد وغيرهم نفعنا الله تعالى بذلك وسلك بنا أوضح المسالك وجعلنا من المحسوسين على أوليائه المتمسكين بأسباب أصفيائه آمين.

وظعنا من الحامة يوم الأربعاء الخامس، والعشرين من رمضان فتركنا الطريق ذات التسيار، وأعملنا إلى ناحية اليمين التيسار وجلا من الوحل الذي غادرته بتلك السباخ الأمطار حتى حال بين الطريق وبين من له فيها أوطار، وأخذا على طريق الشارب الذي لا يسوغ ماءه الشارب.

قيل إنها سميت بطريق الشارب لأن أكثرها متصل بالسبخة كالشارب لها وريضنا في عقلة آبار هالك تسمى برادع ذكر أن ماءها ليس للعطش برادع ولذلك لم يرد أحد منه لاستغناء الناس عنه وسرنا منها فريضنا ثانياً في موضع تسمى القويفلة بالتصغير سميت بذلك لشجرات بها تتراءى للناظر كالقافلة لاسائرة وصلينا بها الظهر، والعصر.

وبتنا دون الزهانيات وظعنا يوم الخميس فمررنا بالزهانيات صباحاً وريضا على الساقية فصلينا بها الظهرين وسقينا البهائم واستقينا من مياهها السانية وبتنا بالمويلحة.

وظعنا يوم الجمعة فَرَيَّضْنَا بالعرق وحثثنا السير فوصلنا لسيدي بو هلال بعد الغروب، ولم ينزله آخر الركب حتى غاب الشفق وقاسى في الظلمة غاية الكروب وظعنا يوم السبت فزرناه ومررنا في مداشرة وقراه حتى وصلنا القاعدة مندن الجريد،

وأعظم بلدانه، وهي توزر قبل الظهر وخرج لملاقاة الركب جماعة من أعيانها، وفي وسطهم حكامها قد أحدق به العامة، والخاصة، وأقمنا بها السبت، والأحد، والاثنين، وفي عشية ظهر هلال شوال فطلبوا منا إقامة سنية على عادة الركب فأسعفناهم بذلك لما أشرنا إليه قبل، وأكد ذلك إنا كنا مقيمين ننتظر العلام، ومن معه من الناس الذين ذهبوا من قابس مع من توجه إليها ليوصلوهم للقيروان.

ورأينا أيضاً احتياج الناس للموعظة، ولا يمكن وعظهم في غير ذلك فصلينا وخطبنا لهم خطبة حسنة مشتملة على التبشير، والتحذير وغير ذلك مما يحتاج إليه/ ٢٥٦/ المأمور، والأمير، والجليل، والحقير، والصغير، والكبير، وتنوع الناس أيضاً على عادتهم في أنواع المطاعم، وأبدوا منها كل ناعم، وأوسعوا كل حاضر بما لا يتيسر للحاضر.

وورد علينا ناس لا يصحون كثرة وفيهم جماعة من أعيان الفقهاء، والقضاة، والنبلاء منهم مفتي تلك الأرض الفقيه الفاضل أبو العباس أحمد بن عبيد، وهو رجل فقيه يستحضر النصوص الفقهية، وله أخلاق حسنة يباشر بها الناس مع قيامه بأمور الفتوى هناك، ولم نكن لقيناه في المرة الأولى ونحن مشرقون.

ومنهم الفقيه القاضي الخير الناسك سيدي علي بن عبد الملك قاضي توزر وإمامها، أو خطيبها لئن الطبيعة سهلها مع الإنصاف التام، وقد مر ذكره.

ومنهم الفقيه الدراك السيد رمضان المتقدم الذكر أورد علينا كتباً في الكلام يستشكل كلاما لبعض شراح الصغرى عند حدهم فيما يستحيل على الله تعالى الموت في كلام له عجعجة بلا طحن، ومن الغد أورد الزرقاني على المختصر في جميع ذلك واتضحت له بحمد الله تعالى وجوه تلك المسائل، وأخذ يتكلم في مسائل نحوية وحديثية ونحن نجاريه فيما هنالك.

وزرنا من أمكنت زيارته من صالحيها وارتحلنا منها يوم الخميس ثالث شوال فريضنا بالحامة التوزرية في أحسن الأحوال واستقى الناس ما يكفيهم في القرب وقضوا من

الاستراحة غاية الأرب ومنها ريضنا ثانيا بالموضع المعروف بالمخرق، وألفينا ماء غدرانه في جميع نواحيه قد تخرق وفيه من الكلأ، والربيع للمراعي ما فيه غنية السائم، والراعي فتنعمنا بتلك الغدران المغنية عن الأنهار، وتمرغت البهائم على هاتيك البسط المبسوطة من ألوان الأزهار، وتجاوزنا الشبيكة وبتنا.

وظعنا يوم الجمعة الرابع فتجاوزنا تمغزا وريضا بين ما حواليها من المرابع في خصابة ظفرت من الأشجار وبتنا بوادي غيران واستقى الناس ما يكفيهم منه ومما حوله من الغدران.

وظعنا يوم السبت الخامس فريضنا بوادي الطرفا ويسمى وادي فرشكاون، وألفينا به من الماء الغزير، والخصب الكثير ما فيه غنية، وفي / ٢٥٧/ حوانبه من أشجار الطرفا العظام ما يحيي رفاة العظام، وتجد النفس للاستظلال به غاية المنية، ومنه ريضنا بالغيضات، وهي اسم لمجاري المياه بين تلك الجبال، والرمال إذا تعددت من الأمطار الغيضات وبتنا أمام وادي العظام بين هاتيك الكثبان العظام وظعنا يوم الأحد السادس فريضنا بالزريبة الأولى المعروفة بزريبة حامد الجامعة بين المعايب، والمحامد، وتلقانا أهلها بالتمر، والشعير، واللبن وغير ذلك ووقعت بينهم وبين الحاج سرر عظيمة هناك، وألفينا الوادي الذي بإزائها مملوءاً بمياه الأمطار وبين سواقيه حصائد عظيمة للبهائم فيها غاية الأوطار فكملت فيها الراضية ووجد الخبير فيها من الماء، والمرعى ما وله وراضه.

وهنالك ألفينا أخبار الرقاص الوارد من الغرب، وأنه ببسكرة، أو دونها بالقرب ومنها نزلنا بزريبة الوادي بين الظهرين، وألفينا الرقاقيص بها فبتنا فيها لنذهب ما أثرته الوحشة في القلوب من الرين، ولما أدينا دين الصلاة الواجب وكملت لدى الرقاقيص الواجب أخذوا في تفريق الرسائل على أربابها وإدخال السرور بنفي الشرور عن ألبابها وحاصل ما تضمنته تلك الرسائل.

وكان في جلها من أعظم الوسائل هو أن السلطان أبا العباس أحمد الذهبي لذى كان تولى الملك بعد، والده قد أخل بطريف الملك، وتالده، ولم يصلح للانتظام في ذلك السلك، ولم يحسن نظرا في المملكة، ولا في الملك بل اشتغل بما لا يناسب ذلك من التعب، واللهو، والتفنن في الخلاعات مع النساء، والولدان تكميلا للزهو إلى غير ذلك مما يجب عنه الإعراض إذ لم تتعلق لنابه أغراض، وأنه لم يقم بذلك المالك لما توسموا فيه من الصلاحية لما هنالك وورد علينا كتاب حافل من محبنا الأود الفقيه الأديب أبي العباس أحمد البكوري صدره بقوله:

لما وضعت صحيفتي في بطن كف رسولها
قبلتها لتمسها يمناك عند وصولها

وورد علينا كتاب من أخينا الأنجب الحاج طاهر يخبرنا بكل أمر ظاهر وإن الأهل ولله الحمد في عافية تامة ونعمة عامة فسررنا بذلك، وكان ذلك/ ٢٥٨/ اليوم لنا كالعيد هنالك، ثم قامت سوق عظيمة بين أهل زريبة الوادي وبين الحجاج وجاءوهم بكل ما يحتاج إليه من سمن ولبن وفواكه وغنم ودجاج.

وبتنا في ليلة حضرت سرورها ونفرت شرورها، وتمت نعمها وعمت نعمها وظعنا منها يوم الاثنين السابع فأصبحنا على غدران ومرابع فاستقى الماء من احتاج إليه، وأعرض عنه من لم يتوقف عليه وظللنا نستظل بأشجار الوادي المسمى وادي المنصف، وألفينا بقربه آبار مملوءة بمياه الأمطار فقضينا منها بعض الأوطار وددنا بها الطهارة، وتجاوزناها وصلينا الظهر في فلاة من الأرض.

ووصلنا إلى وادي الناموس ويسمى رأس العيون مع مغيب الشمس رغبة في الماء وبتنا بين تلك اليهماء وورد علينا من الأعراب ما ملأ البهماء وظعنا يوم الثلاثاء فوصلنا لسيدي عقبة ضحى وطلب أعرابه من الشيخ النزول لديهم ليتسوقوا منهم ما بين يديهم فأجابوهم بعد اللتيا إلى ذلك ونزلوا جل ذلك اليوم هنالك.

وكان سوق عظيمة مملوءة بالتمر، والسمن، والشعير وغير ذلك من الحيوانات، ولا سيما جنس البعير، وتوجهنا لزيارة سيدنا عقبة نفعنا الله به ودخلنا روضته المباركة، وألفينا عليها بناء متقنا ليس فيه مشاركة وحواليها مسجد ومدرسة، وأبنية لا بأس بها، وفي بابه بير حسنة كثير على مولحة.

وسألنا الله تعالى بجاهه لنا ولأحبابنا، وأهلينا وعامة المسلمين وخاصتهم بما نرجو الله قبوله وصلينا الظهر وحثثنا السير من يدي عقبة فصلينا العصر بواد قرب بسكرة ووصلنا بسكرة عشية، وأقمنا بها الأربعاء، والخميس، وكانت فيها سوق عظيمة بأنواع النطاق تميس وامتلأت بالبغال، والإبل، والشعير، والسمن، والتمر، والدقيق، والقمح، واللحم، والغنم وغير ذلك من أنواع السلع، والزرابي.

وظعنا منها يوم الجمعة الحادي عشر فريضنا أولا بعين أوماش واستقى الناس من مائها وسقوا البهائم ومنها ريضنا بوادي الزاب في أخريات مداشره فصلى كل فريق مع معاشره، وتلقانا أهل الزاب كباراً وصغاراً بأنواع التمر، وأنواع الفواكه من تفاح ومشمش وغير ذلك ووردوا علينا بما لا يحصى من الزرابي التي على شكل زاربي بسكرة وغير ذلك، ومن ذلك الوادي مررنا بضريح سيدي عبد الرحمن/ ٢٥٩/ الأخضري الإمام العلامة المشهور الجامع بين علمي الظاهر، والباطن له كرامات مأثورة، وتآليف مشهورة في المنطق الذي اشتهر في أقطار الأرض شرقاً وغربا وكثر الانتفاع به وكالمنظومة التي له في السلوك تشابه المباحث الأصلية رائقة النظم فائقة الحسن حلو مسلسلة، وله مقدمة في الفقه مشهورة في تلك الأرض.

وله الجوهرة في البيان وغير ذلك وبيتهم بيت علم وصلاح، وهو الذي أظهر القبر المعروف لسيدي خالد بن سنان في بلاد الزاب المتقدم الذكر.

ولما قربنا من قبر الشيخ عبد الرحمن وقابلناه أقلنا عليه بنية الزيارة، والتبرك، وتجاوزناه وبتنا بأرض مغدان على غير ماء، ولا غدران.

وارتحلنا يوم السبت الثاني عشر فأصبحنا بنخيل أولاد جلال، وأخبرنا هناك بأن أعراب سيدي خالد عزموا على أخذ الركب بين تلك التلال فأخذ الناس حذرهم من ذلك، وتهيئوا لاقتحام المهالك، وتفرقوا على نواحي الركب يحمونه من كل كرب وعزموا على عدم الجواز على أعراب سيدي خالد فراراً من القتال أمام ذلك الإمام العظيم القدر ورغبة عن أن يتصف جوار ذلك الرسول بالغدر فتلقانا جماعة منهم وحكموا بتكذيب جميع ما نقل عنهم، وأظهروا أن هم في الركب محبة ووداداً وإنهم لا يريدون منه إلا بركة وامتدادا فكيف يضمرون له ضيراً ويرجون من ضرره خيراً فصدقناهم في ذلك، وتوجهنا معهم لهنالك وبتنا بوادي سيدي خالد الذي جمع كل محد طارف، وتلاد، وتوجهنا لمشهده الحفيل المشيد بين ذلك النخيل وسألنا الله بجاهه خيرات الدنيا، والآخرة، والكرع من فيض أبحر فضائله الزاخرة.

وكانت لأعرابية مع الحجاج سوق قامت لها البيوعات على سوق وامتلأت بالشعير، والتمر، والسمن، واللبن، والتفاح وغير ذلك مما يجلبه الركب لسوقه ويسوق ومات لنا هناك رجل من الحذامين شاة الوادي.

وارتحلنا يوم الأحد الثالث عشر آخذين أيضاً الحذر فصلينا الظهر وادي صياد وبتنا قرب التويمات وظعنا يوم الاثنين الرابع شر فأصبحنا بالتوميات وهما ربوتان عظيمتان شبهتا بالتوأم الذي يولد مع أخيه في بطن واحد لتقاربها، وتقارنهما، ثم عبر عنهما بالجمع لكثرة رملها، أو لعظمهما، أو غير ذلك كما مر أيماء إليه وريضنا في جرف الأحمر/ ٢٦٠/ من الموت لحقهم من العطش أشد المعاطب، وأكثر المهالك.

وارتحلنا يوم الأربعاء الثالث، والعشرين في مطر وابل لا يترك من الطرقات إلا الواضح السابل فبتنا على غير ماء قرب دار فريحات وارتحلنا يوم الخميس الرابع، والعشرين فريضنا بعد مجاوز دار فريحات بموضع تسمى القرعة ووصلنا العين الحسيني بعد العصر فبتنا لنتوسع في السعي، والاستقاء بلا عصر.

وارتحلنا يوم الجمعة الخامس، والعشرين من شوال فريضنا أولا بـالجنين بالتصغير، وهو شجر من البطم عظيم مستدير ومررنا بعده بأشجار أخرى عظيمة متابعة تعرف بالجبان بالتكبير، وتجاوزناه في مطر غزير وبتنا عند منقطع جبل عنتر.

وارتحلنا منه يوم السبت السادس، والعشرين في مطر غزير فريضنا في ربوة مشرفين على غدير، ثم ريضنا ثانياً في أبي الضروس وصلينا الظهر حول إحسائه السهلة الضروس، وتجاوزناه بكثير في مطر غزير وبتنا على غير ماء في فلاة يهماء وظعنا يوم الأحد السابع، والعشرين فمررنا بغدير مملوء بالماء النمير وريضنا في عقله آبار تعرف بالقفلة الحمراء بين هاتيك الصحراء وجددنا الطهارة بآبار السلطان ومررنا بسباخ عظيمة.

ومنها ارتفعنا البروة حمراء بني تلك الغيطان فصلينا بها الظهر وبقينا بها نستريح حتى صلينا العصر وسرنا حتى أذنت الشمس بالغروب وبتنا بالمنقوب.

وارتحلنا يوم الاثنين الثامن، والعشرين فريضنا حول شجرات الغراب لاستعمال ما خف من الطعام، والشراب، ثم مررنا ببطمة المهزولة وريضنا ثانيا بوادي الشارف، وهو رأس وادي ابن مطهر وفيه لقينا أعرابا لا تحصر وبقينا بالكدية المعروفة بتسكينت مشرفين على المريجات وارتحلنا فتركنا المريجات يمينا ومررنا بالطراريز وريضنا على عيون الشيخ علي بن مسامح (ﷺ).

وهناك وردت علينا أخبار الغرب، وأهله وبقينا بها حتى صلينا الظهر، والعصر وسرنا فبتنا بموية الطير بعد مجاوزة فم بلزوز وارتحلنا يوم الأربعاء الموفى ثلاثين من شوال فدخلنا تفراطة وريضنا بفم الوادي المنسوب لديدواء منه ريضا بغويبة البطم التي بتفراطة المسماة رقبة الغويبة.

وهناك/ ٢٦٣/ لينا بعض الملاقين ووردت علينا رسائل أصحابنا تهنينا بما أمطرته من ودق الحج، والزيارة غمائم سحابنا، وتأملنا تلك الرسائل البديعة التي حازت حسن

الخطاب وبديعه واستغنينا عن الاستراحة بها وجدناه في أخبار الأحباب من الراحة، وتركنا الشريعة يمينا بوادي البطم.

ووصلنا وادي ملوية الذي لم تزل حياة جداوله على تلك الروابي ملتوية فنزلنا بقصد المبيت هنالك ووردت علينا من أنواع الملاقات المغربية، والأطعمة الفاخرة الملونة ما يقف لوصف دون ذلك.

وظعنا يوم الخميس متهل القعدة فريضنا بالموضع المسمى بذراع تدارت، ومنه ريضنا بوادي القطف حول غدران من المياه في أوائله وبتنا في أواخره منين من غوائله وظعنا يوم الجمعة الثاني من القعدة فأصبحنا بتازا ضحى وبقينا بها حتى صلينا الجمعة، وكان الركب تقدم أمامنا فلحقناه وبتنا بوسط عقبة بني مجارة، وقد أوسع كل واحد من أطعمة الملاقاة جاره.

وظعنا يوم السبت الثالث فريضنا بعدما عبرنا الوادي، ثم ريضنا بالزريق ثانياً ومررنا ببوحلوا وبتنا بقصبة الثور منجدين بنجدها على الغور وهناك تلقانا محبنا وصفي ودنا الفقيه النبيه الأديب النزيه أبو زيد سيدي عبد الرحمن بن سيدي محمد بن شيخ شيوخنا الإمام الأكبر أبي علي الحسن اليوسي (ﷺ) بالدقيق، والدجاج وباكور التين وغير ذلك كثير الله خيره ووفاه ضيره، وأصلحه في الباطن، والظاهر، وأبقى عرضه النقي الطاهر.

وظعنا يوم الأحد الرابع فمررنا ببو زملان، وألفينا بعيون الطين مارق من الأطعمة ولان وريضنا فيها حتى صلينا الظهر، والعصر وورد علينا أخونا طاهر بما فيه غنية في العصر وبعضهم يسمى هذه العين عين حنان وعين ردادة وسرنا منها فبتنا بالبئر قرب عنق الجمل.

وظعنا يوم الاثنين الخامس من الشهر فأصبحنا القنطرة تنعم في المطاعم، والمشارب ونتجاذب من أطراف الأحاديث ما فيه غية الشارب ونتوسع في غير ذلك.

وجاءنا سيدي عبد الرحمن اليومي المذكور من أنواع الأطعمة فيها بما لا يزال عليه نفس المحمود المشكور وكذلك رفيقنا/ ٢٦٤/ شيخ الإسلام أبو محمد عبد السلام فقد وافى بطعام يكفي حامله ما يقرب من العام ودخلنا الفاس الطيبة الأنفاس أمنها الله من كل بأس صبيحة الثلاثاء السادس من القعدة الحرام، وتوجهنا للحرم الأدريسي ننهى إليه الإجلال، والإكرام ونجعله أول ما ألقينا به عصا التسيار وحمدنا الله تعالى على السلامة من غوائل الأسفار، وأكثرنا من الحمد، والشكر، والثناء، والاستغفار.

وطلبنا المغفرة لنا ولجميع المسلمين من الملك الغفار وسألنا الله العافية التامة في هذه الدار، وفي تلك الدار.

وأن يختم لنا بالحسنى بجاه نبينا محمد الذي هو القطب الذي عليه المدار ختم الله بالصالحات أعمالنا وبلغنا من خيرات الدنيا، والآخرة آمالنا بمنه وفضله وكرمه وطوله آمين يا رب العالمين سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك، وأتوب إليك اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً./ ٢٦٥/

فهرس الآيات القرآنية

الشورى

الفتح

الحجرات

المطففين

قريش

فهرس الأحاديث

فهرس الأعلام والأماكن والألفاظ الحضارية والمصطلحات وأسماء الكتب...

فهرس القوافي

فهرس المحتويات